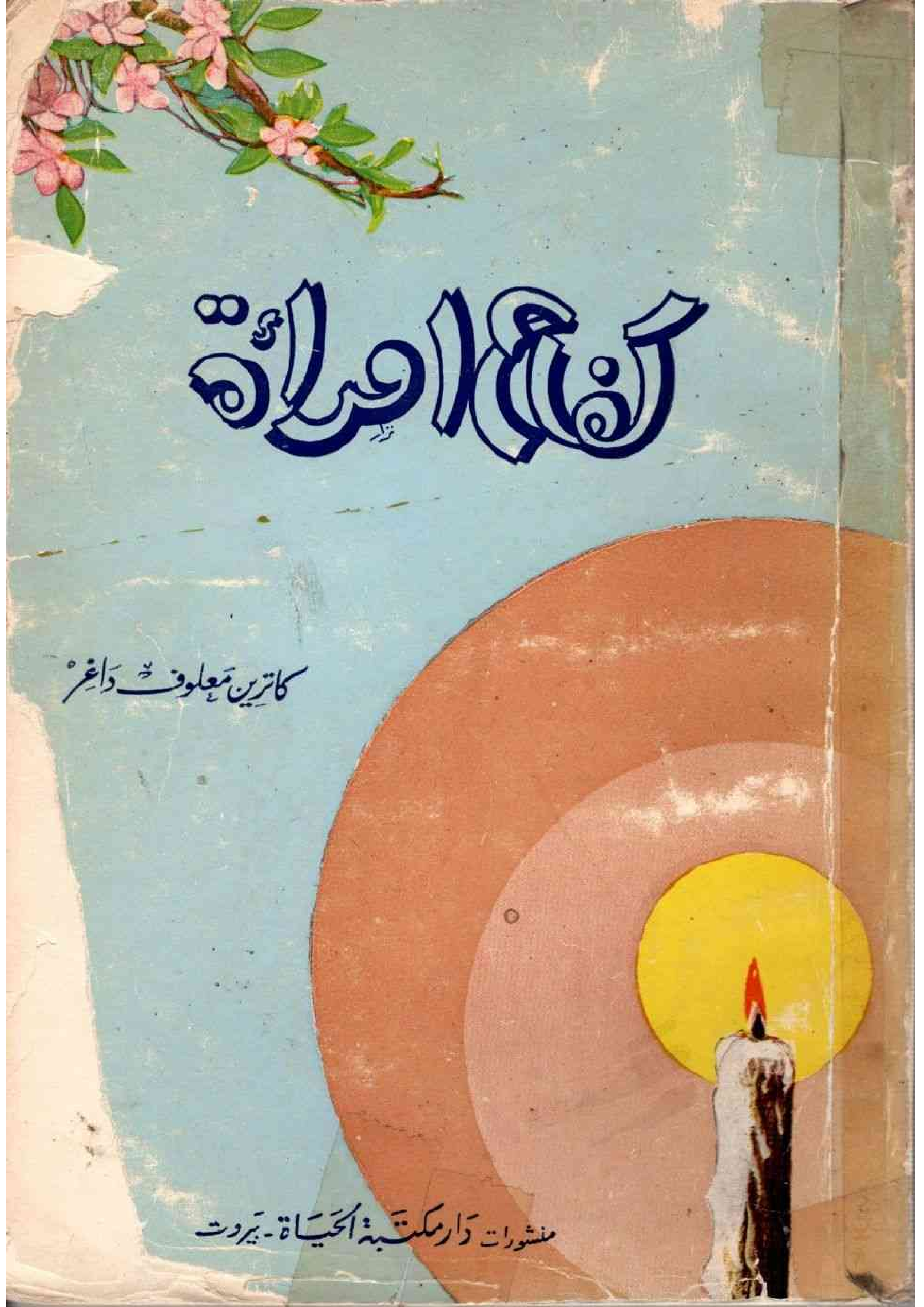

كفاح امرأة
كاترين معلوف داغر
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت



كفاح امرأة

كاترين معلوف داغر

كفاح امرأة

*

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

١٩٦٥

مقدمة

إن للانسان ما تألف اذناه من سماع الأحاديث الغريبة التي تجعله يزداد رغبة في الاطلاع على الأمور التي تستغرق البحث في مقدمتهافتسير به بالتواتر إلى الاختبار السريع في كيفية الاجراءات التي تتطور مع الانسان خلال العمر .

وهكذا فقد طوت السطور أحاديث جمة وقصصاً غريبة عن مسالك الأشخاص الذين يمتازون برقة أحاديثهم وجهد مصاعبهم في هذه الحياة الدنيا. وميزت باختباراتها ما بين الحكماء والجهال ... ولما كان للبحث عن هذه الأمور شتى الملامح يترقب فيها المرء التمييز ما بين الحكمة والجهل ، ودام يكتسب الاختبارات من إدراك وشمول مقتضى الانسانية فقد تسنى له ان يبرهن بكل دقة عما دار لديه من اقاصيص وأحاديث مجدية التي تزيد القارىء في الاطلاع عليها والتمعن بها .

نعم ، ان عامل الرغبة قد دفع اليد الكاتبة لتنشىء اساطير قديمة غريبة التطور في نوعها تحتوي على مجموعة شاملة من الآداب والتهذيب والجهود الجبارة التي تقوم بها المرأة لحفظ كيانها وتغلبها على مراوغة الفتيان الذين يبالغون في إطرائها ويخدعون حياتها بمغامرة الانجذاب الى تتميم مآربهم... وإنها هي التي يمكنها ان تصمد بوجه العقبات وتشاطر الدهر طوارىء غدره وتنجو بحكمتها من غباوة الذي تتغلب عليه .

وإن تلك المرأة الحكيمة الـــتي لم تنصرف الى الأمور التافهة قد لا تهمل الامكانيات والفرص العديدة التي فيها تستطيع ان تجعل حياتها سعيدة سامية موفورة الكرامة . ولا غرابة فان الانغماس بحالة البؤس والشقاء يعرض بعض النساء الى عواقب وخيمـــة تحصرهنّ ضمن الأمور التافهة وتنسيهنّ الأمور الرفيعة الهامة .

وإن هذا الوضع الذي نعيش فيه مهملين الأمور الهامة ، انما هو العامل الاكبر للنساء اللواتي فقدنَ حاسة التطلع الى العـــلاء ، وقد غمرنَ حياتهنّ بأعمال تافهة تعيرهنّ انتباهاً واهتماماً لمطامعهنّ الدنيوية .

ولا بد أن تبرق في حياة الناس ، رجالاً كانوا ام نساءً ، عوامل النور فتدفعهم الى الاهتمام بالأمور الجليلة مثل الذي يحني ركوعاً لله ، فيرفع نظره الى العلاء مستنجداً برب السماء جاعلاً شعاره انتهاز الفرص المناسبة لاعطاء نشأته المهمة الكافية .

يتراءى لنا أحياناً ان المرأة الفاضلة عندما يفتك بها الدهر وتقع في ورطة الارتباك توجه نفسها للانصراف الى ادارة العمل الذي تقوى عليه ، وهي ولا شك عندما تصطدم بعثرات الرزايا تفسح مجال الجد للأعمال التي يمكنها ان تقوم بها فتحصل إذ ذاك على نتيجة لاعالة نفسها ومساعدة عائلتها .

وإذا أعرنا التفاتـــة نحو العالم نرى ان الكثيرين والكثيرات قد اصيبوا باضطراب وقلق في حال من الحالات فأعياهم الأرق حتى أنهم باتوا في عراك الفاقة كالحمامة التي لم تجد عشاً لها .

ولكن حينما يكون للانسان مقدرة تنبثق عنها أحسن مقومات الحيـــاة عليه إذاً ان يدأب في سبيل الجهاد ويرفع نظره إلى أعلى ، وفي صعيد السمو والتحليق في الفضاء حيث يندمج إذ ذاك بتوفير السعادة والاقبال .

المؤلفة

١

لقد تعود الأقدمون على امساك الحرية بمقياس التقاليد التي ساروا عليها منذ البدء . اما الآن فتحتاج الحياة السامية الى فتح جديد في نواحي التبصر لاستعمال مقياس السعادة وتطبيقها على نموذج المحبة والصداقة المتلائمة بين النفوس وليس على سبيل الضغط وكبح النفس من الوالدين الذين يزعمون ان لهم حق السيطرة على أولادهم ، وان لهم كل الحق ان يكرهوا الاولاد على الطاعة العشواء خصوصاً البنات .

كلٌ من ابناء هذا العصر لا شك عرف بعض الشيء عن تقاليد الاقدمين وتشبثهم في آرائهم للعوائد التي كانوا يرتكزون عليها، سيما وان الفتاة يومذاك لم يكن لها امتياز في الحياة لتخطو المرحلة التي تتسرب الى مخيلتها فيتعذر لديها عند ذاك التطلع الى الواجبات والرضوخ لاحكام الطاعة المكرهة عليها حتى انه لو تقدم شاب لطلب يدها لم يكن لها الحق ان تخاطبه او ان تنبس ببنت شفه ، أحبته أم لم تحبه ، أمثال هؤلاء لم يكن لهم التأثر على مشاعر القلوب لتبادل المحبة بين الفتى والفتاة ، بل كانوا يتابعون تنفيذ آرائهم والضغط على الفتاة لزواجها من رجل لا تهواه ولا تلوذ لمكالمته .

ان ذلك العنصر الذي كان الوالدان يزعمان ان عقد الزواج يتدبر برأيهما فقط يؤدي الى صراط النعيم ، لكنه أبرز جحيماً للتعاسة والشقاء حيث تظهر منه المشاكل التي يتعذر حلها . .

والأدب العالمي يزخر بأمثلة كثيرة تدل على هذه المواقف خصوصاً عند

أصحاب النبوغ الذين يؤرخون الأحدوثات الغريبة عن عالم الدهر .

وعلى هذا المنوال نسجل للقراء اسطورة صغيرة عن العصر الماضي وقفنا على حقيقة وقوعها ..

كان لاحدى العائلات ابنة وحيدة ، وهي آية في الجمال ، فتعلق الوالدان بمحبتها وأولعا بها ولعاً شديداً لانه لم يولد لهما ولد آخر سواها ، فكانت هي السلوى الوحيدة لقلبيهما ..

ولا ريب فانهما بالغا في الاعتناء بتربيتها حتى انهما كانا يشعران انها ستكون هي وحدها التعزية لهما والحافز الاول لطاعتها ..

نشأت الابنة بين أحضان والديها وترعرعت بالمغذيات التي تشتهيها وطلب الاشياء التي تصبو اليها فلم يكونا ليردا لها طلباً مهما سألت منهما ..

سارت الابنة في دغدغة العمر هنيئة مزغردة لا تفهم للهموم معنى حتى بلغت سن المراهقة .. فلفتت الانظار اليها لانها كانت فتانة ، حنطية اللون ، جذابة ، تسحر الالباب بنظرة من عينيها المكحلتين ، وقد تهافت الشبان لطلب يدها ..

ولم يكن شيء أقرب اليها اكثر من حبها لاحد الشبان المجاورين الذي كان يبذل قصارى جهده ليتمتع بنظرة من نور محياها الجميل ..

وما أسرع ان التأم الشاب بمحبة الفتاة،وانشغف الاثنان بعوامل النظرات لبعضهما ولو عن بعد المسافة ، لكنهما لم يتمكنا من اكتشاف المكنون ..

وما فتىء الشاب يسير خطوة بعد أخرى حتى توصل الى المرحلة التي تجاذب فيها أطراف حبه وانشغافه بالفتاة .. نعم ان الفتاة أحبت الشاب حباً فائقاً ، فتعهدت له بضوء الانطلاق الى حريتها والانفلات من ثقل النير الملقى على عاتقها وأثبتت له انضباط عزمها على الخطة التي ينبغي ان تسير عليها العوامل الودية التي تختلج في حنايا القلب .. وكأنها كانت حينما يروق

لها الوقت لمحادثته ترى ان جمال الحياة من وراء عوامله، وذوقه ، ونظراته.. ولم تكن تفقه لسطوة والديها معنى ، مع انها كانت متأكدة ان سرّ الزواج (زواجها) متعلق بوالديها .. ولم يكن لها الحق ان تسأل عن شيء ..

فبحسب التقاليد التي كان اللبنانيون يسيرون عليها آنذاك تعهد الوالدان بزفاف ابنتها الى شاب لا تهواه ولا تودّ التكلم معه .. وحتماً كان الوالد يومذاك لو تعهد بكلمة لا يأبى إلا ان يقوم بتعهده وتتميم مآربه ..

دعا الوالد ابنته يوماً وقال لها : هيا بنا ، ارتدي ثيابك وهلمي مع والدتك الى السوق لنبتاع لك بعض الاقمشة اللازمة لخياطة الجهاز لأن الخياطة سوف تحضر يوم غدٍ لتخيط لك .

الفتاة : « لا يا أبي ، لا يا أبي ، انا لا أروم الزواج من هذا الشاب »

الأب : « اصمتي يا لئيمة ، لايحل لك ان تتكلمي .. اخرسي ولا تفوهي بكلمة ، فالرأي رأيي والأمر أمري أنا أعرف ما هو الشيء المفيد لك ، فلا تعودي ثانية لمجاوبتي ، فقد تعهدت بزواجك لهذا الشاب وانت تعلمين انه من العار عليّ ان ارجع بكلامي خائباً ، فلا تعاندي ظني وتجعلي رأسي منكساً .. انهضي الآن وارتدي ثيابك بالعجل واذهبي مع أمك لشراء الامتعة اللازمة ولا تنبسي بكلمة ..

انتفضت الفتاة انتفاضة المتألمة ، فدخلت الغرفة تبكي وتقول : « ربي » ما هذا الظلم ؟ ما هذا الحكم ؟ لا ، لا أحبه ، ولا يمكنني ان اقيم معه ساعة واحدة .. وكيف بي وأعيش معه دهراً ، لا احبه ولا اهواه ؟ انني أكره التطلع اليه ولو عن بعد ، ربي ، كيف اترك حبيبي الذي تهواه نفسي ، اهواه ويهواني ويبني على محبتي اسس السعادة ، ويح قلبي ، أأنتحر ، وأنا لي حبيب ولماذا أنغص حياته ، أنغص حياة والدي ، أتراني أفرُّ هاربة من جوروالدي فأنا لم أتعود الوقاحة .. ربي، كيف التخلص من هذه الورطة الشنعاء ، حكم، سيطرة ، استبداد ، غشم لمقتضى الحياة .. يا إلهي رب السموات ، أليس

لهذا الموقف من حلّ ؟.. لا ، لا .. وعلى ما يقال باللغة الدارجة (من هذا المراح ليس لي سراح) ..

عند ذاك أجبرت الفتاة على الذهاب الى السوق ، فجهزت لها أمها من كل غالٍ وثمين وهي تبتسم لابنتها ابتسامة الفرح ، أما هي فلم تبـــالِ بجميع التلطفات التي أبدتها نحوها أمها ، بـــل كانت منكسة الرأس منقبضة القلب تتنازع في نفسها عوامل الانفعالات فلا يحلو لها التكلم مع أحد ، بل بالأحرى تروم الانفجار .. أخذت الأم تملقها بلطيف العبارات وتعدها بارث والدها ، وان كل ما تحويه يده يكون ملكاً لها ، فــلم تكن لتتنبه الى كلام كهذا يبرهن لها أن لا شيء في الدنيا يضاهي نظرة من عيني حبيبها ، وقد انفطرت احشاؤها حينما أخذت الخياطة تخيط الثياب ، فكأنها كانت تصب على رأسها جامات الغضب ، كانت تبكي ، فتبكي ، وتنتهز الفرصة لتصادف حبيبهـــا وتودعه بذرف الدموع بالنفسانية المنفطرة ، بالقلب المتشائم .

فتوالت الأيام الى أن حانت ساعة الزفاف فانتصر الوالدان لإتمام مآربهما ورتبا يوماً حافلاً لحفلة الزفاف .. جاءت البنات فألبسن العروس الحلة البيضاء وكأنها كانت تشبه الملكات.. فسرّ والداها أن يقبلاها ولم يشبعا منها تقبيلاً

سارا بها الى الأمام يتقدمها موكب الفرح . وما انفك الجميع يسيرون بالترويد والزغاريد حتى وصلوا الى الكنيسة حيث رفع الكاهن بركة الاكليل فوق رأسيهما بعد أن أنكرت العروس امام الكاهن اكراهها بالعريس الذي لا ترضاه خوفاً من ابيها لشدة الضغط عليها .

تقدم باهـــداء التهاني للعروسين جميع المدعوين لحضور الحفلة ، وقامت الأفراح بمصافحة الوالدين بالتهاني القلبية .. ثم بعد انتهـــاء السهرة انصرف الجميع الى منازلهم وبات الوالدان في فراشهم .

وما أن دخل العروسان المخدع لاستهداف النوم لم تلبث العروس ان امتثلت حبيبها أمامها يبكي .. فاضطرمت النار في أحشائها وكادت لا تعي

لشدة الحزن العميق الذي تحسس في مشاعرها ، فاندفعت للانتحار ..

استأذنت عريسها بالخروج لقضاء حاجة وأقبلت مسرعة الى البئر الذي هو تجاه المطبخ .. ففتحت بابه ورمت بنفسها الى أعماقه حيث لفظت أنفاسها الأخيرة .

بات العريس المسكين منتظراً إيابها ، لكنها لم تعد .. وما ان رقد الوالدان مستهدفين النوم حتى أخذ العريس يصيح متألماً : أين العروس ؟ لقد هفت وطارت ، الى أين فرّت يا ترى ؟ فتشوا ايها القوم ، بالله عليكم فتشوا ! عروسي الى أين ذهبت ؟...

تراكض الجيران لسماعهم تلك الضجة المؤلمة .. وأخذ الوالدان يصرخان ويولولان .. ابنتي ، حبيبتي ، أين انت ؟ أين مقرّك ؟ أين محل سكناك ؟.. ترى مَن تحبين ؟ هل تراك فررت مع أحد يا ولدي ؟.. أنت عاقلة ولا آمل فيك الخمول ، أنت الآن بعيدة عن أبيك ، ولكن ، في أي محل ؟ دعيني أعرف أين مقرّك فأرهن نفسي لإرادتك ، لقد ظلمتك يا ولدي فسامحيني .. ولكن بربك أما ترجعين ؟.. ألا تعودين إليّ .. أنا ربيتك على حناني يا وحيدتي ، يا حبيبتي . ألا تذكرين أمك التي تأججت بنار فقدك ؟ هل ترانا سنراك ثانية ؟..

لا، لا ، سوف لا تراني ثانية يا والدي ، فما دامت حياتي عذاباً فدعني وشأني ، أنا في تلك الديار اهنأ برب السماء .. سلامٌ عليك يا أمي الحنون ، قبليني يا أمي عن بعد فأنا أحبك ، وأحب الفاظ الأمهات ، وكلي طاعة للرضوخ لأوامرهن ، لكن ، الحب يا اماه ، علة الضنى (علة السعادة) بل هو العلة القاضية للانتحار ، فقد اطعتك ولم أرتد عن مراجعة كلامك ، ولا خالفت لك أمراً ، هوذا الآن روحي ترفرف بين يديك فتملكيها وقبليها قبلات الوداع لأنك لن تعودي تنظريها ، استودعك الله يا امي ، يا حبيبة .

سلام عليك يا من تحبه نفسي ، لقد فاديت بروحي إكراماً لمحبتك ، لا

لا تبك لفقدي ايها الحبيب ، بل احفظ ودادي ، وصن كرامتي .. تذكر يا حبيبي كيف كنت انتهز الفرصة واختطف نفسي خلسة لأقابلك هناك وراء شجرة الرمان نتحدث ونتجاذب أطراف الحب ، ليتك أنت نصيبي تشاطرني حياتي ، ولكن ، يا لنكد الطالع ، ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

الشاب الحبيب ، اين انت الآن يا حبيبتي ؟. لم اكن ارضى لك نكـــد الطالع ، لقد مررت قلبي فتواريت عن الأبصار ، فتشت عليك فلم أجدك ، واحيرتاه ، اين انت ؟ فقد حرمتني لذة النوم احببتك ولم احب سواك ، لا شيء في الدنيا يضاهي نظرة من عينيك ، أمـا تشفقين ؟ أما ترحمين ؟ ردي عليّ! ارحمي دموعي ، لقد عيل صبري .. لم يعد لي طاقة على الفراق .. بالله عليك يا طيور السماء اخبريني اين تمكث حبيبتي ؟ أين تقيم ؟

لا حياة لمن تنادي ، نعم لا حياة لمن تنادي ، ولا أمـل لمن يتهادى في الظلام ، يا للنكبة ، وهدة عميقـــة ، لا شك ان حبيبتي هبطت بنفسها الى الهاوية ، يا للحسرة ، يا للشقاء ..

توافد القوم الى هذا الحادث المؤلم الذي لم يخطر على بال ورجـــع الناس حائرين في الامر ، فتكاثرت عليهم الآراء والدوران للتدقيق في البحث عنها وأصبح والداها يتأججان بنار فرقتها (حسرتها) بيد انهما لم يخب املهـــ لعدم وجودها في الحياة زعماً منهما انها ربما تكون فرّت من تورط عناد رأسها ، ولا بدّ ان تعود اليهما يوماً ..

عاد العريس الى مقره يندب سوء مصيره .

مرت الايام والشهور ولم يعثر أحدعلى ذلك الحادث المؤلم الذي ألم بالوالدين وانحطت له أعصابهما وخارت عزيمتهما حتى ان الهجوع اخذ منهما مأخـذاً ، فضاعت حياتهما بين حزن مؤسف .. لا من معزٍ ، ولا من يؤاسي قلبيهـــما الملتهبين بلواعج التحسرات والاحزان .. وبات العريـــس والحبيب تائهين في تيار تخيلاتهما لا يهنأ لهما بال آسفين على فتاة احلامهما ..

ففي صباح يوم من الايام جاءت بعض الجارات لتمـلأ دلواً من البئر ، فشعرت برائحة طفيفة تميل الى الكراهية، وما ان نشلت الدلو حتى تسرب منه شذرات من آثار حريرية ..

صاحت الجارة بالويل وكاد يقشعر جسمها وترتجف اعصابها ، فتراكض الناس لاكتشاف الحادث ولجأ الكثيرون من الرجـال والنساء لتفريغ البئر حيث وجدوا الفتاة جثة هامدة فانية .. فانتشلوا عظامها وعملوا لها مناحة شديدة الرثاء .. فتأثر الجميع بالحزن والاسف لتلك الفتاة المسكينة التي ضحت بصباها وحياتها بغية الحب والنفور من الاستعباد ..

فلما عاينت الام ابنتها على تلك الحال وقعت على الارض تلفظ انفاسها الاخيرة فدفنت مع ابنتها في قبر واحد ، بات الوالد حزيناً خائراً لا يلوي على شيء ولم يطل عليه اكثر من الشهرين حتى توفاه الله فدفن مع ابنته وزوجته ، بعد ان اصبح أسير الذل والهوان ..

نرى هنا ان التجارب تداهمنا فلا نستفيق الى نفوسنا الا بعـد ان يكمن لها الدهر ، فيقطع اوصالنا ولا نعود نقوى على الفرار من مشكلات الحياة ، وليس فقط لمرور حدث كهذا الذي صدر في عصرنا الماضي ، بـل انه حتى وفي عصرنا الحاضر حينما يكمن لنا الدهر في شتى ميادين الحياة لا نستفيق لنفوسنا الا بعد ان تقطع اوصالنا حتى لا نعـود نقوى على الفرار من انواع المشكلات التي تداهمنا .

والتقى في المناحة رجلان كهلان كانا يسكنان بجوار الفقيدة ، وبحديث يشبه الهمس قال احدهما : من الخطأ ان يفرض أمر زواج أي امرىء فرضاً يكرهه حياته وواقعه . فأجاب الآخر : ان التشبثات بالعادات القديمة صالحة وغير صالحة ، فأجاب رفيقه : كيف ؟ تململ الكهل في مقعـده وأردف : صالحة من ناحية التمسك بالعفة والحشمة والاستقامة . وطالحة لعـدم فهم الارادة الكامنة في نفس مأمورة ، هناك قصة لاحدى الفتيات تشهد بذلك ، فقال رفيقه : حدثني بها . فأجابه : قم بنا نذهب الى احدى المقاهي وأرويها

لك .. فخرجا الى احدى المقاهي وجلسا طالبين كوبين من القهوة ، وبدأ الكهل الأشيب يسرد قصته ، فقال :

يروى أنه كان في قديم الزمان عامل بناء اسمه سالم ، وكان قد أتقن مهنة البناء بتبصر ونشاط ، ولما كان حلو الذوق لطيفاً تهافت الناس لطلبه من كل صوب وناحية لأجل البناء .. واشتهر هذا الرجل بإتقان عمله والمواظبة على نظام أوقاته حتى أنه لم يُرجَ له يوم عطلة ...

كان هذا الرجل جميل الخَلق والخُلق يتجاذب حديثه مع أصحاب البناء بكل رقة ونعومة ويخلص لخدمة مهنته إخلاصاً وفيـــاً .. وكان ذا إهابة يتحاشى الأمور التي تنصب له اشراكاً ، ويقوى على العمل الطيب الذي هو من شأنه .. وقد تزوج من فتاة تحاكيه رونقـــاً ورقة .. وتضاهيه نشاطاً ومقياساً .. فتقيد كلاهما بالواجبات الزوجية حسبما كانت تقتضيه الظروف في تلك الايام ...

رزقهما الله صبيين ، اسم الاول يوسف، واسم الثاني بديع ، وثلاث بنات، اسم الاولى رندا ، والثانية جميلة ، والثالثة سميره ، وقد تخطى الرجل من الدأب في عمله حتى أنه كان يقوم بأود عائلته أحسن قيام ..

وان من العوامل المفيدة التي كانت تمهد له الطريقة المتجهة للحيـاة الهـ هو أنه أخذ يربي أولاده بالمعاملة التربوية الحقة التي امتاز بها ..

كان يشعر بان هذا الواجب هو فرض محتم عليه تأديته ، لأن الانطباعات الاولى التي يتلقنها الولد من بيته تبقى معه مدى الحياة .. ولذا كان يستقصي أسباب الطاعة عندهم ، ويحوّل طبيعة العصيان إلى قوة بناءة إذ يتحقق لديه أنه استحوذ عملا باهراً ..

وما انفك هذا الرجل يسير يجهد ويستلزم التوفر لعناصر قوى التبصر لاستقبال كل مسؤولية تلقى على عـاتقه حتى نشأت تلك العـائلة الصغيرة على مثال البر والشجاعة والوفاء ، وترعرعت بالحياة الهنيئة تحت ظـــل الوالدين

ورعايتها المقدسة ..

ولا يخفى أن المرء يتميز عن غيره بكثير من ذكائه وفضائله ونشاطه ..

وعلى هذا البناء نروي بعض الأساطير التي جرت في عصرنا الماضي ما بين الرجل البناء سالم وكيفية تصرفاته مع أبنائه وبناته .

كان لذلك الرجل البناء سالم ابنة جميلة تدعى رنـــدا وهي الكبرى بين ابنائه ، سمراء اللون جذابة الوجه ، نجلاء العينين ، كريمة الخلق ، كانت اليد اليمنى لاسعاف والدتها على تربية أخويها وأختيها ..

فلما آن انتشار المدارس الاجنبية في لبنـان طلبت الابنة من امها ان ترسلها الى المدرسة ، اما امها فكانت تتذوق بعادات قديمة مرتكزة على تجسم الافكار خوفاً من ان تلك الظاهرة النفسانية والتوهم في تشويش الجو الخانق ، بمعنى انه لو تعلمت البنت وانساقت الى ميدان الجهل بعد ان تدرك سـن المراهقة تمهد لها السبيل لضرب شباك الحب بالمراسلة الى عشيقها (كما ذكرنا في كتاب غصة في القلب) ولما كان احد العمال واسمه راغب يعمل في البناء مع والد رندا ، فسح له المجال ان يتردد الى منزله ويتقاضى كل خدمة يمكنه ان يقوم له بها .. دام راغب يؤم منزل سالم منذ عرفه حتى الوقت الذي كبرت فيه رندا واصبحت في الثانية عشرة من عمرها .. اما رندا فكانت تتشاءم من دخول الفتى الى منزل ابيها ، وتستاء من وقع أحـاديثه واقواله التي كان يضرب اوتار حبه لها امام والديها .. كانت لا تجلس مجلسه ، ولا تود ان تسمع صوته ، حتى انه لو تحدث عن اي موضوع كانت تشمئز منه وتشعر بضربة طاعنة في قلبها .. وكثيراً ما كانت تلجأ الى بيت الجيران عندما يقع نظرها عليه عند وصوله قبل ان يدخل البيت ..

اما ذلك الفتى راغب لم يضرب على الوتر الحســـاس ، بل طرق اوتار مآربه على رجاء زميله سالم الذي أحبه وصمم نيته لعقد الزواج من ابنته رندا لانه كان على ثقة منه انه من رجال العمل ..

أجل ، ان كل خير في العالم لا بد ان يقترن بالرضا ، وذلك عندما تلتئم القلوب بالمحبة المتبادلة ، والامل المنشود وليس هو الا بالوئام، الى الامام يحمل الانسان على الفرح ، والتضحية ، والخدمة .

أما سالم وزوجته فلم يدر في خلدهما معنى الوئام ، بل وقد عـاينا في راغب شتى ألوان النقاط الممتازة في حياته ، فتعهدا له بقبول عقـد الزواج من ابنتهما رندا .. فلما تحقق لرندا أن والديها شوّها صفو حياتها بتحتم القول النهائي لعقد زواجها من راغب ، وانها هي مـا زالت في الثانية عشرة من عمرها لا تفهم معنى الحب فقد تجاسرت لمخاطبة أمها بعوامل الغيظ فقالت ، إنه في مثل هذا الجهد لإتمام عمل إجباري كهذا لا يمكن العيش بعده بسلام ، سيما وان حيـاة الزواج تمتد الى سنين طويلة لا تقوم إلا بالمحبة المتبـادلة ، فأنا لا أحب راغب ، ولا أرضى بالزواج منه قسراً ، أتركاني وشأني أنا لا أحب احداً ، وسنّة الله في خلقه هي المحبة ، فعلينا إذاً ان نبني أفكارنا على امثال بولس الرسول الذي قال ، إن كنت اتكلم بألسنة الناس والمـلائكة وليس لي محبة ، فقد صرت كنحاس يطن ، أو صنج يرنّ ، وإن كان لي كل الأشياء حتى أنقل الجبال ، وإن سلمت جسدي ليحترق ولكن ليس لي محبة فلست انفع شيئاً ، المحبة لا تتوانى ولا تنتفخ ولا تتغير ...

الأم – ومن أين عرفت كل هذه الأمثال ؟ .. ومن اين جئت بهـذه الفلسفة ؟

رندا – أما سمعت موعظة الكاهن الذي أشار الينا في الكنيسة عن المحبة ؟

الأم – إن الكاهن يشير الينـا أن نحب بعضنا بعضاً كما أوصانا السيد المسيح وليس ان نكره الزواج ونضاد والدينا

رندا – (والآن) ما بالكما تهدفان لزواجي وأنا لا أفهم معنى الزواج ؟ لا ، لا يا أبتِ ، لا يا أماه ،

بالله عليك ارحميني يا أمي ، فأنا رهينة بنانك ، وبين عطفك وحنانك

الام – ابنتي ، حبيبتي رندا – أصغي إلي الآن فأقول لـك ، إن راغباً هو شاب لطيف رقيق الجانب ، نشيط ، يدأب وراء العمل ولا يملّ ، فأنت الآن صغيرة لا تفهمين معنى الحب ، وهذا حقاً ما تقولين ، لكنك لا تفهمين ما هو نافع ومفيد لك ولمستقبل حياتك ..

أما والدك فهو المسؤول عنك ، والآن فقد تعهد والدك القول مع راغب، وعبثاً يرتد بكلامه للوراء ، لأنه لن يكن ذلك من شيم الوفـــاء .. وليس للبنت ان تقف بوجه أبيها ، اصمتي ، وارضخي لأحكامه فهو مختبر حياتك..

نرى في ذلك ان واجب الطاعة للوالدين هـو واجب مقدس .. لكنه لم يكن بالسهل على الإنسان وجوب الطاعـــة لكل شيء .. سيما وإن كانت الامور مضادة لتمنياته ، فقد يتطلب من وراء ذلـــك تضحية ونكرانـــاً للذات ... ولكن هذا العبء الثقيل يتعذر حمله لأي كان ، ولا يمكنه التقيد به ولو بسلاسل من حديد من وراء الضغط الملقى عليه ...

اخيراً حينما لم تجد رندا بداً من الرضوخ لأحكام والديها ، وعدم التغلب على إقناعهما ، وافقت على الزواج من راغب ، وإن يكن قسراً وإجباراً ، لكنها كانت تثور بنفسها لانكماش ذاتها ، وتشاؤم حياتها ، فلم تجد إذ ذاك وسيلة إلا إقناع نفسها بأن هذا السرّ هو تدبير من الله ربمـــا كان من حظ مثمر او نحس مدمر ...

وقد أصرّ الوالد سالم على عزمه ، وحسب إشارته قـــام راغب بمهمته وباشر بتجهيز عروسه وترتيب مقتنياته المنزلة ، فاستأجر غرفـــة واسعة وداراً كبيرة إزاء عمه في نفس البناية ، وزيّن منزله بالمفروشات الضرورية ، وطفق يدور وراء كل واجب يقضي للحفلة التكريمية الموعود بها (الزفاف)..

وفي يوم مبارك أقيمت الافراح لحفلة الزفاف ، فبارك الكاهن قران العروسين برفع الاكليل على رأسيهما ، وكان إكليلاً ميموناً ...

انصرف الجميع بموكب الأغاني والزغاريد مقدمين التهاني للعروسين ولذويهما

وكانت ليلة حافلة ..

صرفت رندا السنين الطوال مع زوجها راغب لا يهتف قلبها للانضمام اليه حتى ان مراحل حياتها كانت سئيمة بعيدة عن رغائب اللذات التي يتحسسها المحب للحبيب ، وان تلك النفسية لم تحسب ذاتها اكثر من انها موفورة لخدمة الواجبات التي تطلب منها .. فضلاً عن ان معاملة زوجها كانت مرضية لها ، وكان رقيقاً هادئاً ...

إن راغباً دام يتعاطى العمل مع زميله سالم الذي اصبح عماً له ، وازداد رغبة وهمة في عمله لأنه كان مفعماً بالسرور والانشراح لنيل مـآربه وتتميم آرائه ... كان يتمنى خدمة خصوصية لعمه الذي اضحى كوالد له يتمنى رضاه ، سيما وانه كان يصرف اوقات التسلية معه بعد التعب ...

اجاب الرجل صديقه : يسرني جداً ان اعرف الكثير عن هذه الامور ، هات ما عندك بعد من الاخبار لكي اتمعن في امور الدنيا .

٢

اما الابنة الثانية فهي جميلة أخت رندا ، وقد دعتها امها جميلة نظراً لما عاينت في وجهها من ملامح الجمال الباهر الفتان ..

نشأت جميلة على خفة الروح والذكاء والنشاط الغريب لكل عمل تنقاد اليه ، سواء أكان من نفسها او من والديها ، وقد وهبها الله صوتاً رخيماً ولحناً حنيناً فأولعت بالاناشيد والاغاني المطربة .. وكانت كيفما اتجهت واينما دارت تنشد الاناشيد الروحية والعالمية كالهزار الذي يغرد على الاشجار ..

وقد زادت فأرادت بمجموعة ميول تهوي الى الرقص البديع والمهرجان السريع وتنفي الهموم عن الصدور ، فدهش الجميع بلحنها الطروب حينما كانت تقلد كل اغنية تسمعها،وكانوا لا يودون ان تتوقف عن الغناء ، فاستمالت القلوب اليها ، وقد تفوق حب والديها لها على محبة اخويها واختيها لانها اصبحت ارجوحة المحور الذي تتدرج عليه بين افراد الاسرة .. وبالاحرى فان مشيتها الرشيقة الخلابة كانت تأخذ بمجامع القلوب ، وكان بين عينيها والنظر السحر الحلال ..

كانت جميلة تبذل قصارى جهدها لتفوز بكل عمل تصبو اليه سواء كان من اعمال المنزل او خلافه من الاشغال اليدوية مثل التطريز والتخريم ومـا

شاكل ، او غير ذلك فلا تترك من اوقاتها فراغاً للعطلة واللهو ، بل اخذت تدرب اختها سميرة على القيم المفيدة التي تؤول الى منفعة العائلة .. وما ان جاوزت السبع سنوات حتى تبينت بجمالها واعمالها ، فلفتت الانظار اليها ، وبالاحرى من كان يتداول مع والدها ويتعاطى الاعمال للمهنة المذكورة .

وقد تأكد لدينا ان الوالد سالم بحسب العادات القديمة لا يلفت انظاره ، إلا الفتى الذي يدأب بجد وحرص نظير راغب زوج رندا فيكون إذ ذاك بنظره كشخصية مبرورة قوامها التدبير لتكبد المصاريف التي تحتاجها النجدة العائلية ، ولم تكن افكاره بعيدة المرمى للاهتمام بأمر آخر يتعلق (لمباشرة) المشاعر الحساسة التي تدفع النفس الى الآمال والاهداف التي يتوق اليها ..

كان يلذ لسالم ان يطرب بالحان ابنته جميلة ، وكثيراً ما كان يدعوها اليه بعد عودته من العمل عند المساء اذ يكون منهوك القوى لشدة التعب ، فيقول لها : احضري النارجيلة يا ابنتي وتعالي اجلسي بجانبي ، هاتي من اناشيدك الحلوة ما يطرب قلبي ويسر خاطري لان الحر اضناني ولهيب الشمس حرقني تعالي يا جميلتي ، يا حلوتي ، فأنت والله بمثابة كل اولادي ، كيف لا وانت جميلة ، وانا احب الجمال ، انت ذكية ، وانا اهوى الذكاء ، انت راغدة وانا احب الراغدات ، هي إلي ايتها الحسناء ، قبليني يا ابنتي ولك مني الحنان .

كانت جميلة لوالدها اطوع من بناته ، تجلس بجانبه ، وتجلس والدتها في الجانب الآخر ، وكانت عندما تفوح بانطلاق مغناها وتجود بلحنها الساحر ، كان الوالدان يطيران فرحاً وينشرحان صدراً ، وكاد الوالد ينسى مشقاته وعناء اتعابه ، فيتمنى ملازمتها في كل وقت ، ولما كان لسالم عملاء يعملون تحت ادارته في مهنة البناء ، ويرتادون منزله في اغلب السهرات كان بينهم شاب اسمه فايز ، وقد لمس من نفسه بعض الميل لجميلة ، فتعلق قلبه بها وهام بحبها وان تكن صغيرة ، فسلبت عقله وهي لا تدري ، سيما وانها عندما كانت تقوم بانطلاق مغناها وتجود بمهرجان الرقص وهي ما زالت في السابعة من عمرها .

نعم ، هي لا تدري ، ولن تدري ، والحق يقال ، انهـــا لم تكن تفهم معنى الحب ، ولا ترغب ان تتحدث مع احد من عملاء والدها ، خصوصـــاً فايز لانها كانت تكره مجيئه الى منزل والدها اكثر مما كانت اختها رندا تكره مجيء راغب ..

كان فايز يوجه اكثر اقاويله للوالد سالم الذي كان يصحبه معه الى العمـل في كل يوم ، اما هي فلم تكن تفهم ما يعنيه ذلك الفتى فايز لانها كانت طفلة لاشيء يدور في خلدها اكثر من اللعب واللهو (وما شا كل)

أما هو فكان قد جاوز سن المراهقة لأنه كان يناهز العشرين من عمره ، فبدأ يشعر بعوامل الطبيعة وميولها ..

راح فايز يطوي لياليه يقظاً لا يذوق النوم لأن الوساوس كانت تتلاعب في رأسه إناء الليل وأطراف النهار لتدبير وسيلة يؤمّن فيها زواجه من جميلة بعد ان تبلغ الرابعة عشرة من عمرها قبل ان يسبقه أحد لطلبها ، فأضناه السهاد حتى اصبح نحيلاً ضعيف البنية .

وبعد مضي أيام عديدة وقد لاحظ منه الصهر راغب شدة النحول صاح به قائلا : مالك يا فايز هزيلاً في هذه الأيام ؟..

هل من مكروه يداهمك ؟ أم ماذا ؟ .. أم هل تشعر بانحراف صحتك؟

فايز — كلا ، انا بخير ، لكن (يوجد) لدي بعض أمور هامة تنخس فؤادي فتحرمني لذة النوم ، وشدة التفكير زادت علي الأرق ، وهو الذي اضناني يا عزيزي ..

راغب — دع عنك الأوهام يا صاح ، وهات ما عندك من الاخبار عسى خيراً ، لِمَ لا تنبئني عن أمورك يا فايز ؟ .

فايز — دعني وشأني يا راغب ، ودع التحسرات تطعن صدري .

راغب — وحقك إنني سوف لا افتر عن التحدث معك ما لم تنبئني عما

يدور في مخيلتك من تعبيرات وأوهام . فأنا صديق لك مخلص أمين . وإن ما قد انتابك من الأمور فقد مرّ بحادثي قبلك فلست أخيب ظني في أمرك أخبرني الآن ، ولا تخجل ..

فايز – أعندك محل للسرّ يا راغب ؟ .

راغب – كيف لا وأنا بين يديك أسمع أحاديثك وأختمها على لوح قلبي وفي صدري .

فايز – إذن إصغ الآن يا راغب فأسرد لك حكايتي لأنه لم يعد بوسعي أن أكتم سري .

إنني تعودت يا راغب ان ارتاد منزل وكيلنا سالم كما انت تعلم ، وكلانا نتعاطى العمل معه ، وهو رجل يمتاز بكرم أخلاقه .. يعاملنا بالاحسان ، وربّ أيام يكافئنا ببعض الزيادة عما نستحق ، ها انت قد ألفت محبة ابنته رندا فتزوجتها وكنت من ذوي الحظ السعيد لاقترانك بها .

أما الآن فأنا قد ألفت محبة جميلة وهي صغيرة ، ياه ، يا راغب وحقك انها ستصبح يوماً فتانة تخلب الألباب ، لي القصد وكل القصد ا أثبت على عزمي وأطلب (امساك) يدها من والديها (بارتباط عهد) وا أعده أنني سأكون عاملاً أميناً له رهين اشارته مدى الوقت ، وأقوم لهبكل عمل يحتاج إليه ، حباً بنظرة من عيني جميلة .. ولا يسعني ان أتأخر بمهمتي خشية من ان تهوى أحداً سواي فيسبقني الى هذا الميدان ويحرمني لذة هنائي ، فما رأيك بالموضوع يا راغب ؟ .

راغب – حسناً ، حسناً يا فايز ، لقد أصبت برأيك ، فهي من أسرة كريمة وتربيتها مقدسة : أوصافها عديدة ، جمال باهر ، ذكاء مفرط ، مرؤة نشاط ، آداب ، وكفى للمرأة كل هذه الاوصاف .

فايز – ولكن ما قولك يا راغب ؟ .. فأنا أخشى من أمر يقلقني .

راغب – وما هو هذا الأمر ؟ .

فايز – إنني اخجل ان احكي لك .

راغب – إحك ولا تخجل ، فانا صديق ودود لك ، وكلانا نعمل في مهنة واحدة ، وفي محل واحد .

فايز – لي إشارة منها تقبض قلبي ، ان دنوت منها تبتعد عني الى اقصى البعيد ، واذا حضرت وقتاً لمقتضى حاجات والدها تخطف نفسها برقة وتهرب من امامي ، فما العمل يا راغب ؟ انا عاشق ولهان ، أحبها ، فأحبها حباً يفوق الوصف ،وقد ضعضعت افكاري !أما هي فلا تفهم من أمري شيئاً لأنها صغيرة ولا عرفت شباك الحب ليتني ما زلت صغيراً ولا ذقت مرارة الحب وعذاب النفس » ألوم نفسي ولا أرتدع ،فمثلي بمحاولتي هذه مثل يعقوب الذي يدعى اسرائيل حتى اليوم كيف هرب من وجه أخيه عيسى حينما اختلس البركة بحيلة من أبيه اسحق وكان ذلك بأمر الله ، وفرّ من وجه أخيه الى منزل خاله لابان حيث طفق هناك يرعى مواشيه ويعمل في حقوله بجد ونشاط ، فأحب يعقوب ابنة خاله راحيل وتعهد له بخدمة سبع سنوات لزواجه من ابنته راحيل ، وبعد أن حان الموعد فقد زوجه خاله من ابنته ليا مدعياً انه لا يزوج الصغيرة قبل الكبيرة ، ثم عاد يعقوب فضحى بخدمة سبع سنوات أخرى حتى تزوج من راحيل ،وماذا يضرّ بي لو صبرت وأتممت رغائبي ؟... نعم ، نعم يا راغب ، فأنا أصبر وأجهد لكل عمل يطلبه مني عمك العزيز ، أجاب راغب ، لا عليك يا فايز ، اترك الهم عليّ والله ولي الأمر والتدبير ..

أما جميلة فكانت تلهو بين هرج ومرج وضحك ولعب وهي تجهل من أين أتت وكيف ولدت ، طفلة ، وليدة لم تتوسع معارفها لتدرك مهمة أمها في إيجادها ، سيما فإن الأم آنذاك لو أخذت تتحدث عن سرّ الزواج مع إحدى السيدات لم يكن لابنتها برهة لتقف أمام احاديثها النسائية ،بل كانت تشزرها بنظرة رهيبة تقذفها الى الوراء مذعورة ..

أخذت جميلة تنمو شيئاً فشيئاً ولم تتلقن العلوم المفيدة ، فعكفت على اعمال

المنزل ، وكانت سريعة الحماسة في اعمالها وأقوالها ، وما فتئت تسير مرحلة الطفولة بأعمال والدتها وانقيادها الى الطاعة العشواء حتى بلغت الخامسة عشرة من عمرها ..

بدأت جميلة تشعر بعوامل الطبيعة ومحاسنها » كانت تشعر بعوامل نفسية لا تستطيع تفسيرها فتخفيها وتحجب ستار معرفتها حتى على أمها بسبب الخجل والعيب ...

لم تعد جميلة طفلة تلهو وتلعب وتميل الى مطاليبها الولادية ، بل تطورت من فتاة لعوب إلى شابة تجللها نضارة الشباب ، وتزينها الجاذبية الأنثوية » والفتاة في طورها الجديد تفرح بشبابها وتثق بنفسها،وتحيا في قدسية صباها..

وقد يكون في قرارة نفسها شعور نحو فتىً يشاطرها حياتها بالمحبة المنسجمة بتبادل الوفاء والاخلاص فتميل اليه ... أما جميلة فكانت ولا شك معجبة بنفسها غاية الإعجاب ، لجمالها ولعذوبة لحنها وصوتها الرخيم ، وقد أضحت محبوبة من جميع الناس ، موقف حميد « طارىء سديد » تتطورجميلة في أضوائه فتزداد إعجاباً بنفسها » تصبو الى فتىً يضاهيها من ذوي الرقة..

بيد ان جميلة لم يكن يخفى عليها ما كان ينوي والداها في امر زواجها وكيف تعهدا لفايز بالقبول النهائي بحضور الصهر راغب ، وقد استنكرت ذلك العمل استنكاراً ، سيما وقد مرّ عليها مع توالي الايام أمر زواج أختها « رندا » وكيف اكرهت على الزواج من راغب وهي ما زالت حتىالآن تشكو من آلام نفسها وتحذر كل فتاة تنطبع على كراهية الطاعة للزواج...

وقد مرّت بنا الايام والاعوام الى الوقت الذي جاوز سالم حد التطبيق والتحتم بما تعهد لفايز ؛ وصار من البديهي ان الواجب يقضي بانجاز العهدالذي تعهد به لفايز في الوقت المناسب لإنجازه ..

قال الرجل لصديقه،أفٍ منأمور كهذه تؤمر النفس بالضغطوالاستعباد..

٣

عزم الوالد سالم بقوة السيطرة الغاشمة والسطوة الخالدة على كبح جميلة وكعمها بالقوة النعالة التي لا تفسح لها مجالاً ان تنبس بكلمة .

عند ذلك وقفت جميلة موقفاً حرجاً ، واعتراها الذهول فتبدلت تلك الزهرة الزاهرة الى يأس واكمداد شامل يحيط به الانصراف الى التفكير في تذليل النفس واستعبادها .

راحت تغوص في بحر تخيلاتها ، وتندب سوء حياتها مزمعة انه لو تسنى لوالديها ان ينجزا وعدهما مع فايز ويكرهاها على الزواج منه لانتحرت قبل ان تطأ عتبة منزله .

نعم ، ان الوالدين لم يكونا ليرضيا ان يوقعا ابنتهما في شرك الردى ، وإنهما يزعمان ان لهما الكفاءة من الاختبار في حوادث الامور التي تساور اولادهما ، ولا غرو فانهما تبصرا ملياً من عدة وجوه فلمسا الكفاءة من امر الزواج الذي يليق بابنتهما .

نعم إن فايزاً لم يكن بشعاً مكروهاً ، ليس بليداً ولا كسولاً ؟ ليس ثرثاراً ولا فاجراً ، ولا احمق ، ان سئل أجاب ، وان نطق اصاب ، وقد تعهد له الوالدان بالزواج من ابنتهما زعماً منهما وعلى يقين ثابت انهما منوطان بالأمر والنهي ، وليس لأحد ان يقف بوجههما . دام فايز يرتاد منزل سالم طيلة سبع سنوات موطداً آماله بتحقيق أمانيه على النمط التي اكرهت عليه الاخت

رندا .. وكان لا يألوجهداً في تدبير الأساليب للتحدث مع جميلة لاستكشاف المكنون واستمالتها اليه ، فكان ذلك بعكس ما يتمنى .

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

كانت جميلة كلما حاول فايز التكلم معها تنفر منه نفوراً : أو تفر من امام وجهه : فتشاءم فايز من شر المصير وانتخس في قلبه، ولم يعد يأ ن حق الموعد الذي ينتظره لأنه امعن فيها الكبر والاعجاب بعد ان تبينت جمالها القويم ونشأتها الفتانة .. وقد استمالت إليها القلوب ،وتهافت الفتيان لطلبها ، فكانت تتيه عجباً بنفسها وتزداد افتخاراً .

اما فايز فبعد ان عاين منها كل ذلك النفور ولمس منها الكبر والاعجاب بنفسها بغته الفكر المؤنب فأخذ يردد قول من قال ، ان الكبر يكسب المقت، ويمنع التآلف ، والاعجاب بالذات هو حيرة تعرض للانسان لقصوره عن سبب معرفة الشيء وعن سبب كيفية تأثيره فيه ويجدر بنا ان نقول ، ان الوالدين أبيا إلا ان ينجزا وعدهما مع فايز الذي صدت جميلة حسناته وجمحت محبته وازدادت نفوراً منه .. أما الأم فأخذت تنصح ابنتها ببراهين مستوفاة وتقص على مسمعها شتى الاقاصيص والأحدوثات الغريبة لتقنعها باللين وليس بالجفاء لكي ترضخ لأحكام أبيها ولا تكسر له نفوذاً ، وقد حذرتها من شر مصيرها اذا كانت لا تصغي لنصائحها ، لكن الابنة كانت تزداد رفضاً وابتعاداً عن كل كلمة تتلفظ بها والدتها التي كانت تردد قول الشاعر .

اذا لم يعِن قول النصيح قبولُ فان معاريض الكلام فضولُ

ليس من قوة كانت تعاند آراء الوالدين ، ولا من قصد يضاد عهودهما حتى ولو تورطت حياتها الى الجحيم . ثار الجنون في رأس جميلة ، فاختلت لنفسها ضمن الغرفة واتكــأت على المقعد واضعة يدها على خدها تائهة في تيار افكارها ، سابحة في بحار تخيلاتها ، لا يثبت لها جنان : ولا يحلو لها طعام او شراب ، فبهتت في امرهـــا وأخذت تخاطب نفسها وتقول ، ويحي انا

الشقية ، كيف ان والدي يقيداني بشاب لا أهواه ، وحسبي ان نفسي تأباه ليس الا من قبيل الزواج فقط ، بل انـه ليس لي قلب ان التفت اليه ، ولا اتطلع فيه .. ربي ، وكيف بهما يكرهانني على تعاسة حياتي لا يشعران بتسخير قلبي ؟.. ربي هل انا مظلومة ؟ أم غاشمة ؟ هل حكيمة ، ام جاهلة ؟ هل انا مجنونة ؟ أم عاقلة ؟ لست ادري ، او ليس اصراري على العناد يسبب أضراراً جسيمة ؟ ربي ، وما العمل ؟..

بالله عليك يا أماه ارحمي دموعي ، أغفر لي يا أبي فأنا قد أغظتك ، نعم أغظتك ، إن رفضت قولك فانا مسيئة ، وان كظمت غيظي فقـد انتهى امري الى حتفي ، بئست الحياة ، لن أعود الى الاناشيد فيما بعد ، وقد انتزع السرور من قلبي ، ولا عدت اهوى المرح استودعك الله يا أمي الحنون ، استودعك الله يا ابي ، فلن تراني فيما بعد .

كانت الام واقفة وراء الباب متخفية مصغية ، فتفهمت حديث ابنتهـا بالحرف الواحد ودبّ الرعب في قلبها لعـله يتحقق كلامها وتصيب نفسها بأذى وهناك تكون الطامة الكبرى .

تقدمت الام ودفعت الباب جانباً فأقبلت اليها وصاحت بها صيحة الويل ، أخذت تندد بها تارة بفظ الكلام والتهديد والتحذير من سوء المصير ، وطوراً بالحلم واللين وتلطف الكلام .. ثم اسرعت الام تواً الى زوجها وأطلعته عما دار في نفس ابنته من التحدث مع ذاتها فجاء اليهـا مفاجئاً وقال لها . هاي أكبرت ؟ لا كبّرك الله .. أنى لك ان تقولي أحب هـذا وأكره ذاك ؟ اصمتي اخرسي ايتها اللعينة المشؤومة ، فانا قد تعهدت بزواجك من فايز .

صرخت الفتاة بأعلى صوتها وانفجرت بالبكاء ، لا يا أبي ، لا يا أبي ، فانا وحقك لا أحب هذا ولا أكره ذاك ، ولا أهوى الحب ، ولا أملك أية بارقة امل في هذه الدنيا .. عندها اسرع الوالد فأحضر عصاً ضخمة وقـال لها ، إن تفوهي بكلمة فلأكسرنّ هذه العصا على جسمك وأسيل دماءك .

هبت جميلة منفجرة بالدموع وراحت تشكو ضيمها لاختها رندا من جراء

ما انتابها من تهديد وتهكم والديها ، فاستنكفت رندا ذلك العمل غير المبرور سيا وهي نفسهاقد أصيبت بنفس الداء ، وقد تألمت للوعيد الذي أضرم احشاءها بنار لا تطفأ ، وتحذرت من وقوع أمر خطير فانتابتها الحيرة للأمر الواقع المنكر الذي برهنت فيه جميلة لاختها انها سوف تحاول الانتحار فيا لو اكرهت على الزواج من فايز .

فتشاءمت رندا شر المصير ودبّ الرعب في قلبها خوفاً على أختها .. أخذت تفتش على حيلة تنقذها بها من تلك الورطة الشنعاء فعمدت على انقاذها بأي وجه من الوجوه لانها كانت خليقة بشتى الاساليب لدفع الاضرار عن أختها وعن والديها .

ولما تبين لفايز شدة نفور جميلة منه ، وأطلعته الوالدة على مجرى الحديث الذي دار بينها وبين نفسها (ذاتها) وبينت حالتها وشدة الضغط عليها من أبيها فقد اشمأزت نفسه منها وزهد بحبها ، فحاول ان يتجاوز حد الانفصال عنها لولا انه كان يعلل نفسه بالامل يوماً بعد آخر ، بيد انه لم يتمكن من تمالك عواطفه ، ولم يسترد وعيه لتلك النفسية التي كان يشعر بها طوال السنين الماضية .

راح يشكو امره للصهر راغب ويقول له ، ما قولك يا راغب ؟ أتظن ان جميلة ستصبح يوماً فتاة احلامي ؟.. أجاب راغب ، كيف لا وعمي ذو بأس شديد تهاب سطوته فحول الشجعان ، وحينما يتعهد بكلام لا يرجع مخالفاً به مهما كلف الامر .

خلّ عنك هذه الاوهام يا فايز ولا تيأس ، فأنا سأكون الساعد الايمن لك لهذه القضية ، لانني أتوسم فيك المروءة والنشاط ولست أرى في نظري من كان أنسب منك ليكون عريساً لابنة عمي ، وان رفضت فهي ولا شك خاسرة .

ان هذه القضية هي صورة حقيقية واقعية هي من مشاهدات الحياة ،

ولم تكن نادرة الوقوع في تلك الايام . لان البعض لا يخدمون الغاية التي وضع لاجلها الزواج ، بل يتمسكون بالرابطة التي يتشبثون فيها بعدم جواز فكها بأية حالة من الحالات .

الزواج هو مفتاح السعادة للزوجين اذا اقترن بعوامل ودية روحية تجعل منها واسطة لتأمين الحياة السعيدة التي يثق بها الزوجان ، وقد تميز الانسان بالعقل كي يفرق ما بين الصالح والطالح فيختار الاصلح .

اما الوالدان فكانا ينظران ان الاصلح هو فايز لانهما كانا على ثقة منه انه الحلية الذهبية التي اختاراها لتتحلى بها ابنتهما .. وتكون لها السـعادة في مقتبل حياتها ..

ولم يكونا ليشعرا انهما سيرتكبان جريمة فيما لو انجزا بسطوتهما ما يضمران ولم يخيل لهما ان سيطرتهما ستكون مجلبة للشر فحسب ، بل انهما كانا كفيلين لكفاءة الحياة المثلى التي توسماها في صفات فايز اثناء معاشرتهما اياه خلال المدة الطويلة ، اذ تحققا صدق اخلاصه وقيام نهضته التي ساقته الى الغاية المنشـودة التي يعمل من اجلها ويتطلع إليها منذ أمد مديد ..

وقد لمست رندا بعض العلم من زوجها راغب عما دار بينه وبين والديها من الحديث نحو الاقتراح الذي عمد والداها لتنفيذه ، فساورتها الحـيرة في الامر وتحذرت من وقوع أمر خطير يخضع لانزال مصيبة هائلة .. اخذت تفكر في الوسائل الممكنة لتكون واسطة خير وبركة ، وليس ويل ولعنة ..

اختلت مع اختها ضمن ستار المنزل وتباحثتا طويلاً باحاديث جمـة تبرهن لها فيها ان الافضل ان تخضع لامر والديها على الوجه الاكمل وإن تكن مغبونة في امر زواجها ..

اما جميلة فلم تتأثر بتدخلات اختها رندا التي جاهدت لاقناعها الى الحـــد الاقصى ، لكن مناعتها وقوتها واعجابها بنفسها حالت دون قبول كل النصائح ضد الميول الطبيعية التي تهدف اليها وتعاند سيطرة الوالدين ..

تأبطت عند ذاك رندا اختها جميلة وتقدمتا كلتاهما الى مـــنزل والدهما ، فجاءت الام تحدث جميلة بعبارات لطيفة تنذرها بعدم الرفض تجاه والدهـــا لان الوقت قد حان لموعد الزفاف ، وما ان تلفظت بكلمة الرفض حتى تطاير الشرر من عينيها فصفعتها كفين مؤلمين برمت بهما رأسها برماً ولطمتها برجلها لطماً أليماً واسرعت تعدو لاستجلاب العصا ..

عندها ثارت جميلة باستفزاز جوارحها وبأسرع من لمحـــة البرق حاولت الاختناق بوضع يديها على عنقها ، فزردت اصابعها في عناق حنجرتها مستسلمة للموت الزحاف ، فجحظت عند ذاك عيناها واوشكت ان تلفـــظ انفاسها الاخيرة ، وقد اربد وجهها وهي لا تعي اذا كان ذلك جنوناً ام هوساً ..

في تلك الحالة وقد ارتعدت فرائص رندا وثار الجنون في رأسها ولم يثبت لها جنان ، ولم يهدأ لها بال لانها اصبحت تحت ثقل الخوف الشديد لما شاهدته من فظاظة اختها ، وكيف جحظت عيناها مستسلمة للموت ، هجمت إذ ذاك لتفكيك يديها وانتشلتها بين ذراعيها متمتمة وقائلة : لا اسعد الله لكما وقتاً يا والدي ، أفٍ منك يا امي ، وتف على هذا العمل المشؤوم الذي قام به أبي .. لا بارك الله سطوتكما ..

وفي سرعة الحال اختطفت رندا اختها وفرت بها هاربة الى منزل خالها الذي يستقصي مسافة ميلين عن منزل ابيها ..

قال الرجل : ويح تلك الام ، وما أقل درايتها ، قبح الله عملها ..

٤

اطلعت رنــدا خالهــا وعائلته على حدث المصـير فتكدر الجميع لافراط الاساءة ، فتقبلوها بكل سرور وآزروها بالمحبة والحنان ، واصبحت عندهم كعضو محبوب من افراد الاسرة ..

اقسمت جميلة الا تعود فتنظر وجه والديهـــا طالما فيها نسمة من الحياة ، فتركزت في منزل خالها هادئة البال ، واستمالت القلوب اليها برقة احــاديثها وتهادي رواجها للهمة النشيطة التي كانت تقوم بهاالمساعدة امرأة خالها بالاعمال المنزلية ..

وعند فراغها من العمل كانت لا تضيع وقتاً باللهو بل تعكف على الاشغال اليدوية . واستتبت هنيئة مريئة ، تارة تغيب عن التفكير ، وطوراً تعــود ميولها الى الطرب حينما تلجأ الى الراحة والجلوس على مقعد الاستئناس،فطاب قلبها ، وارتاحت نفسها من عبء السطوة التي كانت ملقاة عليها ..

عادت تنشد الاناشيد المطربة ، فكانت عندما تفوح بلحنهـــا الطروب تدهش العقول بعذوبة صوتها الرخيم الذي أيد الجميـع بازدياد تمنياتهم للازمــة وجودها معهم مدى الحياة ..

مسكين فايز ، وقد باء بالفشل ، وتبددت امانيه بين السراب، فكأنه كان يشاهد النور ضباباً ، فبات أسير تخيلاته ، يندب سوء حظه ، فأضمر البغض لجميلة حتى انه لو تمكن من مشاهدتها لامتص دمها ، واشتد بالحقد عليها يروم

الانتقام منها بشتى الوسائل ..

فأبغضها ، أجل ، وقد أبغضها بغضاً شديداً واحتدم بصلابة الشعور حتى أنه عزم عزماً ثابتاً ان يقتلها ويقتل نفسه وراءها ..

ان هذا التعدي يوقع في الروح البشرية نظرة استثنائية لاحداث يتلهمها الوضع عن كيفية طباع الانسان ومزاجه وحاسياته الملتبسة بتمنياته التي يصبو اليها ، فمثلا نقول :

ان بعض الفتيان يعجبون بالفتاة التي تغريهم برقة احاديثها ، والبعض الآخر يعثر على غرور من ماديات الفتاة وليس لطيبة اخلاقها وتصرفاتها المسلكية ، ومنهم من يعشق الفتاة التي تبادله حباً بحب ، واما الذي يعشق فتاة لا تحبه نظير فايز مثلا ، فماذا سيكون من امره ؟ وما رأينا فيه لنميز خيره من شره ؟ وهل حبه هذا جائز ؟ ام غير جائز ؟..

انه سر من الاسرار ، وعجب من عجائب الزمان ، وعقول الناس اجناس على ما يقال ، وقد تأتي الصدف بحوادث متعددة من اختبارات الاهداف التي يتوق اليها الشاب من قبيل الجهل ، وقد ثبت لدينا ان نقول ، انه ربما احياناً كان فتى ما يحب فتاة حباً مفرطاً وهي تأبى مبادلته ، وكلما ازدادت هي نفوراً يزداد هو رغبة كما علمنا من هذه الاسطورة التي نرويها للقراء عن الفتى فايز ، فهل يكون ذلك سبب عناد ؟ ام غلاظة، ام جنون ، ام حب مفرط بدون تعديل ..

كلا ، ان العقل البشري لا يطبق هذه الاختلافات في مجرى الحوادث التي تصدر عن اخلاق الفتيان والفتيات ، وعليه فإننا نقول : ان فايزاً لم يخطىء بحق نفسه ولا بحق غيره..إنما وقد اخطأ الوالدان بتصرفاتهما الهمجية وخشونة سطوتهما ، ولم يميزا ان ابنتهما كانت طفلة حين تعهدا له بالقران منها، وقد تما وعدهما معه فتعلق بحبها حينما لم تكن هي تفهم معنى الحب أما فايز بعد ان يئس من الحياة وقد خاب امله بعد أن عيل صبره بالانتظار ضمر الحقد والانتقام واخذ يترقب دخول جميلة منزل خالها ذهاباً واياباً ..

فيوماً بينما كانت جميلة ذاهبة الى الكنيسة لسماع القداس الإلهي إذا بفايز يتوطأ خطواتها من الوراء غب خروجها من الكنيسة ، وما إن تقدمت بضع خطوات من خارج الرواق حتى حانت منها التفاتة الى الوراء ، وإذا بفايز يشهر سكينه عليها وشرار الغضب يتطاير من عينيه ويقول لها « قفي أيتها المشؤومة ، قفي » ، فتراكضت عند ذاك بسرعة لا تحملها ركبتاها وعوامل الهلع أنهكت قواها ..

كانت تعدو مسرعة مسرعة ولا تعي ، وكان هو يتراكض وراءها بكل حماسة متابعاً خطواتها ، وما انفكت تلهث من الذعر والهلع حتى وصلت منزل خالها ، فوطئت العتبة واقعة مغمياً عليها ..

دهش الجميع لهذه الغرابة وأسرعوا لإغاثتها وطلب الطبيب للحال ، فبعد أن أعطيت العلاجات اللازمة فتحت عينيها وهي متأثرة بحالة الذعر والرعب ، وعلى أثر هذه الواقعة أصيبت بسخونة شديدة الوطأة كادت تأخذ بحياتها ..

دامت جميلة طويلاً تحت دراية خالها وزوجته ، ولشدة تعلق افراد العائلة بها لم يألوا جهداً في سبيل خدمتها والتحفظ على صيانتها من كل ضرر وأذية حتى أقبلت على الشفاء التام وعادت الاوضاع الى مجراها الطبيعي .

وعلى أثر هذا الحادث لم يرض الوالدان وجوب الانتقام لابنتهما ، فحزنا للأمر الغريب ، وقد شق عليهما المصاب للحيرة التي انتابتهما الى مدعاة التقهقر التي سببت كل ذلك الاضطراب ، إذ أنه مهما بلغ واقع الأمر من شؤم فإنهما لا يرضيان أذية ابنتهما ، أما والحقيقة نقول « إن فايزاً كان آنذاك فاقد الشعور حينما جاء يقترف الجريمة » لكنه لم ينوِ قتل جميلة .. بل أراد ان يهددها ويدحض عنفوانها ، لأن تلك المشاعر الودية كانت وما زالت تخترق فؤاده ..

فندم على ما فعل ، ثم جلس منزوياً يردد قوله بنفسه متأوهاً قائلاً

« آه » لقد عيل صبري وأنا منذ سبع سنين طوال أشكو الملل وأوعد بلا وعد » .. إنني شاب مهذب ، مجاهد ، أتوق للعمـــل بتلهف ، وما زلت غضّاً ، ولمَ لا أفتش على فتاة أحلامي التي تصبو الى محبتي وتشاطرني حياتي في السراء والضراء ، ولمَ لم ابتعد عن هذه المشؤومة ؟. لعمري ، هل كنت أنا مجنوناً ؟ أم سكران ؟ أم ماذا ؟ وما دهاني حتى أهيم بفتـاة مغرورة ؟ أفكارها محصورة .. وكيف انني أحببتها وهي تبتعد عني ؟ تقول أمهـــا ، لا بأس يا فايز ، فهي ما زالت طفـــلة لا تفهم معنى الحب » ، يقول الوالد « لا تخش يا فايز من أمر يخيب فيه ظنك ،فنحن أولى بتدبير الامور اليك»..

أما الآن فقد شبت الابنة وهي في عنفوان شبابها تسحر الألباب بنظرة من عينيها ..

كنت أدنو منها فتبتعد عني ، وهذا يؤلمني .. ولمَ لم ابتعد عنها ؟.. فأنا غبي ، أجل ، أنا جاهل مغرور ، وهل الحياة كلها موضوع الجمـال ؟ .. لا والله ، فأنا قد نسيتها وسلوت محبتها حتى أنه لم يعد لها ذرّة من المحبـة في قلبي ، لا كان اليوم الذي عرفتها فيه ، ولا أسعد الله يوم احببتها فيه ، أفٍ منها ، وتفٍ لحياتها ، هيا بي أفتش على فتاة رحوم تعنى بالمحبـة المتبادلة .. إلى فتاة تهيم بي وتصبو لمشاهدتي وتفرح لملاقاتي ، لقد بلوتك يا جميلة ، وبلوت والديك العجوزين ، وبلوت العهود ، ونكث العهود ، فألعن اليوم الذي فيه دخلت دار أبيك ..

لا تشرحي صدرك بانفصالك عني أيتها المغرورة بنفسك ، فلسوف يأتي يوم تذكرينني فيه وتتحسرين عليّ وتتوقين لمحبتي ، فاسرحي وامرحي الآن ، هلمي فارجعي الى مـنزل أبيك ، عودي الى مقرك ، فقـد خلا لك الجو ، وليس من أحد يداعبك فيما بعد .. انهضي وصافحي والديك بقبلات الفرح ، استودعك الله الى يوم لا ترين فيه وجهي ..

كان الوالدان يصغيان لتأفف فايز وتذمره ولوعتـه للأمر المنكر الذي سطا عليه ولم يفوزا به ..

ولما كان الوالد سالم يتلمس لائمة فايز عليه وندمه على طاعة تمنياته فقد اغتاظ باشد ما تحتمله نفسه ، وكأن سهام النار كانت تحرق فؤاده فنبذ ابنته نبذاً يشكل خطورة عدم وجودها في منزله ...

وعلى شكل امتيازه بمعاشرة فايز وثقته بإبراز نهضته المرغوبة على ضوء العمل الذي يمكنه أن يقوى عليه لتدبير شؤون مصالحه لم يرض به أن ينفصل عنه ولا ينفلت من يده حتى ولا بوجه من الوجوه .. وقد تشدد بحبال وثاقه ولم يدعه يخطو خطوة واحدة الى البعيد أخذ الوالدان يتلطفان بمراضاة فايز ويتداولان الحديث معه بقولهما له « انك الآن يا فايز أصبحت ولداً من اولادنا ، تحنو إليك عواطفنا فلا ريب إن باشرناك بحديث جديد يسر قلبك ويريح بالك فتنسى عاقبة ما جرى معنا من تجسم الامور ..

ألا توافق ايها الابن المحبوب ؟ ..

فايز « وما هو هذا الحديث يا عمي ؟ » .

سالم « لقد صممت نيتي وعقدت رأيي أن أزوجك ابنتي سميرة وهي لا تصغر عن اختها أكثر من سنة ونصف ، وتضاهي أختها جمالاً بل شبيهة بها كما انت تعرفها وتراها بأم عينيك ، دعنا الآن من تلك اللئيمة المتعجرفة ، فوالله انني لا ارغب ان تدخل تحت سقف بيتي فيما بعد » هات يا فايز من رأيك وهلم نرسم لها خطوبة لمدة سنة واحدة فقط ، وبعده تبقى لك حليلة خليلة مرضية ..

فايز «طيب حسناً ما تقوله يا عماه» ولي الشرف العظيم ان اعيش في ارجائكما واستظل برعايتكما ، ولأحسبن نفسي وليد أحشائكما ولكن عفواً يا سيدي العم ، فقد تقطعت اوصالي بالوعود ، وعيل صبري ، والصبر مرير ، فخابت آمالي ، وضرب الخزي خجلي .. فبت كالعصفور المكسور الجناح لا فوز لي بالفلاح ..

إنني احترم كلامك يا عمي ، وصدق وعدك مقدس ، ويكون لي الحظ

السعيد بالتجائي اليك ، وعـــدم انفصالي عنك ، واحب الي ان أكون لك صهراً محباً ومحبوباً بشرط أن لا تعود بي الى تلك النغمة القتالة التي تردد علينا قول من قال ..

إن لم يكن حفظ الوداد طبيعة   فلا خير يرجى بالتكلف

سالم « لا يا فايز ، إن سميره ألين عريكة من أختها ، وأحب الينا منها ، ولا شك في انها ألفت معاشرتك أكثر من اختها بسبب دخولك الى منزلنـا ذهاباً واياباً ، وقد تبرهن لديها ان عمل اختها مشؤوم يكسبهـا الغضب من والديها ..

فايز « إذاً ارجوك يا عمي ، وبالله عليك ، لا تستعمل الفظاظة والتهكم في هذا الشأن ، بل سر بأمان تجاه الأحـــاديث التي تستغرق البحث في امور الدنيا ، وارم على مسامعها وعلى سبيل المزاح بعض كلمات يفهم منهـا ، اننا سوف نتعهد لفايز بالزواج منك عوضاً عن اختك .. حـــاول ان تقنعها بصورة مرضية ، ولا حاجة لطول الشرح ، لأنني وحقك لم أعـد أقوى على المماحكات او القضايا التي تؤلمني ..

دعا سالم ابنته سميرة وقال لها ، تعالي يا ابنتي ، واجلسي بجانبي ، كم انت محبوبة يا عزيزتي ، أحببت اختك كثيراً فنكثت عهودي ، كرهتهـا لشدة عجرفتها ، ولن ارضى أن تكون ابنتي فيما بعد .. أمـا انت يا سميرة يا حلوتي وحبيبة فؤادي .. فأنا وحقك لم اتعود مشورة بناتي قبـل الآن في سر الزواج بل كان الامر والنهي بيدي كما انت تعلمين ..

أما اليوم ما زلت على هذا النمط ولي الأمر والنهي .. بيـد أنه طرأ على مخيلتي فكرة ان افاجئك بسؤالي هذا اترغبين الزواج من فايز يا سميرة ؟.
اجابت وقد احمرت وجنتاها من الخجل واربد وجههـــا ، إنني لست اعلم شيئاً من هذا الأمر ، وإني اقول ..

انه ليس لي قول ولا مشورة بوجودك يا أبي ، فأنت اولى بمعرفة ما هـو

موافق او غير موافق ، واجدر بتدبير اموري لانني على يقين ان الوالدين يتمنيان كل خير وصلاح للاولاد ..

حسناً اجبت يا سميرة ، ليت اختك كانت وديعة مثلك ، قبليني يا ابنتي ولك مني الرضا ، وهاتي من وجنتيك الموردتين قبلات المحبة الوالدية ، رعاك الله ، اذن لنرسم الخطوبة لمدة سنة ..

طاب قلب سالم وزقزق بالفرح ، فأتى مفاجئاً الى فايز مؤمناً له صـدق مقاله من مجرى الحديث الذي تباحث فيه مع ابنته سميرة التي اضحت تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها .. وقد تهادت رندا الى الصراط المستقيم فرفعت عنها الضغانة التي استأنفتها لاسباب اختها واستعاضت عنها بعذوبة الفاظ ورقـة معاني لاجوبتها المفيدة .. والآن ايهـا العزيز فايز فأنا واثق كل الثقة باتمام الخطوبة لمدة سنة كاملة اذ تكونان قد تعاهدتما على الحب والوفاء فتصبحان حبيبين في عرف الطبيعة تمثلان الحياة أحسن تمثيل .. هيا بنـا يا فايز فنعقد سنة الخطوبة ، وانهض عاجلا الى السوق لاستحضار الاعدادات اللازمة لنرسم خطة الفرح في يوم معين ..

فابتهج قلب فايز وتحولت محبته الى سميرة ، وهي بالحقيقة لا تقل جمـالاً عن شقيقتها، فأخذ يتطلع الى نشأتها وطلعتها البهية،وكانت لم تتجاوز بعد سن المراهقة ، كانت خجلة تجاه رفيقها الشاب فايز ، وبالرغم من ذلك الخجل فانها كانت تشعر برغبة خاصة لمعاشرته والتحدث معه ، وهو نفسه قد تعلق قلبه بها لانها كانت فاتنة مزينة بمعالم الانوثة الجذابة ..

فصمم نية الزواج منها ووضع لها الخطوبة حسب اشارة والديهـا وكانت ليلة حافلة .. وقد اتسعت مدارك فايز عند انبساطه للغاية التي توصل اليها ، فقام بمهمة شديدة النهضة بعد ان كان يحرص على كمية وافرة من المال من ثمرة اتعابه ..

فضمن فرناً وبدأ يعمل فيه بهمة ونشاط ، وقد حفظ لنفسه مكانة سامية باستحضار بعض العمال المجاهدين معه ، وارتبط معهم بعقد اتفاقية واسـعة

النطاق لبيع الخبز الى احدى الجامعات القريبة منه ، ولحينـه باشر بابتياع الطحين وقام بمهمته احسن قيام على البادرة التي اسرع اليها .. فلم يطل الوقت عليه حتى راجت احواله وتوسعت يداه لتحصيل الرزق ، وظـل مثابراً على عمله بالقوة الجبارة مواظباً على جهوده المفرطة حتى انجز ارباحاً طائلة ، فـلم يحن انتهاء السنة الموعودة حتى توفر لديه مجموعة من المـال جعلته يتأهب لتأسيس منزل متلألىء بالامتعة الجاهزة والمفروشات الفخمة مع كل ما يلزم من اثاث البيت الضروري .

وبعد ان اكمل فايز جميع مستحضراته لعروسه والتجهيز اللازم على اكمل وجه اتفق الامر ان باشر بحفلة الزفاف ، وعلى هذا المنوال قام الوالدن بحفلة الزفاف المنوطان بها وبارك الكاهن اكليلهما وكان اكليلاً ميموناً ويوماً حافلاً.

ان تلك الرابطة التي تسمى زواجاً لم تكن الا وسيلة لاتحاد الزوجين وسعادتهما ، وان تلك السعادة لا تتحلى الا بالقيود المنبثقة من عوامل المـودة والاخلاص الذي ترتاح اليه نفساهما بالصفاء وراحة البال .

وعلى ذلك نقول : ان فايزاً وسميرة اصبحا في حدث جديد وفي مرحلة جديدة تتطلب تعديلا جدياً في حياتهما ، فتمتعا بلذة الحياة وانقادا الى تفاؤل الاعمال التي تعود عليهما بالخير الى صوالح تلك المملكة الصغيرة التي نشأت في ظل رعايتهما .

وقد ولد لهما البنون والبنات ، وقرت اعينهما بالتربية الصالحة التي قاما بها احسن قيام لاولادهما . فحمل الوالد فايز على منكبيه كل عبء ثقيـل يؤدي للجهاد في سبيل النجاح . وبفضل ادارة سميرة واقتصادياتها تدبرا بكمية من المال واقتنيا ملكاً وباشرا ببناء منزل واسع وتخلصا من ثقل الاجور ..

وما زال الرجل الاول يطلع صديقه على كل هذه الاخبار حتى انذهـل الصديق وقال:ان هذه الاحدوثة ليست اقل ضرراًمن تلك فهي تشبهها. اجاب الرجل الاول : ان هذه الاسطورة لم تنته بعد ، علي بتكميلها ، اصـغ الي فاسردها عليك للنهاية ..

٥

لا غرو إن قلنا أن حياة سالم وعائلته كانت حياة بؤس ، لم يكن له من ثمرة اتعابه اكثر من ان يعيل عائلته ويقوم بأودها ، لا ارث ، لا مـاديات طائلة ، ولم يكن له من منزل يسكن فيه اكثر من غرفة كبيرة ودار واسعة ومطبخ ، فضلاً عن ذلك وان منزله لم يكن ملكاً له بل استئجاراً . لكنه والحق يقال ، انه كان موقراً ذا إهابة ، وقد عاش حياته مسالماً ناعم البال ، قنوعاً بما قسم له الله ، حسبه أن سعادته لا تقل عن سعادة الأغنياء ، لكمال طويته ، وتقى نيته ، وارتفاع قدره بين معارفه .

أما ولداه الشابان يوسف وبديع فقد تذوقا الغناء المطرب أسوة بأختهما جميلة ، وشاءت الأقدار أن تفوقا عليها ، فاولعا بالقيثارة والمزمار وبالضرب على العود والقانون .

ولما كان صوتاهما رخيمين أخذا ينشدان الأناشيد الروحية والأغاني العالمية ويطربان الاسماع بالألحان العذبة حتى تعلقت قلوب الناس بهما ، وكانوا يتمنون أن يدعوهما الى منازلهم دائماً ليطربوا بالحانهما الشجية .

وقد رغب القسم الأكبر ان يقابلهما ، كما ورغبت العائلات المثرية بدعوتهما للحفلات الرسمية حتى ذاع صيتهما في سائر أقطار لبنان .

أما هما فقد أولعا بهذه المهنة ولعاً شديداً كونها مهنة شريفة عذبة أهلتهما أن يتشجعا للانتقال الى حياة المسرح ، فضلا عمـا كانا يستفيدان من حفلات

الأعراس بمبلغ من الدراهم .

فانعكفا على ميول الأغاني لافتتاح الحفلات في كل مكان يطلبان اليه حتى تجاوز طلبهما الى المهجر ، فتركا لبنـــان مجيبين على طلبات ملحة من دواعي الجوقات الموسيقية ، وتقيدا ايضاً مع الجوقات الغنائية .

وبعد ان صرفا مدة يتجولان بين أقطـــار سوريا وتوابعها في البلدان المجاورة كانا قد أقبلا على النجاح الباهر ، ورافقهما الحظ السعيد بتدخلهما مع العائلات النبيلة ، وقد سمت شهرتهما حتى اصبحا حديث المجالس والسهرات . فمثلا دور الحب آنذاك أحسن تمثيل ، واستمالا اليهما بعض الفتيات الشريفات وظلا يتحليـــان بسيرة حسنة دون ان ينسيا والديهما ، فكانا يزورانهما مرة بعد أخرى .

وقد تزوجا من فتاتين شريفتين ورزقهما الله اولاداً ، وما انفكا يواصلان الكتابة الى والديهما ويمدانهما ببعض ما تملكه ايديهما حتى توفى الله الوالد سالم.

نعود الآن الى جميلة ، فقد قضت في منزل خالها نحو السنتين كانت خلالها مصب أنظار الفتيان ، فأخذوا يتسابقون لطلب يدها ، ولشدة عجرفتهـــا وإعجابها بنفسها كانت ترفض هذا وذاك . وازدادت تعجرفاً امـــام أحد الفتيان وهو حليم ، وقد تاه عجباً بها وأولع بحبها ، فرفضته رفضاً باتاً وأبت الا ان خلفته حزيناً وليس من يؤاسيه ، لكنه اخيراً سخر منها سيا وانــه كان من ذوي الأهليات المناسبة لأية فتاه تتمنى الزواج منه ، فلما تبين لديه أن صدها وجفاءها سيوقعانها في حفرة الندم كتب لها جملة مؤثره يقول لهـا فيهـــا .

(أنا أريدك وأنت مـــا تريديني ، سيأتي يوم فتندمين حينما انت تريديني وأنا لا أريدك) فسخرت من كلامه وأخذت تضحك وتهزأ باشارته السخيفة

راح ذلك الشاب يتجول بين ربوع العائلات فأسعده الحظ وتزوج من فتاة حسناء ذات خلق وُخلق تبادله مثال الحب ، فصرف العمر بقربها هانئـــاً

متمتعاً برغد العيش والسرور .

بقي علينا حتى الان ان نسرد للملأ حياة تلك الفاتنة جميلة التي تنتهي الى آخر عبارة من هذه الاسطورة .

إن جميلة بعد أن عاينت أن أخويها وأختيها تركوا منزل والديهم ، وكل سار في سبيله ، تركت منزل خالهـا ، وعادت الى منزل والديهـا مستغفرة ، وقد رضيا عنها ، فأحاطتها بعنايتها ، ولمست منهما الحنان الزائد لمحبتها ، والرغبة الفائقة لوجودها بينهما إذ لم يعـد لهما من الاولاد في المنزل غيرهـا ، وكانا بحاجة ماسة اليها ، اولاً لتعزية قلبيهما ، وثانيـاً لقضاء حاجاتهما . وقد تحسرت جميلة لفرقة أخويها بيد انها كانت تتعزى بمؤانسة اختها رندا القاطنة بجوارها .

دامت جميلة معجبة بنفسها تفخر بجمالها ولحن صوتها ، ومـا انفكت ترفض هذا وتترك ذاك حتى تقدم لطلب يدها أحد الشبان من ذوي عائلة نبيلة واسمه عادل ، اسمر اللون جذاب ، رشيق القـد ، متعلم ، لسن ، يخلب الالباب برقة أحاديثه ، وقد عرف الكثير عنهـا من بعض الاصدقاء الذين بالغوا بوصف محاسنها . ويجدر بنا ان نقول ، انـه كان يومذاك في عصرنا الماضي أن من كان ذا ثروة طـائلة يكون له إذ ذاك حق المغامرة ، حتى وبالأحرى حق الأنانية ايضاً ، ولشدة فخره بالنسب يجدر به ان يتزوج من فتاة تناسبه ، وربمـا هذه التقاليد لا تزال راسخة في أذهان البعض حتى عصرنا الحاضر .

وعليه فان الشاب عادل هام بحب جميلة وطار بها جنوناً ، فجاء يطلبهـا من والديها لارتباطه بها .. وقد أعجبها جمال هيئته ، نبله ، كماله .. إن حدّث روى ، وان أقبل دوى ، وان نطق أصاب ، وان سئل أجـاب ، رأيه سديد ، علمه مفيد ، يروي للمجتمع جميل محاسنه . وان أقبل على التحدث لا يمكن لأحد ان يتغلب عليه بكلام ، أنيس جليس ، وقد استمال القلوب اليه .

استأنست جميلة به وطاب قلبها لرقة أحاديثه حتى كادت تقول في نفسها، هذا هو الفتى الذي كنت أحلم به .. ألفاظه ترويني .. وقد أحبه قلبي ، وسوف أكشف له حبي ، كيف لا وهو شاب متعلم وانا جاهلة .. هو غني وأنا بائسة .. أما واني لفي ارتباك من أمري .

أما اذا كان حسبه أنه من أشراف العائلات ربما يسخر مني يوماً ، أو يفخر بنفسه علي ، فأنا والله لا أرضى الزواج منه ، لا ، لا، فقد فاجأني بحبه، وقد أحبني ، فأحبني ، وأتاني بغرام مفرط حتى انه لم يعد يقوى على العمل دون مشاهدتي .. أنا أحببته حباً يفوق الوصف وتمنيت لو عرفته قبل الآن ، وكدت لا أصدق انه صبّ مغرم بي لهذا الحد .

إن جميلة رغم تعلقها بعادل لم تكن متفائلة ، وقد تبين لديها شتى غرور ينبئهابغرابة الامور ، ولماذا ؟.. أولاً ، فهو حتى الآن لم يتجاسر لمشورة والدته واخته العانس ، ثانياً فقد احتل المكان احتلالاً حتى منتصف الليل ، وهل هو أمر حلال أن يتخلى عن مشورة والدته ؟ فأخته ! أوَليس هذا أمر غريب ؟ ربي ، انني في حيرة وتشاؤم من أمري ومن شر مصيري .. وهكذا كانت جميلة تحدث نفسها في أغلب الاوقات ، وكانت الأفكار تتلاعب في رأسها فتقول : إن أمه متعجرفة معجبة بالحسب والنسب إذ ربما لا ترضى لابنها فتاة بائسة نظيري .. سيما وانه لزعمها ان ابنها شاب متعلم ، يجدر بها ان تزوجه من فتاة مثرية ذات مكانة تضاهيها ، ولا أشك في أنها قد يئست من تصرفاته الاخيرة لعدم اكتراثه بالخضوع لأوامرها ، خصوصاً عندما يعود الى منزله عند منتصف الليل ولا يبوح لها بسرّ من أسراره ..

إن أمه وأخته وقد وثقتا به ثقة شديدة لزعمها أنه ابن علوم ، وله مهنة شريفة كان قد باشر بعملها (مهنة الخياطة) لكنهما ما زالتا تشمئزان من تغيير عاداته التي حالت دون مجيئه الى البيت الا عند منتصف الليل ، وقد انتابتها الحيرة عما دهاه حتى استنكر طاعة أمه وبات متخلقاً متشائماً وقد رتع عادل في منزل سالم تائهاً في غياهب تأملاته مجتذباً اليه عروسه جميلة ..

وقد أولع الاثنان ببعضهما ولعاً شديداً ، فاعتصما بحبال الصبر لمنال النهج الذي يتوقان اليه .

ولا ريب فان الوالدين سالم وزوجته فانهما رغم الحالة البائسة التي هما عليها متحليان بالشرف الرفيع ورقة الشعور ورغد العيش ، فلم يتصديا لمضادة الوالدين .

دعا الوالد عادلاً وقال له .. ثق يا بني انه ليس لك في ابنتي نصيب ما لم تحضر أمك وأختك لطلبها ، صاحت جميلة أيضاً فقالت ، وأنا اقول هكذا لأنني متشائمة وقلبي ينبئني بغرابة الأمور .

عادل ، ما لأمي وأختي ؟ فأنا الذي اروم الزواج وليستا هما .. أنا شاب متعلم ، وعلاوة عن ذلك فانني اتعاطى مهنة الخياطة ، وكيفما درت اواتجهت يمكنني ان اقوم بتدبير شؤوني احسن قيام دون امي واختي ، فلا حاجة لمشورتها ..

أما هو نفسه لم يجسر على مشورتها علماً منه أنها كانتا تفخران ليس بالنسب فقط بل بالعلم والادب ، لأنعادلاً من أهل العلم .

كثيرون من الوالدين يعرقلون مساعي اولادهم رغبة منهم لانجاز مآربهم ، وكثيرون من الشبان يصرون على عنادهم لان مشاعرهم لا تقوى على انعكاس ما يضمرون ، وبما ينسب لهم من ضرر العوامل للحب الشديد ، فيتغلبون إذ ذاك على مضادة الوالدين ، ويتألبون على ازدياد رغبتهم لطريقة الحب المنشودة .

عادت جميلة تخاطب نفسها وتقول ، ويحي ، لماذا امه واخته لا ترضيان بي ؟. فأنا نفسي ايضاً لا ارضى به ، وهل هو احسن مني ؟.. لا والله .. فكم تهافت من الشبان لطلبي وكنت ارفضهم ، واتغلب في مؤامرتي عليهم ، لا لعمري ، فأنا سوف لا أنصاع لنداء قلبه ، فاني اسمع من حناياه الرياء والخداع ..

جاء عادل فجأة يروم مناقشةجميلة ، فنفرت منه نفوراً ونعتته بأمه وأخته وقالت له ،أخرج من هنا يا عادل،ليس لك فيّ نصيب ،فأنا معجبة بنفسي اكثر من امك وأختك اللتين تفوقان تعجرفاً عن كل الناس ، وانه ليس بالسهل علي أن أقتنص حياتها ، وأضاد تمنياتها وأكون وجهة تمرد في نفسيها ..

عادل ، ماذا تقولين ؟ أما تعلمين ان امي وأختي هما رهينتا إشارتي ؟ فالرأي رأيي والأمر أمري ، وليس لهما علاقة بأمر زواجي .. كوني براحة ولا يهمك هذا الأمر فان شؤوني وآرائي منوطة بي ، وحقك انني لا اخرج من هذا البيت ما لم أفز بكلامي وأتم عملي ..

وسنلقي حدثاً عما دار بين أم عادل وابنتها لهذا الموضوع ..

إن عادلاً كان يألف منزله عند المساء ، فيحوم حوله بعض الأصدقاء ويصرف اوقات السهرة معهم بين هرج ومرج وهزل وضحك ورقص منبسطاً براحة البال ورغد العيش ، تارة ينصرف معهم الى الملاهي وطوراً الى المتنزهات وهلمّ جرّا .

أما اليوم فأين عادل يا أمي ، لقد حان منتصف الليل ولم يحضر ، فما السر في ذلك يا أماه ، هل هو عاشق ولهان ؟ ترى من يحب ؟ أية فتاة ؟ ليتني عرفتها ، أو على الأقل عرفت شيئاً عنها ..

أمي ، أمي ها هو قدحضر ، حاولت أن استقصي منه ولو كلمة.واحدة أقوى بها على البحث معه لاستطلاع حوادثه ، فلم يبح بسره ، بل كان ينفر مني ويقاطع حديثي بالصمت والسكينة .. ولا غرابة فان الأمر واضح ، ولا أشك في انه مشغوف بحب اية فتاة سلبت عقله . إذ تلمحين منه التبحر في التفكير والهدوء بعد ان كان دأبه الهرج والمرج والضحك واللعب ..

الأم ،السر في ذلك يا ابنتي وقد عرفت شيئاً عن أمره من أحد أصدقائه، أنه مغرم بفتاة بائسة ليست جديرة بأهليته ..

الاخت ، ربي ، من انبأك هذا الخبر المؤلم ؟..

هو سامي أحد أصدقائه وأكـــد لي ان شقيقك صبٌ مغرم بها لا يحول دون مشاهدتها حتى ولو ساعة واحدة ..

الاخت ، لقد تفهمت الامر كله ، فلسوف أهتدي الى منزلها وأقترف إثماً بسببها ، إيه ، إيه ، فقيرة ؟ بائسة ؟ وهل لاخي ان يتزوج فتاة كهذه ؟ لا ، لا فلأحسبنّ أنني يوماً قادمة اليها لاكتشاف الامر فأضغط عليه وأقتنص محبته وأخلصه منالزواج المنكر الغير اللائق ، هيا بنا يا امي فنهتدي اولا الى المنزل الذي يحل فيه .

نهضت الام وسارت مع ابنتها في ساعة بعد المغيب واخذتا تستدلان المحل فكأنها وعلى سبيل الصدفة اهتدتا الى الفرن الذي كان يعمل فيه الصهر فايز زوج سميرة ، وهو لا شك كان يرغب في عرقلة كل عريس يسعى لطلبها .

كان فايز آنذاك واقفاً امام باب الفرن ، فاتجهتا اليه وسألتاه عن المكان، واخذتا تستطلعان منه امر الواقع عن حقيقة صفـات البنت ومزاياها وكيفية تصرفاتها ، فما كان منه الا ان فتح فاه بهوة من نار لاقوال انتقامية بقوله :

ان عادلاً ليس هو الا مجنوناً ، وقد احب هذه الفتاة وهي اخت زوجتي كنت انا نفسي أروم الزواج منها ، لكنني لمحت فيها عدة ملاحظات ، اولاً هي طاعنة بالسن ، وثانياً بشعة ، بطيئة الحركة ، مماطلة لا تلوي على شيء ، وعلى ما ارى انها اغوته بعذوبة لسانها حتى فتنته واصبح اسير هواها ، هو هائم بحبها لا يحاول مفارقتها ، هوذا المنزل ايتها السيدتان بالقرب من البناية التي هي تجاهكما ، واشار بيده الى المنزل .

احتدمت الام وابنتها بالغيظ الشديد فصدقتا تلفيقات ذلك المنتقـــم ، فصاحتا ، يا للمصيبة ، واسرعتا الى المحل المذكور ، فوقفتا خارجـاً بعيدتين عن المنزل ، وكان الليل قد أرخى سدوله .. ارسلت امه بطلبه مع احـــد اولاد الجيران الذي كان ماراً ساعتذاك من هنــاك ، فخرج عادل لمقابلتهما ، وشرع الثلاثة بالمماحكة .

وقفت الام وقفة المغتاظة واخذت تندد بابنهـا بالكلام الذي تلقنته من الصهر فايز ، وقامت اخته بالهيجاء على رأسه ، وشرعت الاثنتان بالجـدال والخصام مع عادل ، واخذت اخته تقول : إيه ، إيه ، ما هذه الابنةالفقيرة الملتصق بها ؟ أمه تقول : انهض الى بابك العالي يا ابن المعالي ، الى بنايتـك الفخمة ، ولا تنكس رأس عائلتك ايها المشؤوم ، تباً لك من غشيم ، تـف عليك ، وكيف انك احببت هذه الفتاة وهي طاعنة بالسن ، كسولة، مخلوعة على ما يقال ، وكفى انها فقيرة ، اين اضعت علمك يا ابن العـلوم ؟ يا ابن الكرام ؟

عادل : صه ، صه ، هذا تلفيق منك يا اختي ، من الذي انبأك بهـذا ؟ هو وغد لئيم ، بل بعكس ذلك فهي تفرغ للعمل جهداً ، لا تمل من الاسراع لكل همة تقوم بها ، حسناء ، جميلة ، واسمها جميـلة ، فهي اصبحت فتاة احلامي ، واني لا ارى بنظري اجمل منها، هيا بنا ندخل ونعاينها فتتأكدان صدق كلامي .

صاحت الام وابنتها بقولهما : ويحك ايها المشؤوم ، وهل لمثلنا ان ندخل منزلاً كهذا ؟ لا بارك الله وجهك .

فلما فشلت الام وابنتها باقناع عادل رجعتا خائبتين فأقبلتا تواً الى سيادة مطران الكاثوليك واوقفتا الاكليل .

عندما سمعت جميلة ووالداها ذلك الكلام المبجـح انتفضت فرائصهم ، واستنكروا الكلام الذي نطقت به امه واخته ، فصـاح الوالد سالم صيحة الاحتدام وقال لعادل : اخرج من بيتي يا هذا ، ليس لك نصيب من ابنتي ، اخرج عاجلا يا بني وفتش على الفتاة التي تناسبك وترضي امك واختك ، انني كنت اتوقع هذا الامر قبل الآن ، وقد انذرتك به ، فهيا بك اسرع وامش ولا تقف امامي دقيقة واحدة .

علا صوت عادل عند ذاك بالصراخ وانفجر بالبكاء فقال : ان الحظ قد

رماني في هذا المنزل ، ولأحسبن نفسي سعيداً بدخولي الى منزلك ايها العم ، وارتجائي لمؤازرتك ، وليس بالسهل علي ان اخرج من دارك دون القيام بما انوي . كن على ثقة ايها العمان لم تزوجني ابنتك فلأقتلنهاواقتل نفسيوراءها فتكون انت المسبب للجريمة . وشهر اذ ذاك مسدسه متبيناً بقـوة جأشه واردف يقول : اعلم ايها العم ، ان يدي ممدودة للعمل، ولا بد لي ان استفيد من علومي ، او بالاحرى من مهنتي ، فـأنا شاب خياط ، فارحمني واسرع لاتمام حفلة الزواج ، والا ..

صمت الوالد برهة فانتابته الحيرة بما تسول له نفسه ان يفعل ، لم يكن ثمة من بد لاتمام الامر الواقع بسبب الانفعالات التي تتوقد في مشاعر عادلوجميلة اذ كان قد لمح منهما التغلب على الولع بكلا القلبين حتى انهما لم يعد لهما طاقة للانفصال عن بعضهما .

ولما كان الوالد سالم يخشى وقوع حادث رهيب ، واصبـح الصدّ من أم عـادل وابنتها أمراً منكراً تجاه ابنته فقد اتفق الرأي للنظر الى الظروف المناسبة . فعزم الوالدان على إتمام حفلة الاكليل مع أحـد الكهنة من تبعة المطرانية الكاثوليكية دون ارادة ذويه ..

تمت الافراح والتأم الحبيبان بالمحبة والاخلاص وعزما على بنيانالقيم الشيقة التي تبرزهما امام المجتمع ، فاستأجر عادل غرفتين إزاء العم سالم بذات البناية قرب الأخت رندا وقطن مع زوجته قريباً منه وكان له ما أراد ...
بدأ المهنئون يتواردون لتهنئة العروسين وخصوصـاً زملاء عادل الذين كان يحتاط بهم ويصبو لمؤازرتهم » وقد ازداد اعجاب جميلة بنفسها لاقترانها بفتى متعلم نبيل حسبها أن منال محصوله ناتج من وراء علومه فتسعد من فوائده ونعم النصيب ..

وبالحقيقة نقول ، إن عادل كان يتقن اللغتين الافرنسية والعربية على اكمل القواعد المشتملة فيها ، وكمن كان صحفياً في ايام عصره ... فتدبر بعمـل مفيد آنذاك في ادارة المصرف التركي وكان له فيـه رتبة سامية وراتبـاً لا

يستهان به .. أما هو فلم يكن يهوى العمل لأنه لم يعتد العمل ، ولم يكن له طول أناة لحصر افكاره في مهنته الحسابية ،بل كان مماطلا متمعضاً يلهو بنفسه مع البعض بكثرة ادعائه بذاتيته وافتخاره باسرته النبيلة والمثل يقول ..

ما بقومي شرفت بل شرفوا ابي وبنفسي ارتفعت لا بجدودي ..

أما جميلة فبعد ان ناشدت حياتها بالسعادة والرفاه زعماً منها أن زوجها سيوافيها بالخيرات المفيدة لبنيان عشاً مقدساً ترتاح اليه نفساهما فقد فشل رجاؤها وخابت آمالها لأنها لمحت منه الخمول وعدم الحماس لمهنته الجليلة وميوله الفاشمة الى البطر والتهافت الى المنتزهات وخلافها ، ولم يكن يتهافت الى النهضة الثقافية التي كان يتباهى بها ، لان امه كانت قد عودته على الدلع والغنج وهو وحيدها دون اخته ، وقد اعتاد ان يأكل هنيئاً ويشرب مريئاً.

لم تكن جميلة ووالداها يفهمون عنه شيئاً منذ قبل اكثر مما عرفوا انه شاب متعلم ، وابن العلم يمكنه ان يجتني من ثمار علومه ما لذ وطاب سيما وانه في ذلك العصر كان من النزر أن يوجد شاب متعلم مثل عادل ، وجميعهم كانوا على ثقة أن أمه وأخته لا بد ان ترضيا يوماً حينما يقوى على القيام بتدبير شؤون منزله وإمكانيته ..

ان عادلاً وهو يدعي الاصلاح والعمل الطيب كان حاذقاً وذكياً،ولكننا في حالته هذه نلمس بعض الخلل في عقله فنردد قول من احسن القول :

العقل فن واحد وطريقه أدرى وارصد والجنون فنون

فعوضاً من ان يستعمل ذكاءه لرقع قيم الحياة فقد استعمله للدمار والخراب، وكان يفسح لاتباعه مجالاً ليفكروا باخطاء تأثراتهم دون التيقظ من اعوجاج أنفسهم للتحدي على شق طريق الآداب مع زوجته ... وكان اصدقاؤه يماثلونه إلى كل ما يهوى ويحب وهم عشراؤه طغمة من أهالي الهوى .. ومن ذوي الأسرات المثرية والمحيط الرفيع ، وقد استحسنوا رقة جميله ومحاسنها

ففي ذات يوم بينما كانت جميلة جالسة على مقعد في منزلها وهي غارقة في

تيار هواجسها وإذ طرق الباب ..

جميلة : من الطارق ؟..

أنا كريم صديق زوجك عادل .

كان كريم قد اغتنم فرصة غياب عادل ليتسنى له الوقت للمناقشة مع جميلة.

فتحت الباب جميلة ورحبت به احسن ترحيب وقامت بواجب ضيافته إكراماً لمودة زوجها .. أخذ الشاب يتطلع الى جميلة وعيناه لا تشبعان تطلعاً منها ، فبدأ يبثها عواطف حبه ويكشف لها مكنونات قلبه زاعماً ان صديقه عادل هو رجل متغفل لا يفهم للآداب معنى ، وللحال انتشل من جيبه عقداً جوهرياً وقدمه هدية لها ، فرفضته رفضاً وصدت معانيه بفظ الكلام ولم تأبَ إلا ان خلفته وحده في المنزل واختطفت دخولها الى منزل والديها ولم تعد لمخاطبته البتة ، فنهض الشاب لساعته محتدماً وأغلق الباب وراءه بحدة وجاء الى عادل يقول له .. ايه .. وأي غبي انت، أما وجدت أحسن من هذه الفتاة العجراء لتكون عروساً لك ؟ تباً لها كيف وجهها ممقوت ، ولسانها مربوط ، ليس لها رقة ولا حذقة . قصدت الذهاب الى دارك لأسأل عنك فمقتتني وتركتني وحدي في المنزل ، فأنا والله سوف لا ادخل منزلك فيما بعد ..

وما كان منه الا أن أسرع الى أم عادل وابنتها وبالغ بالذم عليها والطعن بحقها، فأخذت كلتاهما بالتمتمة على عادل وانتفضتا بثورة الغضب ناسبتاه الى الجنون ..

ولقد تكدر عادل عند سماعه شكوى زميله على زوجته ، فأسرع اليها مفاجئاً وصفعها على وجنتيها الناعمتين كاد يقلع أسنانها ، وأخذ يلومها لعدم مداراة صديقه وخشونة ألفاظها بالتحدث معه .

بكت جميلة بكاء مراً ، كيف لا وإن زوجها لم يتغلب على نقائصه للاستفهام عما دار من الحديث ؛ ولم يشعر بالفضيلة التي كانت تزدان بها زوجته

بل كان ينطلق الى السفسفة والامور المبتذلة وأمثال ذلك ، وقد مهد السبيل لأصدقائه أن يؤموا داره في أي وقت شاؤوا ..

ولا يسعنا تفسير تلك الحركات التي كان أولئك الفتيان يتربصون بها لاشباع شهواتهم واتمام رغائبهم على ضوء الانطلاق الى ما تصبو اليه نفوسهم ..

كان عادل يعتقد أن هذه الحياة ليست إلا حلماً ، أو سراباً ، فلا حاجة مثلى للكفاح فيها ، ولا لزوم لمصارعة أهواء النفس ونزاعها ، فحاول أن يخدع حياته وحياة زوجته بالاستخفاف بالمهمة التي ينبغي أن يقوم بواجبها .

أطلق العنان لزملائه أن يوافوا منزله على الوجه الذي يروق لهم في موكب رغائبهم، لكنه لم يعبأ بمناداة الأمل الوحيد والرجاء الوطيد لزوجته المضطربة المتيقظة من غرابة الأمور ..

يقول أصحاب البصيرة إنه لا مفر للانسان من مواجهة مشكلات الحياة ، وكل فرد يبني حياته على المواد التي يستمدها بفضل جده واجتهاده في مدة حياته الواقعية، ويجازف بروحه لتحقيق ما هو ذات قيمة في الحياة ، ولكن أنـّى لعادل أن يقوم بتحقيق تعهداته التي أغرى بها زوجته ووالديها وقد خاب ظن زوجته به ، وأمّنت تعاسة حياتها . عضّت على العناب ، طرقت الباب ، الباب مغلق ، ليس من جواب .. اشتعلت النار في أحشائها وصدقت ما كان يتشاءم منه قلبها ، فجلست منزوية تحاكي الهباء ، تردد قول حليم الذي انحنى بروحه لطلبها وقد رفضته ..

ودامت تردد جملة حليم « أنا أريدك أنت ما تريديني ، سيأتي يوم أنت تريديني أنا لا أريدك » ..

وكانت عندما تفكر بهذه الجملة تضطرم أحشاؤها بوعيد النار سيا وإن حليماً أصبح رجلا غنياً يراود حياة سعيدة مع زوجته ضمن حجاب التودد والتهادي الى كل عمل صالح ..

ها قد جاء يوم ذكرتك فيه يا حليم ، أيها الفتى الحليم ، هنيئاً للفتاة التي ضمتك إليها ، وترعرعت بحياتها السعيدة بقربك ، سامحني أيها الفتى المحبوب فقد أخطأت بنفسي .. أجـل لقد تزوجت من فتى كريم ، فأصبح وغداً لئيماً ، ويح أبي الذي لم يُغـدر من أحد طيلة حياته ، فكيف أغراه هـذا المكار؟ وقد أغراني بعذوبة لسانه ، فسلب عقلي برقة أحاديثه ولين عباراته.

هو العادل الجبار ، وقد رماني في وهدة اليأس والقنوط ، فأمنت لنفسي التعاسة والشقاء .. آه حقاً إني تجبرت ، ولم أفطن أن هو وحده الجبار يفعل ما يشاء ، هو الإله الذي دفعني في قبضة عادل وقد ضربني ، نعم هي ضربة قاسية ، وكفاني الشماتة ، يا لبؤسي ، وهل أنا مخطئة ؟ وهل من العلوم تنتج قبائح ؟ ربي ، كم من فتيان ذابوا تحسراً لطلبي وكنت أرفضهم ، يا للخيبة ، فقد تبين لديّ شر المستقبل ، تفٍ لهذه الحيـاة ، فأنا لعمري ، ما عدت أهوى السمر ، ولا صفاء السهر ، فمنذ بدء وجودي معه وقـــد صفعني ، وكيف بي والنهاية ؟

قال الرجل ، يا لنكد الطالع ، يقال ، إن كلمة حظ هي كلمة خرافية ، وهل أليست هذه الأسباب من سوء الحظ لتلك المسكينة ؟

٦

جاء عادل متملقاً كمازح لزوجته ، فأخذ يداعبها ، واشار لها ان تجلس بجانبه ، واخذ يقبلها مستسمحاً منها ، ولما كانت الانفعالات تتأثر في احشائها رفضت الجلوس الى جانبه والتحدث معه دون الامور اللازمـــة الضرورية لخدمته .. فابتسم اذ ذاك بوجهها العبوس وجذبها من يدهـا وأجلسها بجانبه واخذ يداعبها ويقول ، أتزعلين مني يا حبيبتي ، وحقك انني لم افعل هذا إلا على سبيل المزاح ، لا عاشت اليد التي صفعتك.قبليني يا حبيبتي واصفحي عني، فأنت أثمن شيء في الدنيا عندي ، وربي ، انت حياتي ، ورجائي ،وسعادتي ، وتوطيد آمالي .

دعينا الآن من العبوس ، هلمي ارتدي البذلة التي جهزت لك اياها أمك ، وتعالي نذهب الى الملاهي حيث ملاعب النغم ، الغناء ، الرقص ، فتروحين قساوة الكدر فهو يضني الصحة ويذهب بحياة الانسان .

علينا ان نعيش كلانا سعيدين في الحياة ، فلا تتبصري في منتزهات الدنيا وشقائها ، قومي الان يا حبيبتي ودعينا نذهب الى المتنزهـات ، ولا يهمك الأمر ، فليس بعد العسر إلا يسر .

ابتسمت جميلة لكلام عادل ومداعباته، وارتاحت نفسهانوعاً عما داهمها من شدة التفكير الأرق ، فنهضت للحال وارتدت أحسن بذلة عندها ، فبان جمالها الفتان الذي كان سرّ الحب لناظريها . ثم دخل عادل أحد الملاهي

متأبطاً زوجته الحسناء مفتخراً برشاقة قوامها .. وللحال احتل المكان الاول للوجهة الملائمة .

وما ان جلسا هنيهة مستريحين حتى أقبل أصدقاؤه المومأ اليهم بالحضور يتوافدون الواحد بعد الآخر ، فتقدم الخادم واستحضر مائدة الخمور المشكلة بأنواع الأطعمة اللذيذة .. فبدأ الجميع يشربون نخب جميـــلة ، فيضحكون ويمرحون وسهام ألحاظهم تروق للتطلع اليها .

أما هي فلم تلفت نظرها اليهم . ولم تشاركهم في شراب سلافتهم ، بل كانت تشعر بمرارة في نفسها غير مبالية بسخافة الفرح الذي كانوا يهزلون ويمرحون به في تلك السهرة ، فطلبوا منها ان تغني لتزيد انشراحهم .

عادل – مالك صموتة يا جميلة ?هاتي لنا اغنية من صوتك الرخيم ،واهتفي يا ليـــل ، وربي ، فان صوتك أطرب من نظري إليك ، هيّا يا حبيبتي وشاطريني أفراحي ، بئست الدنيا ، فهي للزوال .

جميلة – لا ، لا يا عادل ، فأنا ليس لي بعض الميل لهذه الرغائب التي انت تهدف اليها ، ولسنا بحاجة الى الدريهات الفاسقة ، قال : وهل نحن الآن بحاجة الى دراهم ؟ نحن الان في حالة انشراح ، تعالي نسرح ونمرح ، لا كان العبوس ، والله ان أغنيـاتك تنعش فؤادي ، دعيني أطرب بنظري اليك ، وأسمع ألحانك الشجية ، يا حياتي ، ورجاء حياتي .

جميلة – كفى لهذه السهرة ضحكاً وهزلاً ، دعنا نعود الى البيت بأمان فان مزاجي لا ينسجم مع جمهور متهتك مثل زملائك .

ماذا تقولين ؟ ان زملائي هم من ادباء العلوم والثقافـــة ، وهم يحبونني ويجاهدون في سبيل نجـــاحي ، وانت تنسبينهم للتهتك ، ويحك ، فلو لم أخش ان أغضبك لصفعتك صفعة ثانيـــة لهذا الكلام الخشن ، فمن انت تكونين ايتها البائسة الفقيرة ؟ أما ترقصين ؟ أما تغنين؟ اين زهوتك بالغناء ؟ اين بسمتك الزهراء ؟ ، ولماذا أغلقت فاك ؟ ان المحب لمن يحب مطيع .

جميلة – انني بموجب القوانين الدينية ، وبحق المودة المقدسة التي ألفناها أرى من الواجب علي أن أطيعك وأكون رهينة بنانك على وجه الحياة الفاضلة وليس على الوجه المبرّح الذي تقودني اليه وتجعلني عرضة للاحتكاك ، فانا أسمو بفضيلتي وعفافي وقداسة قلبي الذي يتوق للعمل وليس للخزعبلات والخلاعات .

عادل – وهل هذه خزعبلات تدعينها يا عزيزتي ؟ نحن الان في حالة صفاء وهناء ، فلماذا تعكرين صفو هنائنا ؟ .

وكان ، اذ ذاك قد مرّ بهم الليل الساعة تلو الاخرى حتى حان منتصف الليل ولم يشعروا بالنعاس لان مشاعرهم للشمول والخمول كانت تتزايد بالمرح حتى أنهم صمموا ان يبقوا الى بزوغ الفجر ، ولم تكن نظرتهم الى جميلة مرضية لانها خالفت مزاجهم .

ولما لم يكن لجميلة صبر على احتمال السهر نهضت لساعتها وطلبت العودة الى البيت ، فقام عادل للحال وسار بها توًا الى البيت وقلبه كاد ينشق قهراً منها، فعزم على الانتقام منها لولا انه أراد ان يعاند المستحيل لاقناعها والرضوخ لاطاعة أوامره على سبيل الاغراء والمداهنات لتسير سيره وتحدو حدوه .. وهو نفسه يعلم أنه ليس من حق الشهامة ان تسير زوجته وراء اهوائه ، لكنه بحسب فطرته النفسانية وميوله الفاسدة فقد استبدل الشهامة بالسخافة ، والنشاط المفيد بعدم المروءة .

ولا مندوحة ان زملاءه عادوا الى منازلهم مرنحين بسلافة الخمر بعد ان صرفوا تلك الليلة بلا نعاس الى الصباح ..

وفي اليوم التالي دعا عادل زوجته لارتداء ملابسها ، واخذ يداعبها ويملقها مازحاً كأنه يروم ان يغريها لتتبع مآربه الشخصية فقال لها : أما تحبينني يا جميلة ؟ أجابت : لا ، لا أحبك ، فأنا فقيرة ، لا أحب الاغنياء ، اعلم انني فقيرة بمادياتي ، لكنني غنية بآدابي ، وأخلاقي ، وحياتي ، انت تكرهني على الرقص في المسرح ، وهل هذا من شيم الكرام ؟

عادل ، ليت شعري ، وهل تعيشين من الآداب والقداسة يا حبيبة ؟..
لاحظي كيف ان أهـل التقى والصـلاح لا يلبثون أن يلاقوا العقبـات والصدمات كل ايام حياتهم ، يكافحون أعمالهم بالجد والنشاط ، ولا يلقون الا نكد الطالع وسوء الحظ .. قلت لك ان الدنيا للزوال ، وهي حقاً للزوال .

تعالي الآن فنتحدث ليروق لنا الجو للمناقشة والمداعبة ، تعالي اجلسي بجانبي يا حبيبتي ، أوَلست انت حياتي ورجاء سعادتي فقد أحببتك لجمالك ، لأسمع صوتك الرخيم الذي ينعس فؤادي ، غني لي يا حبيبتي ، فـأنا أطرب بلحنك الحنون ، آه ، ما أحلاك وانت تغنين ، وانت ترقصين ، وحقك يا حبيبتي لو انك رقصت في المسرح لكنت سلبت عقول الناس ، بل وكنت ربحت من الأموال الطائلة ما توفر لديك ان تعيشي سعيدة كل ايام حياتك .

جميلة ، إيه ، إيه ، ماذا تقول ؟ راقصة ؟ وهل هذا مرادك يا مشؤوم ؟ وهل ترضى بي ان أكون راقصة ؟ يا ذا الشرف النبيل ، يا ابن الكرام ، يا أخا العلوم والفنون .

عادل ، لِمَ لا يا حبيبتي ؟ فهذا شيء لا يضر بك ...

لدينا سهرة بعد غد علينا ان نقوم بحضورها لأننا مدعوان اليها ، ولسوف أصحبك معي ، فلا تعكري صفو عيشي بعنادك ، إن قلت لك غني فتغني ، أو ارقصي فترقصي ، أليس كذلك يا حبيبتي ؟

جميلة ، ليتني اقوى على انسجامي معك لتوطيد آمالك لهذه المهنة السخيفة ، بالله عليك لا تذكر أمامي ألفاظاً كهذه ، والله انني أفضل ان انتحر ولا أرضى بنفسي ان أسلك السبيل لهذا الأمر المرهون لتمنياتك .

أهكذا تقولين ؟ ولمـاذا يا عزيزتي ؟ هل هو أمر مرهون للنضـال ؟ أم للنبال ؟ إن هذا الامر منوط بي ، وانا أهوى الطرب وأفتخر بسماع أغانيك ولحنك العذب .

وقد حان موعد السهرة ، فجاء عادل يقول : أما علمت انه قد حان موعد الدعوة الي دعينا اليها ؟ انهضي سريعاً وارتدي ثيابك الفاخرة التي تليق بجمالك ، هناك حانة واسعة الارجاء محاطة بالأزهار الجميلة والتماثيل المدهشة ، وليس من احد يدخل الى هذه الحانة إلا عظماء الناس ، هيا بنا واستعدي للذهاب ريثما اكون قد رجعت من الدكان فانني بحاجة الى غرض ضروري هوذا الناس يتوافدون الى الحانة ، دعينا نحتل المكان الأول بين اولئك الجماهير ، ها أنا عائد اليك زهاء عشر دقائق تكونين مستعدة للمسير .

دخلت جميلة غرفة والدتها مسترسلة بالدموع ، فاطلعتها على مراد زوجها عادل وقالت لها .. ان هذا الرجل كالزئبق ليس هو على حال ، لكنه الى أردأ ، فقد تأثرت الأم تأثراً شديداً وحرّضت ابنتها على عدم القبول للتعرض الى سخافة كهذه تلطخ سمعتها وتزري بكرامتها سيا وانه في العصر الماضي لم يكن للبنت ان يعلو صوتها حتى ولا في منزلها لئلا يسمعها احد غريب يشين الناس اسمها حسبهم انها اصبحت من بنات الهوى .

وقد حذرتها امها تحذيراً الا تسير وراءتلك الأهواء التي يصبو اليها زوجها فحزنت جميلة وساورتها الحيرة ، وما العمل ؟ .. وكيف التخلص من هذه الورطة الشنعاء ، يا للشماتة ، يا لنكد الطالع ، وهل من العسر يسر يا رب ؟

الام — انت تستحقين العذاب ، يا من عذبت غيرك ، وخرجت عن طاعة والديك ، وكان لك ما تريدين ، هاك صهرك راغب يعيش مع اختك رندا بصفاء ، وهاك صهرك فايز الذي انحنى تحسراً عليك ، انهما تحمدان الله لأجل الحياة السعيدة التي توصلا اليها ، وأين من حليم وهذا وذاك ؟ فأنا اولى بالشماتة بك ايتها العنيدة المتعجرفة .

ترومين ابن النبل ، ابن العلوم ، لكنه ابن الجنون ، ليس من ورائه الا الفخفخة والشموخ .

يا صاح لا تك بالعلياء مفتخراً ... ان كنت لم تول نفعاً بل ضررا
اني ارى شجر الصفصاف مرتفعاً ... الى العلاء ولكن لا ارى ثمرا

اجاب الرجل – يا للعجب ايها الصديق ، أو َلهذا الحد كان ذلك الرجل سخيفاً حمقاً حتى بادر عروسه بخشونة الفاظه وتهديده ؟ لا لست اصدق .. قال ، نعم نعم ، عليك أن تصدق لانه من الاخلاق السافلة تصدر النوائب ، والحماقة آفة لا تحتمل .

لكل داء دواء يستطب به   إلا الحماقة اعيت من يداويها

دعني الآن اتابع حديثي معك ولا تقاطعني

*

٧

لا تشمتي يا أمي ، لا تشمتي ، فهذا امر موكول به من الله ، وهذه قسمتي في الحياة ونصيبي للمهات ، إنني سأموت ، ولا عدت أرضى الحياة ، لن أذهب مع عادل إلى المتنزهات ، نفسي حزينة ، صحتي سقيمة ، لا أهوى المرح ، ها إن نفسي تتقيأ وجسمي مائـــل الى الانحراف فالوحام أضناني ، والسـهر أودى بي الى السهاد الى الهلاك ، لا ، سوف لا أذهب مع عادل .. لا .. لا ..

ثم بعد وقت يسير رجع عادل من الدكان فوجد زوجته متكئة في زاوية المنزل غير متأهبة للذهاب ، فصاح بها صيحة الذعر ، وقال أحتى الآن لم ترتدي ثيابك ؟.. إعلمي انك إن لم تلبي طلبي سريعاً فستلاقي حتفك ، هوذا مسدسي فوق رأسك ، ولا لوم عليك إلاّ من نفسك ، فأنا لست بسائل عن ملام أحد ، هيا بنا الآن للمسير فقد فات الوقت ..

في تلك الساعة نهضت جميله لترتدي ثيابهافوقعت على الأرض مغشياً عليها بسبب الذعر والرعب ولسبب الغثيان الذي يحدث من قبيل الوحام ، أما هو فلم يشعر بألمها ، فنسبها الى الحيل ، فصاح بها ثانية ، ويلك من نقمتي أيتها الداهية المشؤومة ، أنت تحاولين العناد فتأبين مرافقتي ، فمن أنت تكونين حتى تتفوقين علي ؟ وتقاومين مآربي ، تباً لك أما عرفتحتى الآن منأكون أنا ؟.. هاتي يدك وهيا بنا للمسير ، كوني على ثقة أنك أنت في قبضة يدي ، ورهينة إشارتي ، وعليك إطاعة أوامري ، فلا تعانديني ولا تبطئي المسير..

رضخت جميلة لأحكام زوجها ، فتأبطها وأخذ يجول بنظره إليها متصنعاً الإخلاص ، متملقاً بعذوبة ألفاظه ورقة أحاديثه ، فقال لها ، أما تحبينني يا جميله ؟ يا فتاتي ، يا جميلتي ، يا حلوتي .

أجابت ، نعم أحبك ، كيف لا وقد أصبحت أنت شريك حياتي،وليس من أحد غيرك يشاطرني حياتي في السراء والضراء ، ولكن لماذا تكدرني بفظ كلامك وهل أنا مخطئة بحقك يا عادل ؟.

أنت لم تخطئي بحقي يا عزيزتي، ولكن يوجد بعض الآلام في رأسي تضغط على أعصابي فتثير بي الهيجاء ، فسامحيني يا حبيبة ، ولا عدت تسيئين الظن بي .. عزيزتي ، يا حبيبتي ، أنت سلواي ، ورجاء حياتي ، فاقبلي مني الآن نصائح زوج لزوجته ..

نحن الآن في الحياة واحد ، وقلبنا من التزويد زاهد ، أنت تشكين من ألم الوحام ، وأراك زاهدة في الدنيا ، بعيدة عن المرح ، وأنا أشكو الصداع في رأسي فتؤلمني أوجاعي خصوصاً حينما أذهب إلى المصرف وابتدىء بالأعمال الحسابية فكأنني أشعر أن صداعاً ينخر صدغي فأصبح كالمتمغص الكسول ، ولا اعلم كيف التخلص من هذه الآلام التي تعارك مسلكي وتعرقل عملي ..

ذعرت جميله للأمر الواقع فقالت له .. ولِمَ لم ترِ نفسك للطبيب فيصف لك العلاج الناجع ؟ أجاب بكل تأثير إنني تعالجت مع عدة أطباء ولم يعثروا بي على علاج مفيد ، فلذلك ترينني أصبو إلى الملاهي والمقاهي لكي ألهو بنفسي من شدة آلامي، أما تشعرين بآلامي يا عزيزتي؟فأنا وربي،أنني عندما ترقصين أو تغنين تروحين عني عناء الألم والصداع الذي يؤلمني وأسلو هموم الدنيا كلها .. أمرنا موكول لله ، فلا تيأسي ولا تغضبي ، ولا ترفضي زهوة زملائي، فهؤلاء كلهم طغمة ثراء نستمد من ثرائهم أموالاً وافرة، ونعيش حياة زاهرة ،لا عاش البؤس ، ولا كان الشقاء ، قري عيناً يا حبيبتي ، ها قد وصلنا الى الحانة..

وصل عادل مع زوجته حيث كان أصدقاؤه بانتظارهما ، فنهض الجميع

للتحية مرحبين بالسيدة جميله ترحيباً ، ثم جلس الجميع أمام مائدة الخمور كالمعتاد والفرح ملء قلوبهم ، أخذت الموسيقى تضرب ، وأوتار العود ترنّ بالتقاسيم ، وابتدأ الرقص والطرب يدور على أنظارالجالسين .. وهتف الجميع باسم جميله لكي يدفعوها للرقص ، أما هي فأبت إلا ان تلازم الصمت ، ولم تبال بالهتاف .. فاستاء عادل وضمر لهـا الحقد في قلبه

وبعد ان رأى انها نبذت كل تملقاته ومداهناته فقد نوى نية الشر عليها، لكنه دام ضاحكاً طيلة السهرة ، كان يشزرهـــا بأطراف عينيه شزرات الغضب ، وما ان حان موعد العودة الى منزلها حتى أقبل كلاهما بقلب كمود ونفس سئيمة ، ولحينه شرح عادل يشتم زوجته ويسبها سباً ناسباً إياهـا الى الغباوة وقلة الذوق ..

وما ان جاء يرفع يده عليها حتى تألبت عليه وأخذت تندد به قائـلة ، أنت لست على حال أرجو منك خيراً ، أجل ، فقد تهت في الظلمة ، أيهـا الجاهل وأنا سائرة وراءك ، وأخيراً لأجـل ملذاتك فتحت بوجهي أبواب العار .. دعوتني للاختلاط العلني والمساهمة في الحفلات الراقصة ، وأخذت تجبرني على الرقص في الحفلات ، وتورطت في أمور كثيرة ، ففقدت توازنهـا ورزانتها ، ونسيت واجبها تجاه الاسرة العائلية .. فأنا لا أرضاك زوجاً لي فيما بعد ، وللحال أسرعت إلى منزل أبيها وأطلعته عمـا دار معها من أمور عادل وتصرفاته الخلاعية وإكراهه إياهـا على الرقص والغناء في الحـانات والملاهي ..

فلما سمع الوالد سالم هذا الكلام غشي عليه حتى أنه كاد يفقد رشده ، فقال لها ، عفوك يا ابنتي ، فأنا أشكر لك مبدأك الحسن وتصرفاتك الجليلة، ولكن تفٍ على شاب كهذا يدعي النبل ، والعلوم ، والمروءة ويلوي بزوجته الى الرقص والغناء ..

تباً له من جاهل غبي ، قليل المروءة ، عديم النشاط .. لا يا ابنتي ، لا تتبعي آراءه ، فهو وغدٌ لئيم على ما يظهر .. فإذا كانت هذه بدايته فماذا

سيكون من نهايته ؟.. لا تقنطي يا ابنتي ، سلمي أمرك لله ولازمي منزلي ، فأنا والله لا أرضى من عادل هذا العمل الخلاعي ، ثقي يا ابنتي انك الآن أصبحت شبه وحيدة في منزلي .. أخواك عني بعيدان ، وأختاك رندا وسميره لا بأس من حياتها فليس لك إلا ان تلازميني بدراية أمك وأنا مستعد أن أقدم لك مهما تريدين ، وعلى ما يقال بلسان العامة .. (أقدم لك لحم أكتافي) أنا ربيتك على القداسة وطيبة القلب ولا أرضى منك البتة أن تخضعي لأمر الخلاعة والسفالة .. اطلبي مني ما تريدين فأنا أقدمه لك ، ولا تكوني يائسة ...

ان دعائم الحب التي ضمت كلا القلبين بالانشغاف الزائد والتعشق البليغ قد انهارت وتبدلت الى فتور ، بل الى كراهية .. فكأنما جميله عندما تبين لها والدها بالعطف والحنان وتقبلها بكل جوارحه ولم يتلفظ لها بكلمة شماتة لم تعد ترضى ان تعود الى زوجها ثانية .. أولاً فإن بادرة الرعب التي بها لما صوّب مسدسه عليها أرعدت فرائصها حتى أنها لم تعد أمينة منه ، وثانياً لم تعد تجد حيلة للانسجام معه بالأمور التافهة التي لا تقوى عليها بالقوة الفعالة..

وعليه فقد لازمت جميله منزل أبيها وخضعت لأوامره بملء خاطرها مبرهنة لديه الندم الكلي الذي قامت به على عصيانه ، لأنه في حال قضيتها تبرهن للوالد سالم ان عادلاً لم يخدع حمويه وزوجته فقط ، بل كان يخدع نفسه بمحاولته الفتور عن العمل ، ولم يكن إذ ذاك مريضاً ، أو مصاباً بالصداع كما يدعي ، لكنه لم يكن الا خداعاً ، مكاراً ، محتالاً (داهية) لم يستفد من علومه سوى السفسفة والخلاعة والدعارة ، وكان السبب في ذلك التهامل في أمر تربيته التي نشأ عليها من قبيل الدلع والغناج اللذين سارت عليهما الأم لانطباع ابنها الوحيد الذي أطلقت له العنان لتتميم مآربه وتمنياته، هو شاب نبيل ، ابن أسرة عريقة ، لكن محاسن نبله توارت في سخافة عقله.

ما وهب الله لأمرىء هبةً	أفضل من عقله ومن أدبه
هما كال المرء فان فقدا	ففقده الحياة أحسن به

بهت سالم متحيراً لهذه الصدمة الصارمةالتي انهالت على سجايا ابنته وسببت لها السقم والنحول ، وحزنت نفسه للبلية التي أوقعتها في شركة السيئات ، ولسوف تحرمها لذة الحياة ، سيما وانه تبين لديه ان العيشة مع الصهر عادل لا تحتمل ولا تطاق ، وعبثاً تحاول جميلة تتميم مآربه والانضمام اليه ثانية، والمثل يقول : ان لم يكن وفاق ففراق .

ولما كان حنان الوالدين يتغلب على غضبهما لم يكن اذ ذاك الوالد سالم ليضطهد ابنته او ينتقم منها باية كلمة فظة لسبب العصيان عليه ، بل انه وبعكس ذلك فقد ازداد تعطفاً وتلطفاً بها لانه عاين فيها الصواب والآداب والمواظبة على السيرة الحسنة التي نشأت عليها برعايته من قبيل التربية الصالحة التي قام بها ، فأثنى على فضيلتها وعفافها ، وادخلها في حوزته مقدماً لها كل ما يليق من دواعي العطف والحنان .

خجلت جميلة عند ذاك وشعرت بالندم الكلي لمقاومة ابيها التي اودت بها الى الهلاك . فاعتذرت منه مستغفرة وتقدمت لتقبيل يديه وأقرّت له بغلطها فقالت له : انت تعلم يا ابي ان الجهل قهار ، والدهر غدار ، والجهل مطية من ركبها ذلّ ، ومن صحبها ضلّ ، فأنا وحقك يا ابي فقد استنكفت الجهل ، ورفضت الجهل رفضاً ، لكنني لم اعرف حتى الان ، اذا كان ذلك هو دعوة من الله ام من الشيطان ، فاشكر الله الذي اوجدني بين يدي والد كريم حنون نظيرك . هل تراني يا والدي أروم الحياة فيما بعد ؟ كلا ، لعمري ، فأنا قد زهدت الدنيا بأسرها ولا عدت ارغب البقاء فيها .. وقد بت الآن بين يديك ضحية الاسى ، فهذه قسمتي ، وهذا نصيبي ، وليس لي بعد الآن الا ان أجثو امامك يا والدي واقبل يديك ثانية ، بل رجليك .. سامحني يا والدي بالله عليك ، سامحني .

تراني اردد قول الابن الشاطر الذي انبأنا عنه السيد المسيح في انجيله الطاهر كيف رجع نادماً مستغفراً والده فذبح له العجل المسمن واقتبله فرحاً حين قال له : أخطأت يا ابت في السماء وقدامك ولست مستحقاً ان ادعى لك ابناً بل

اجعلني كأحد اجرائك .

وانا الآن يا سيدي وأبي فلأحسبن نفسي اجيرة عندك ، وعميلة تحت رعايتك ، لانه لم يعد لي بعض الامل ان اعيش مع عادل وانهي حياتي معه .

بكى الوالد لكلمات ابنته فضمها الى صدره وقبلها تقبيلا وقال لها :طيبي قلباً وقري عيناً يا ابنتي ، فأنا بكليتي اتقدم لكل حاجة تطلبينها مني طالما انا في قيد الحياة ، لا بأس من امر عادل ، فهو لم يخدعك انت فقط ، بل خدعني انا ايضاً حينما لم يقدر احد قبله ان يقوى على مخادعتي البتة ، فالانسان مجرب والصبر اولى بنا .

ان الامور اذا اشتدت مسالكها   فالصبر يفتح منها كل ما رتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه   اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

لا شك انه وقد تبين لدي يا ابنتي من بادىء ذي بدء ان الحياة معزوجك عادل عبثاً تحاولينها ، وانا والله لست بساع لانفصالك عنه ، وليس لي الفخر ان تعودي الى بيتي واتلقى من وراء قضيتك هزء الضاحكين،واقوال الشامتين ومع ذلك فهذا كله لا اعيره انتباهاً ، ولم يكن هو الامر الذي يزعجني اكثر من ذل الفضيلة والانقياد الى الامور التافهة التي جاءت بنا الى قول الشاعر :

لا تقعدن عن اكتساب فضيلة   ابداً وان ادت الى الاعدام
جهل الفتى عار عليه لذاته   وخموله عار على الايام

فحسبك الآن يا ابنتي ان تفعلي ما تريدين ، انت اصبحت سيدة نفسك ، لم يعد لي علاقة بتربيتك فيما بعد ، عظي نفسك بالتصرفات الطيبة التي انت سائرة عليها ، ولا تخشي عقبات الدهر .. وفقك الله الى كل عمل صالح ..

كان الصديق مسروراً لسماع الحكاية التي لم يقف على مثلها من قبل ، فأعجبته خطة الوالد سالم وعنايته بانضمام ابنته اليه ، وشكر له فضيلته .

٨

كان عادل جالساً على كرسي وراء الباب بعدما فرت جميلة من بـين يديه ونفدت إلى دار أبيها ، فكأنه كان يصغي إلى كل كلمة تصدر من فيهـا إلى أبيها ، ولكنه لم يعبأ بأقوال أبيها التي نطق بها من فيه إليها زعماً منه أنه لا شيء يمكن ان يفصله عن زوجتـه ، سيما وانهما قد ارتبطا بعقائد المذهب الكاثوليكي البابوي الذي لا يسمح بالطلاق ، وإنه لشدة إعجابه ببأسه كان يحسب ان كل الاقوال الذي تفوه بها الوالد سالم وابنته ، والاحـاديث التي احتجت بها هي معه لم تكن أكثر من كلام فارغ .

هجم لساعته ونادى بأعلى صوته . يا جميـلة هيّا الى منزلك وإلا قتلتك بقبضة يدي .

أجابت جميلة بصوت ملؤه الذعر ، لا ، لا أدخل المنزل طالما انت فيه ، وليس لي بعد الآن أن آكل خبزي معك ما دمت تغريني وتحتال علي بتذليل حياتي ، لا ، لست احبك ، ولن احبك فيما بعد ، ولا ارضى ان تكون زوجاً لي ، فقد نبذت الرجال . وأفعال الرجال :

تباً لمن يمسي ويصبح لاهياً ومرامه المطلوب والمشروب

أجاب والغيظ ملء عينيه ، صه ، صه ، ايتها اللئيمة ، عما قليل سأريك أفعال الرجال ، ليتك عرفت ماذا سيكون من أمر عصيانك علي . فلو أنني عرفت ما أنت عليه لما كنت تزوجتك ، دومي الآن في منزل والدك ، فأنا والله لست بسائل عنك .. لا ارجعك الله إلي ..

أما الأخت رندا وزوجها راغب اللذان يقطنان إزاء جميلة ووالديها فقد انشق قلباهما لذلك العمل السيء، وحزنا جداً لمناقمة الأخت المحبوبة ، لكنهما انبعثا يسعيان وراء الاتفاق والرضا حتى أفضيا إلى الرأي السديد لمعاهدة الصلح بين جميلة وعادل ، بيد ان رندا لم تشأ بملء خاطرها معاهدة الصلح لأختها مع زوجها لأنها وقفت على حقيقة مزاياه وتصرفاته غير اللائقة التي خاض فيها معركة الشهرين وهو يزداد احتيالاً وتشبثاً في آرائه واخلاقه ، وإنه يستحيل اتفاق اختها مع زوجها على النسق الذي يمثله ، وعبثاً محاولة إقناعها ...

أما رندا فلم تتجاسر أن تنبس ببنت شفة علماً منها انها هي التي وقفت ضد والديها وشجعت اختها على الفرار إلى بيت خالها ، كانت تتأثر لحالة اختها وتلطم خديها بالاسف الشديد لتلك الواقعة الرزيئة ، كانت تكظم الغيظ بنفسها وتتحمل ثقل الجدال والمماحكات المتواصلة التي كانت تدور على سمعها من مناقة الصهر عادل لاختها ...

أما الصهر فايز زوج الاخت سميرة الذي كان هائماً بحب جميلة فرفضته مضى مسروراً ضاحكاً مستخفاً وطأة الامور الطارئة ، وقد أعجب بنفسه للنجاح الذي أقبل عليه لمشترى الملك الذي اقتناه ، وعاش هانىء البال مع زوجته كما ذكرنا ..

فيوماً من ايام الربيع الزاهرة خطر على بال فايز ان يزور حمويه، فحمل بين يديه هدية تليق بمحبتهما ، وما إن وطىء فايز عتبة الباب حتى قفلت جميلة راجعة وجلست في زاوية المطبخ وعلامات الكآبة بادية على محياها ، فبعد ان قدم الهدية الى حمويه وابتسامة الشماتة ملء شدقيه جاء مفاجئاً الى المطبخ وأشار بالتحية إلى جميلة وقال لها : السلام عليك يا ابنة العم ، كيف حالك مع ابن العلوم ؟ عساك تكونين مبسوطة بعلومه ؟ ..

صمتت جميلة ولم تحر جواباً ، واغرورقت عيناها بالدموع ، فقال لها تكلمي ، مالك صموتة ، فهذا ليس من عاداتك ، أفلا يطيب لك الفرار

من وجهي فيما بعد ؟ .. أما تذكرين حليماً الذي ذاق مرارة التحسر لحبك أما تذكرين ماذا كتب لك ؟ . تلك الجملة الراهنة لمصيرك ،

حقاً انك اضعت نضارة شبابك بانحيازك عن الوجهة الصالحة التي كانت تغمرك بالرغائب الصادقة ، وليس بالوسائل الخداعة ..

ها هو حليم قد تزوج من فتاة حسناء ، رزقه الله البنين والبنات وحياته مرموقة بالهناء والرخاء ، وطيب العيش . انهضي الآن وحيي الحبيب الاول الذي كان يتمنى رضاك ، وهات يدك يا اخية وصافحيني ، فانا والله ما زلت اغار عليك وأهوى الارض التي تمشي عليها ، ها انا الآن قد تزوجت من اختك وهي هيفاء ، حسناء مثلك ، ولولا ذلك لم تزوجتها ، فهي شبيهة بك ، ولا فرق بينك وبينها ...

هاهي الآن قد وصلت ، انهضي وقبليها ، وضمي ذراعيك على عنقها فهي لا تفتر عن ذكرك ، وقلبها يتقطر دماً لتعاسة حظك وللمغامرة التي أقبلت عليها ، سامحيني يا أخية ، فقد طعنت بحقك ، وبالغت بالذم عليك ، وأنت لا تستحقين الذم ، لكن قلبي المتألم قد تفوّه بالغضب إنني أثني على فضيلتك وآدابك ، وأثني على والديك اللذين ربياك التربية الصالحة ، فصمدت بوجه تيارك ، ونزعت عنك قارعة الخلاعة ، ورهنت نفسك للضنى والمناقمة ، فلا تيأسي يا أختاه ، دعي الأوهام على حدة ، ولا تأبهي لهول الرزايا ، فالدهر غدار ، وأمر الزواج سرّ مكتوم منوط به من الله عز وجل ، ولا مندوحة أن ما أصاب الانسان من فرح أو كره فهو منه ، وكما قال القرآن الكريم ، إن ما أصابكم في حياتكم فقد كتب لكم ، ولا ريب فانك تؤكدين يا ابنة العم أن هذه الأمور ليست هي إلا قسمة من الباري تعالى ، إذ يقول في كتابه المقدس ، إن ما جمعه الله لا يفرقه انسان ..

إنما التفرقة لم تأتِ إلا من أسباب التهتك والطغيان وعدم انسجام الزوجين في النظر للأمور التي تختلف بالنسبة ما بين الصالح والطالح ولهذا الموضوع شتى أقاصيص تدور في أحوال الناس لا يعرف لها بداية ولا نهاية ،

وكلها منوطة بالقسمة والنصيب ، أو بالأحرى نقول ، كما ذكرنا أن ذلك هو تدبير من الله .. ليس لنا إلا الصبر على تحمل النكبات ، فما دمت انت ملازمة خطتك التي انت سائرة عليها .. فدومي طويلا ، أبداً لهذه السيرة الحسنة لنفخر بك والله ولي تدبيرك ..

فبعد أن وصلت سميرة نهضت جميلة لمقابلتها فقبلتا بعضهما وجلس الجميع على المقعد في الدار الفسيحة وأخذوا بالتحدث ، ثم وجه فايز حديثه ثانية الى جميلة فقال ، دعينا الآن نجمع آراءنا لتدبير هذه الطارئة التي أتت عليها لان الواجب يدفعني أن أقدم لك كل خدمة تلزمك ، وأنا حتى الآن لم أكره النطلع الى وجهك الذي أصبح ذبولاً ، وجسمك الذي بات نحيلاً ، وزهوتك الزاهرة التي كحلها الظلام وسقمتها الآلام ، وأراك في مراحل الوحام تغامرين الزهد في الدنيا ، فكأنك مع كل تلطفات حديثي معك لم تعيريني انتباهاً .. وأراك سابحة في بحر التخيلات ، لا افترار لثغرك ، ولا ابتسامة من وجهك العبوس ..

بكت جميلة بكاء مرّاً وتلهثت تلهث الألم لسماع حديث صهرها الذي لم تكن تأمل منه ان يتقدم لها بخدمته الوفية وحنين عواطفه التي أبداها نحوها فقالت له ، أشكرك وربي على حسن مقالك وجبر المكسور ، لكنني فأنا والله لأحسبنّ نفسي فتاة عذراء نذيرة لله ، أتوق للعبادة ولو لم أكن حاملاً لدخلت الدير ..

انني أشعر بزهد الدنيا ونفسي حزينة لا تتوق للرجال ، أقول لك يا أختي ، يا سميرة ، إنني بعد أن ألد الطفل سيكون لي نية صافية لأسلّم نفسي مع الطفل الى أحد الأديرة وأكفّر عن خطاياي ، وأرمي ولدي بين روح القداسة والتقوى ، صبياً كان أم بنتاً ..

فلما سمع الوالد سالم هذا القول من ابنته ثقل عليه سماعه كأنه سهم من نار فاضطرمت أحشاؤه بالعطف الوالدي .. فقال لها .. ماذا تعنين يا ابنتي

بكلامك هذا ؟.. ولِمَ تتلفظين هكذا ؟ أتدخلين الدير ؟.. ولماذا ؟ وهل أنا قاصر عن إعالتك مع الطفل ؟ وماذا إذاً ؟ أتشعرين بثقلة مني الى ولدك ؟ فأنا وحقك لا أرى أقل ثقل لهذه الوجهة ، لأن طفلك سيصبح طفلنا ولنا حق التربية عليه ، قلت لك ، ارتعي في منزل والدك وتحت رعاية أمك ، ولا تهتمي بأمر يداهمك ..

هبت جميلة واقفة فقبلت يد والدها وصافحت اختها سميرة وصهرها بالقبلات الحارة شاكرة لهم تلطفاتهم معها وغيرتهم عليها وشعورهم بحزنها العميق ، وفي نفس الوقت وتلك الساعة التي فيها كان التحدث يدور مع الجميع عن شؤون الأمر المتدرج لديهم ، اذا بالأخت رندا تقفز من منزلها الى منزل أبيها ، فلما وقع نظرها على أختها تبكي اشتعلت النار في احشائها ، فقالت لها :

أختي ، أختي ، أنا لك وأنت لي ، إنني مع صهرك نطلب رضاك ، كوني على ثقة أننا نأبى استياءك من أمرٍ ما .. فأنا وصهرك أولى بك وبما تطلبه نفسك الأبية ، أنت تسيرين سيرة حسنة وترفعين فخرنا بحسن تصرفاتك الأدبية ، فعلينا أن لا نتغفل عنك ، نحن قوم جهاد ، لا نفخر بالثروة والغنى ، بل نروم الصلاح والفلاح ، والخير والنجاح ، وكفى أن تكون سيرتنا حسنة تجاه الداني والقاصي ..

فلا يجدر بنا أن نلقي آمالنا فيما بعد على قبائح زوجك وإغراءاته وتعجرفات أمه وأخته .

جميله ، وهل تظنين أن أمه وأخته ترضيان التورط لهذا العمل يا أختاه ، لا لعمري ، لست أظن أكثر من ان أمه خدعته فربته بالدلال والغناج لأنه وحيدها ، ولم تطأ كلامها معه وراء طاعته لها ، فبعد أن بلغ سن الرشد وقد التحق بزمرة من أهل الفساد وتابع خطاهم ، ولا أشك في أنها كانت موطدة آمالها عليه لتلقينه الدروس المفيدة فضلاً عن ثبوت الخطة لتعليمه

المهنة المذكورة ، ولم يكن له إلا اليسير من الوقت بعد أن ترك المدرسة وقد احتاط بزملائه تلك الزمرة التي قادته إلى الملاهي والمقاهي .. ولا ريب فإن أمه وأخته لو عرفتا شيئاً عنه من هذا أكدي أنهما لا ترضيان بـه .. وأما إن تكونا فخورتين به ليس إلا على الشأن المراد به تنفيذ نجاحه لمستقبل زاهٍ يسمو به .. وسيما المباهاة بـه لحينه (في ذلك العصر) لم يوجـد شاب متعلم .. وإذ وجد أعني به أنه أسعد الناس رتبة ، ورقياً ، ومباهاة .

الاخت رندا .. دعينا الآن من هـذا الموضوع وهلمي إلى بيتي فتقيمين عندي شهراً كاملاً ، ولا شك فإن صهرك راغب دفعني إليك لهذه الدعوة ، هناك ايضاً خالك وعائلته يلتمسون رضاك ويتمنون وجودك معهم ، وكلفوني أن أدعوك إليهم ..

الصهر فايز .. ولماذا لا تعيش معنا وتحيا في أرجائنا المتسعة حيث يكون لها غرفة خصوصية فتصرف معنا حياة نسبية لا يشوبها زغـل ، ولئن تكدرت مني يا عزيزتي وصددت ودادي ، فأنا وحقك لم أضمر لك البغض إلا بعد أن أبغضتني وذوّبت جوارحي لحبك ، وقد سرّني أن أنتقم منـك وأسبب لك أضراراً . أجل ، وقد فعلت ذلك عن جهل وليس عن تروٍّ في أفكاري ، وأنا نادم على عملي مثلما أنت نادمة على عصيانك لأبيك ..

أما الآن فبعد أن تبين لدي حسن تصرفاتك وتغلبك على أطوار الزمن فصار من حق الواجب علي أن أحترم عملك وأقدس مزاياكِ التي تتحلين بها .

أجابت جميله .. إنني شاكرة لكم بكل جوارحي ، وسوف لا أنسى لكم هذه العواطف الشريفة ما دمت في الحياة ، إنما فاعذروني يا أهل قومي ، يا أهل ودادي .. يا أحبتي .. فأنا سابقى هنا ملازمـة منزل والدي ما دمت حاملاً ، ومتى انتهى يوم الولادة وكنت يومذاك من صاحبات الحظ السعيد ومنّ الله علي بالنجاة فلا بدّ أن أسلّم الولد للراهبات وأدور بنفسي مفتشة عن أي عمل أتعاطاه في منزل أحد الأساتذة أو في دور الاثرياء الذين

يحتاجون إلى شابة مثلي مساعدة للطبخ والكوي وما شاكل ..

صمت الجميع وكانوا معجبين من نشاطها وصفاء نيتها، ولا غرو إن قلنا أن جميع الأنسباء آزروها بالحنان وعطفوا لمحبتها عطفاً بليغاً ، أولاً لخفة روحها وذكائها ، وثانياً لأنها أضحت كسيرة القلب لوقوعها في ذلك المأزق الحرج ..

قال الرجل ، حيا الله الاخوة والأخوات والانسباء الاحباء ..

أخاك أخاك إن مَن لا أخا لهُ كساعٍ الى الهيجا بغير سلاحِ

*

٩

أما عادل فبعد أن فرّت زوجته من يده ولجأت الى منزل أبيها دون أن تنوي الرجوع إليه فقد طار عقله من رأسه وأخذ منه اليأس مأخذاً إذ لم يجد تأثيراً للحيل التي جاء بها لإغرائها ، فراح يتنازع بعوامل مخيلاته حسبه أن أمه وأخته قد رفضتاه بعد أن كانتا خادمتين لحسابه . فأبتا دخوله إليهما ، سيما وإنها بعد أن كانتا تبغيان رفعةمركزه لتزدادا فخراً به فقد خابت آمالهما إذ كان قد تبدّل من الآداب الى الأسباب : نعـــم والى شتى أسباب ، مثل الميسر ، أو شرب الخمور في الحانات ، أو بالأحرى الذهاب الى الملاهي التي لا طائل تحتها ، فتجاوز حد الآداب ، وشطر جناح السؤدد لاتباعه تلك الزمرة التي احتاط بها .

تلك الطغمة الغراء التي تتزيا بالملابس الفاخرة ومن داخل ذئاب خاطفة ، ولدي اقترافه مآلم الظلم لزوجته والمعاملة التي عوملت بها من قبله حسبما يسمع عنه لم تكن أمه وأخته تتمنيان له تلك الحياة التافهـــة ، فانتزعت محبته من قلبيها حتى أن خياله غاب عن ذهنيها،فخلفتاه يائساً متحيراً متخليتين عنه .. عند تلك الحالة وقد انبرى عادل مكسوفاً بعمله لأنه قد نفدت منه محبة أمه وأخته وزوجته ، واصبح وحيد نفسه يضرب اخماساً بأسداس ، فحـــاول اتفاقية الصلح مع زوجته ، لكنه لم ينجح لأنه كان قد سبق وسالمته مراراً عديدة وهو ما زال على غيه تارة يملقها ويداعبهـــا ، وطوراً يهددها بوعيد غضبه حتى ان آمالها انهارت في وجهها فأسفرت حتى عن كره الحياة كلها

وكأنها لم ترَ في عينيها سوى الدنيا غمامة سوداء لأنها لم تكن تتمتع ولا بذرة من وعود عادل معها .. هو الجهل الذي كان يتمرغ به فقد أودى به الهلاك زد على ذلك ، فإنه عوضاً أن يجهد لتحسين اعماله واصلاح اخطائه باستعمال سلوكه لإرجاع زوجته إليه راح يطوي لياليه في الحانات والمقاهي ولا يعود الى فراشه قبل منتصف الليل أو بعده، أو بالأحرى الى بزوغ الفجر ، ثم ينهض من نومه متى يطيب خاطره فيذهب الى عمله في المصرف متوعكاً مدّعياً أنه مريض ..

ودام على هذه الحالة نحو الثلاثة اشهر كانت خلالها جميله أليفة منزل أبيها في أغلب الأحيان ، وعند تطلعها الى تلك المزايا التي التحق بها ، انتزعت حبه من قلبها انتزاعاً ونبذته نبوذاً ، حتى أنها نبذت حب الرجال لأجله، فشقت طريق التعشق والغرام ولجأت الى العفة والعبادة لله ، وتقدمت بنفسها الى التنسك فأقسمت بحب الله ألاّ تهوى غيره سبحانه وتعالى عزّ وجلّ .

كانت تحسب نفسها سعيدة بعد أن رماها الله في وهدة اليأس ، حسبها أنه قد أدّبها بإنزال سخطه عليها فانتزع الكبر من نفسها، وأكدت أن علة الزواج وعقدة النفس فيها لهي أصعب من الداء العضال الذي يحول دون الشفاء .

فلما أصبحت شديدة التمسك بالعبادة ، أقنعت نفسها أن تلك المناقمات التي تورطت اليها لم تكن إلا علة لانحطاط آمالها من التمتع بلذات الحياة واللجوء إلى من جاء بها إلى مشيئته تعالى، ولما كانت تردد على افكارها قول النبي داود (إن من احبه الله فقد ادبه) كانت تنفي عن روحها الميول النفسانية والاهواء الجسدية ، فجعلت لها العبادة ديدناً في أوقات الفراغ عن العمل حتى إنها لم تكن تفتر عن العبادة في أي وقت تندفع اليه ..

الوالد سالم ، كفاك عبادة يا ابنتي ، المثل يقول ، ساعة لك وساعة لربك : تعالي بالله عليك ، اجلسي امامي ، أسمعيني لحنك الطروب ، ها قد مضى على الزمن وقت طويل ونحن في حالة اليأس ولم أسمع من ألحانك ما يروح عني عناء التعب هيا إلي يا ولداه ، كفاك انزواء في زاوية المنزل .. وهل

أنت خلقت للتقهقر والهوان؟ لا يا ابنتاه ، فأنا وحقك كل مـالي بين يديك. تناولي مني الآن ما تريدين من أجرة أتعابي للأسبوع الكامل فاني اقدمهـا لك عربون المحبة الابوية ، ولي مجموعة من المال محفوظة في الخزانة ، فاطلبي مني حاجتك ولا تيأسي والله ولي امرك ..

جميلة، ابي، يا سيدي ، انني أرى الدنيا تغمرني بالسرور ، وهل هو نور قد تجلى علي ، أم نفحة من الأزهـار فاحت بين يدي ؟ .. أبي ، بـل أبت انني اخرّ ساجدة امام حنانك،فقد غمرتني بمحبتك والطافك ففتحت لاحلامي الانعام ، واغلقت بوجهي أبواب الظـلام ، فيا سيدي ووالدي ، لعمري ، فإنني لا عدت اهوى النشيد ، ولا التغريد ، حتى ولا القصيد ، فحياتي كلها مرهونة للواحد الأحد .

لكنني رغم انتزاع السرور من نفسي المنسحقة فإنني مـا دمت رهينة إشارتك وأطوع لك من بنانك.. فمرني يا سيدي بما تشاء فانيلك من الطائعات أنت تحب الطرب وقد ابتلاني الله بالكرب ، فلا بأس من أمري ، أما وربي فانني سوف أبذل ما في وسعي لأروّح عنك عناء التعب والشقاء ..

طب قلباً يا والدي ، فقد أحضرت لك النارجيـلة ، أجل ، يا أبي ، فأنا كلي لخدمتك ولطاعتك نفساً وجسداً ، ثم جلس الوالد والابنـة معاً ، والأم كانت تجتاز المنزل ذهاباً وإياباً لإتمام بعض الاشغال ..

فقال الوالد لابنته ، هاتي ما عندك ياه ، واهتفي يا ليل ..

قالت جميلة والضحك ملء شدقيها، اصغ ِ يا أبي فإني اكراماً لعينيك سوف أغني ، ثم رفعت صوتهـا باللحن الشجي الذي تلقنته في زهوة عزوبتها وهتفت يا ليل فاختلج قلب الوالد بالفرح، وكأنها صبت على رأسه جامات الذهب، فاحتضنها بين ذراعيه واخذ يقبلهـا ، وكانت امها مسرورة بها جـداً تراود أعمالها وتزودها الرضا ..

كانت جميلة تدخل أحياناً منزل اختها رندا وقد اثقلهـا عبء الوحام

والغثيان الذي يحدث أحياناً للحامل فازدادت زهداً في الدنيا ، وقد أضناها النحول حتى أنها اشمأزت من التطلع بنفسها في المرآة، وأحست بعقدةنفسية دحضت كل كبر واعجاب فيها ، فرضخت للأحكام الإلهيـة التي ساقتها ، الى الميدان الذي جعلها تقر بخطاياها ..

أما رندا والصهر راغب فكانا يزدادان تلطفاً معها بسرد الأحدوثات الجمة التي تخفف عنها الاوهام المؤدية بها إلى المصير الجازم .. وكانا يدعوانها أغلب أوقات الفراغ لصرف الوقت معهما وترويح الندم الذي ساورها بعض أناملها عما دهاها من غدر الزمان وحكم الأيام ..

أما الصهر فايز رغم أنه كان شامتاً مناوئاً لها فإن محبتها دامت محفوظة في جوارحه نظراً لتبيان نزاهتها وإجلال سجيتها ، فحمد مزاياها لانعكافها على العبادة والتقوى وخوف الله وإقبالها على كل عمل صالح يرضي الجميـع .. أما زهدها في الدنيا فقد بعث في قلوب اللائذين بهـا حسرة شديدة كانت تحثهم للاندفاع الى تلطيف خاطرها برقة أحاديثهم حتى أنهـا اضحت بنظر الجميع كأفخر سيدة بين أفراد العائلة ..

إن الصهر فايز وزوجته سميرة كانا يتقدمان لهـا أحياناً ببعض الهدايا النفيسة لأنهما كانا مشبعين بمادياتها ومترعرعين برغد العيش ..

اما عادل فإن مراحل الانقلابات الثوريـة لاستعباده زوجته والقضايا التي كانت تشمل تمرده عليها قد اعطته صورة واضحة للعصيان عليه وعـدم الاكتراث لقضية الصلح معه ، ويخيل لنا أنه قام بأسلوب رقيق برهن فيـه الاسباب المتوفرة لعقد الصلح مع زوجته متعهداً لها أن تعود المياه الى مجاريها زعماً منه انه لا ينطبق الرأي مع الرابطة الدينية والمدنيـة بأن الزوجين يتأثران بالانفصال عن بعضهما سيما وانهما ما زالا عروسين .. أخذ يتـكلم الى بعض الاصدقاء الاوفياء البارزين الذين له حق الثقـة بهم أن يبحثوا بكل تدقيق عن ميزات المذهب الكاثوليكي الذي لا يحاول الطلاق ولا يسمح بانفصال الزوجين عن بعضهما مهما كلف الأمر ..

وحسبما كان يعرف عن عادل انه داهية ، وانه لا مفرّ لهـا من الأمر ، وانه يتعهد لها أن يكون أميناً مخلصاً ، وفياً ، محافظاً على كرامتها للنهاية .. وكما يقال باللغة الشعبية ، (زمان الأول تحول) .

صاحت جميلة بأعلى صوتها بعد ان تقابلت مع اولئك القوم فقالت ، لا ، لا أيها الكرام ، أرجوكم ان لا تعيدوا عليّ مثل هذا الكلام ، فأنا وربي قد نبذت الرجال ، فنذرت العفة ، ولم يعد لي بين الرجال محدث ولا كلام ، أعذروني ، أتركوني ، ولا تلقوا علي ملاما ، لا يا أحبة ، ارحموني .. فرمت بنفسها الى الارض ،ووقعت مغشية عليها تتخبط بنوبة عصبية كادت تخطف حياتها ، فارتعدت فرائص والديها ، وأخذ الرعب منهم مأخذاً ..فتراكضت اختها رندا اليها بعد ان سمعت الضجة وأخذ الجميع بالبكاء ، فبعد ان اتخذوا لها العلاجات المفيدة فتحت عينيها وهي تنتفض ذعراً ورعباً وتتلفظ بكلمات طفيفة ، لا ، لا أريد العودة الى زوجي ، فهو وغـــد لئيم ، انا نذيرة الله ، إرحمني يا إلهي وساعدني لأتخلص من ورطة الشر .

فلما عاين القوم ما حدث من جراء جميلة بهتوا سيما وانه منذ مستهل حديثهم حتى نهايته لم يتمكنوا من اقناعها واكراهها على موافقة الصلح ..
وقد ارتعشت اعصابهم عند وقوع الحادث الذي برهن عن تأثيرات المـاوىء التي تحسست في جوارحها من قبيل زوجهـــا عادل .. وأوضحت بصريح عباراتها أنها لم تكن على يقين ثابت من ثقتها به لأن عمله الذي قام به معهـا تبين لديها أنه لا شك مستمر به .. وهو في هـذا التطور ربما يتخلل قفزات فجائية تتحول من حدث بطيء إلى نقطة شديدة الانطلاق لوجهة الشر ..

أما أولئك القوم الاشراف فحاولوا تعللهـــا لاسباب المخاوف ، بيد انهم قرروا لها التأمين لرغد العيش وراحة البال ، وعدم التطور للأعمال الفادحة ، وتعهدوا لها تعهدات وفية مخلصة ...

أما البعض منهم فأكد أنها كانت على قسط كبير من الحـذر لفكرتهـــا

الواسعة الوافية ، ثورة الظالم على المظلوم ، والمستعبد على المستعبد » بل ثورة الرجل على المرأة ، فنفرت منهم بكل ثورتها ، وبكل تيقظ وتحذر رفضت اتفاقية الصلح ، وأبت إلا أن تبقى ملازمة والديها ، متحفزة برضاهما .. ولاجئة إلى الاله القويم لتدبير امورها ..

وقد فشل القوم الاجلاء بتدبير القضية المكلفين بها من عـادل ، فرجعوا خائبين مخبرين اياه عما جرى لزوجته من الاضطراب والانزعاج لدى سماعهـا قضية الاتفاق

أما عـــادل فاسفر عن كل الامور التي هي ذات اهمية ، دون المهمـة التواكلية التي يسيطر بها على زوجته لتنفيذ الأوامر التي يناشدها حسب زعمه أن للمرأة حق الطاعة للرجل ، وعليها ان تعيش معه حسبما تقتضي ظروفه ، فأصر على العناد محاولاً عودتهـــا إلى منزله بالقوة الفعالة « أكانت وسيلة بالمراوغات » « ام المداهنات » أم التعهدات ، أو بأي أسلوب كان لا بدّ من إنجاز قصده ولو بحالة من الحالات .

قال الرجل ، يا للعجب ، بـل ويا للفظاعـة ، ترى من يكون هو ذلك الرجل الغدار ، الداهية المكار الذي استبدل الفنون بالجنون ، ويحق لزوجته النفور منه والابتعاد عن التحاقه بالأمور التافهة .

*

١٠

راح عادل يشكو امره للكاهن الذي كلله ، فحرضـــه الكاهن على العمل الصالح الذي يعود بالخير على الحياة الدائمة بالسكينة ، والهدوء ، والهناء .. فأخذ يختال أمام الكاهن المحترم الذي كان قد فهم بعض الشيء عن أخـلاقه وتصرفاته السيئة مع زوجته ، فانحنى أمامه مقبـــلا يديه ، وأخذ يتعهد له بتنفيذ الاوامر التي يفرضها عليه بموجب قانون المذهب المسيحي .

لم يندفع الكاهن بكليته لتطبيق القضية الجازمة المكلف بها بحكم الضرورة، ففي صباح اليوم التالي قبيل بزوغ الشمس المتلألئة بتبر الشروق ، عمد الكاهن لزيارة الوالد سالم للتحدث معه بقضية ابنته ، وكان يوم عطلة ، تناول الحديث حضرته مع الوالد سالم وزوجته ، وبعد ان رحبوا به جميعهم أحسن ترحيب إجلالاً لكهنوته ، وإكراماً لزيارته الاولى .. فبدأ يشرح لهما قضية الاتفاق المشار اليها ، وأخذ يدافع بكل حماسة لمضـــادة الأجوبة الرفضية التي تثير الضغـــانة وتهيج السخط . وحاول بكل ما تعينه نفسه لانضمام الزوجين والتئامها بالحياة الروحية التي ينبغي أن يسعيا اليها ويسيرا وراءها . وشرع ساعتذاك يتفوه بلسان عادل بالتعهدات والمواعيد التي أنذره بها .

وبناء على ذلك دعا اليه جميلة وأخذ ينذرها ويركز عليها بأمثال الانجيل، إن ما جمعه الله لا يفرّقه انسان . وقد حتم تنفيذ أوامره وآرائه بالرقـــة واللين ، اما جميلة فلم تتفاءل بإنذار الكاهن ونصحه ، رغم ان كلمته كانت

في الماضي شبه كلمة الملاك النازل من السماء ، فأجابته بكل احترام ووقار : « إن هذه النصائح حفظتها منذ ولادتي ، ونشأت على فضيلة أمي وأبي اللذين ربياني على الصلاح وجلّ الاعمال ، ولا غروَ إن كنت تراني نحيلة هزيلة أيها المحترم ، ليس ذلك إلا لأني زاهدة في الدنيا .. فبعد أن مارست الجهاد لم أتلقَ إلا الاستبداد ، بل الاستعباد .. تمنيت السعادة فما ارتويت ، وقد سطا على نفسي عامل الجهل نظير امثالي ، فأقبلت على الحب ، وتلذذت بعوامل الحب ، لكني لم أنل من مرامي الحب إلا الشتم والسبّ ، وبالاحرى الاستعباد والضرب ، فسئمت الحياة ، وتمنيت لنفسي الممات .. سيدي ، أبتِ ، أيها الكاهن المحترم ، إرثِ لحالي ، انصف قضيتي ، فإني كلي رحمة بين يديك ، أوَلست أنت من خدام الله ? بالله عليك دعني وشأني واترك لي مجالاً للتفكير ، ها قد حان وقت الصلاة ، فإلى العبادة .. هوذا الجنين يتحرك في أحشائي ، فلتكن نفسي باسمه نذيرة للعفاف ..

بهت الكاهن لرقــة أحاديثها ، وأعجبه فيها تمسكها بأركان العبادة ، فاستحسن منها التغلب على كبح الأهواء الجسدية الجامحة ، والتسرمد لمعالم العبادة التي أقبلت عليها من روح عطوف باللجوء الى باريها المتعالي ، وقــد لاحظ فيها سموّ الاخلاق ، وطيبة الضمير الصالح الذي ردعها عن ارتكاب الفواحش ، وانقادت بنفسها الى خير ما تهتدي اليه من العوامل الروحية ..

فبعد ان صمت الجميع برهة من الوقت نهضت جميلة لساعتها وتركت الكاهن يتحدث مع والديها في الدار ، واختلت بنفسها متشائمةمن شر المصير ، لأنه لم يكن لها بعض الثقة أن عادلاً سيصبح يوماً رجلا وفياً مجاهــداً ، فأخذت تردد قول الشاعر :

بلوت الرجال وأفعالهم فكلٌ يعود الى عنصره

أما حضرة الكاهن فكان ينتظر منها الوعد النهائي ، ويعلل آماله لتنفيذ الغاية الملقاة على عاتقه من قبل عادل .

وساورته الحيرة في القضية ما بين أن يكرهها على الاقناع لتنفيذ مآربه ويتحمل مسؤولية زوجها ، وربما يتحمل مسؤولية افتراسه إياها بشراسة أخلاقه ، وما بين أن يتهامل في القضية ويظهر ضعفاً شاملا تجاه سطوته الدينية ..

ولما تبين لديه تمسك جميلة بالروح الطيبة ، وقد اقشعرّ جسمه لتلفظها تلك العبارات المقدسة التي تنمّ عن رقة الشعور والتدين المرموق لم يكن له إذ ذاك إلا أن يؤمن لها حياتها بشروط مستوفاة تكفل لها الهدوء والسكينة فيما لو عادت اليه، فبالغ بشروط حاسمة انه مهما توالت لديها الأمور من امتهان كرامتها ، أو من صدور أمر بذيء يحط من قدرها ، أو بالأحرى أية صعوبة تنوء تحت ثقل حملها فهو منوط بإزالة كل أمر يصدر منه وهكذا ما انفك يحدث جميلة ووالديها حتى أقنعهم بوجوب الاتفاق موطداً آماله على المجيء اليهم صحبة عادل قبيل الساعة السابعة مساء .. فلما عاين الوالدان أنه لا بدّ من رفع الملام عنها ، لقد تدبرا بوسيلة مقنعة رضوخ ابنتها للعودة الى زوجها ..

أما هي فأجابت بتشاؤم المصير ، وكانت مقبوضة القلب فقالت ، إن قلبي مضطرب ، ولست بآمنة شرّ غائلة ذلك الطاغي ، لأن مزاياه بعيدة عن مزاياي ، ومآربي ليست مآربه ، فكيف بي وأعيش مع رجل غير متفاهمة معه ؟

أجاب الوالد سالم ، اصغي اليّ يا ابنتي ، إنني سأعود بك الى زوجك هذه المرة الأخيرة ، وتكون إذ ذاك الحد الفاصل بينك وبينه .. فإن تبين إصلاح في سيرته تقررين البقاء معه ، ولا بد يا ابنتي من التسليم لأمر الدين الذي يربط الزوجين بصفاء النية وطيب القلب ، ولا ريب فان الحياة الزوجية هي أسعد حياة للانسان اذا اتصلت بالوفاق والضمير الصالح وراحة البال .

جميلة ، آه يا أمي ، إن جئت أحكي لك ما تراءى لي في حلم هذه الليلة ،

فانك ربما تنسبينني للتعلل الى الإنفلات من قضيتي هذه المرفوضة مني رفضاً ، ولكن وحقك يا والدتي انني لا أبالغ ، القول صادق ..

ضحك الكاهن فقهقه ، قال لها ، أتؤمنين بالأحلام يا جميلة ؟

قالت ، كيف لا يا أبتِ ، فالأحلام هي إشارة تنبيه للعقل البشري ، أما تذكر أحلام يوسف ؟ الملك فرعون ؟ دانيال ؟ وخلافهم .. والذي دخل الى ذهنك من المعلومات أيها المحترم لم يدخل الى ذهني ، إنما كنت أسمعه صدفاً من بعض أقوال الناس ، أو من بعض المواعظ في الكنيسة ..

أجاب الكاهن ، هدئي روعك يا ابنتي ، وخلّي عنك الاوهام ، فما حلمك إلا هاجس من دواعي التفكير في حالتك النفسانية .. وقد فهمت شيئاً من ألحاظك قبل أن تنبئيني بحلمك ، ومع ذلك فانني آذان صاغية لسماع الحلم ، فهاتِ ما عندك ..

قالت : أجل ، يا أبتِ ، يا والديّ ، اصغوا اليّ ..

كنت في منزلي يوماً مع زوجي ونحن كلانا في حالة صفاء وهناء .. كنت يومذاك نسيت المماحكات التي مرّت عليّ وطاب قلبي للحياة ، واذا به يشير اليّ أن أرتدي ثيابي الجميلة لنذهب سوية الى النزهة ، فللحال ارتديت البذلة اللائقة وتأهبنا للمسير .. فتأبطني كالمعتاد وسرنا الهوينا ونحن في حالة صفاء وانشراح ..

وما أن سرنا بضع خطوات وإذ خلت نفسي أننا كلينا واقفان فوق جدار عال شبه سور مستطيل يشرف على وادٍ عميق فسيح الارجاء .. فاهتزني بيدي ساعتذاك كممازح لي ، وشدّ بيده على ساعديّ كمن يروم أن يرميني في الهوة العميقة ، فارتعشت أحشائي واضطربت نفسي ، فصحت به صيحة الذعر وكدت لا أعي كيف يملكني أن أفلت منه لشدة الرعب ..

فتحت عيني ولم أجد أحداً ، فشكرت ربي أنه كان ذلك حلماً ..

فاستنكر الكاهن تفسير الحلم فجاءه الفكر المؤنب يحذره من وقوع أمر يلمّ بها وتقع المسؤولية عليه .. بيد انه قال لها ، لا بأس من حلمك يا ابنتي ، ربما كان حلمك من هواجس أفكارك ، سلمي أمرك لله وهو يرعاك بعين عنايته ..

أجابت جميلة ولم يكن بملء خاطرها .. ليكن لكم ما تريدون ..

قال الرجل لصديقه : لله ما أمرّ هذه الحكاية ، لقد اقشعرّ جسمي لذلك الحلم الذي كشف لتلك المسكينة أمر مصيرها .. هل من تابع لتلك المنكودة ؟.. قال .. بلى ، اصغِ إليّ ، فلسوف لا نبرح من هنا ما لم أنهِ الحكاية ..

*

١١

غادر الكاهن منزل سالم وقلبه طافح بالسرور زعماً منه أنه جاهد لعمل ديني يُشكر عليه ، كان ساعتذاك عادل قابعاً في منزله وراء الباب يصغي لكل كلمة تفوه بها جميله ووالدها وكان ينتظر عودة الكاهن على نار .. فلما أقبل إليه تقدم لتقبيل يديه منتظراً القول النهائي منه .. امتثل عادل أمام الكاهن بروح منسحقة يطلب منه الرضا والدعاء ، فأطلعه الكاهن عما دار معه من الحديث ما بين جميله ووالديها ، وكيف أن المجال اتسع معه ليغريها ويكرهها على العودة الى منزلها ، وأخذ يندد به على أعماله الصاخبة .. فتعهد منه الكاهن التعهدات الصادقة التي ينبغي ان يقوم بها لإصلاح سيرته وانتعاش الحياة مع زوجته المتيقظة من فظاظة أخلاقه وتصرفاته .. وما فتىء الكاهن يسير معه بشتى شروط يمكنه القيام بها حتى تعهد له تعهداً صادقاً أنه يقوم بكل عمل صالح يؤول لمنفعة الحياة السلمية الروحية ، وبناءً على ذلك جاء بعادل الى منزل عمه سالم ودعا جميله لمصالحتها معه .. فرفع يدي البركة فوق رأسيهما ودعا لهما بالتوفيق ..

لما كانت الاخت رندا ترغب في قضية الصلح لاختها حضرت الى منزل أبيها وحيّت الكاهن المحترم وقالت له .. اننا نجاهد لتلبية العمل الطيب الذي نأمل منه خيراً ، وأنت تعلم يا حضرة الأب المحترم أنه ليس من الفخر لنا أن تبقى أختي مطلقة ، وكفانا حديث الشامتين ، أما وان دامت المعاملة لأختي من الصهر عادل على هذا المنوال فلا يأمل أنها تبقى عنده دقيقة

واحدة ، نحن لم نتعود الخلاعة ، ولا الذهاب الى المسارح .. فليأخذ حذره من عمله ..

الكاهن ، طيبي قلباً أيتها السيدة الفاضلة ، فالذي مضى لن يعود ، هي الآن في حياة سعيدة ناعمة .. لا تجزعي ..

اصطحب عادل زوجته وأتى بها الى منزله حيث عاشت معه حرّة سليمة من حياة لا يشوبها زعل ، أما الكاهن فودّع الجميع وقفل راجعاً الى ابرشيته راحت الأيام تدور الى مدة الشهرين وبعده فإننا نردد قولنا باللغة العامة (رجعت حليمه لعادتها القديمه) ..

ما برح يتأخر بمجيئه الى منزله حتى منتصف الليل ، أو بالأحرى الى ما بعده وشتات الأوهام تتصدى في رأسه ما بين أن يكون رابحاً أو خاسراً في المقامرة التي اعتاد عليها ، وان التجاءه الى الميسر حيث كان يصرف لياليه الطوال منطوياً على نفسه جربه الى دبيب علة تحاول به التسرّب الى صفوف المقامرين وليس ليرفع نفسه الى مقر المجاهدين الأبطال ..

والغريب العجيب منه أنه لا يثبت على مقال ، ولا يرتاح اليه بال (كلام الليل يمحوه النهارُ) وقد يسعنا أن نقول ، ان الانسان مهما كان فقيهاً ، أو ثرياً ، او اديباً ، والتحق بالميسر فقد دمّر عقله وبطش بمغدورية حياته وحياة عائلته ..

وقد أدركت جميله أن ما كان يصدر عن زوجها من تمول وخمول لا يوفر لها الأمل لتحصيل الإنتاج الذي يمكنه من اتمام الواجب المفروض عليه للمسؤولية الملقاة على عاتقه لتدبير شؤونه المنزلية ، فبدأت عندذاك تقنط وتيأس ، سيما وانه تارة كان يعود الى منزله باسماً ضاحكاً ، وطوراً غاضباً محتدماً متأثراً منتقماً حتى ولو من طيفه ..

حينما يكون رابحاً يصبح لطيفاً ناعماً ، وحينما يكون خاسراً يواجه عقبات اصطدام بعثرات معترك الحياة ، وعند هذه الحالة وجدت جميله نفسها أضعف

من أن تقوى على مكاره الحياة ومصاعبها لأن عاطفتها كانت حافزاً لهـــا تدفعها الى العمل الذي يمكنها التغلب على مساوىء زوجها اكثر ممـــا يعرف عنه أنـــه لم تكن تطوراته في ثورته انقلابات طفيفة فحسب .. بل كانت شاملة تأخذ شكلاً فجائياً ثورياً حسبما تتأثر فيه نوبة الجنون ..

أما الأمر الوحيد الذي كانت تهتم لاجله جميله هو تحسين الأسرة العائلية، وافتخارها برجلها إذ يتسنى لهـــا ان تربي اولادها تربية صالحة وتوفر لهم السبيل لنجاحهم وتقدمهم ..

اما عادل فلم ينتج من اقباله على العمل شيئاً ، ولا تحسناً مفيداً ، بـــل ظل يتوارى في ظلمات الخيـــال حتى فشلت حياته بالخسارة الفادحة التي شدّدت فيه عدم المحافظة على القيم الاخلاقية والإنسانية ..

وبعد ان اصبح يزاول شرّ الأعمال ، ولم يخط خطوة للأمـــام لتحسين سيرته ، ولم يكن له دافع نفسي يتوقع فيه يوماً بزوغ وقت يتهافت فيـــه لمرضاة امه واخته اللتين رفضتاه واستخفتا بوطأة عمـــله ، فظل متشبثاً في آرائه دأبه الارتياح الى اللعب والمتنزهات ..

ففي ذات ليلة رقدت جميلة في فراشها متأثرة ، مثقلة بالوحام لنمو الجنين في أحشائها وحدث الغثيان الذي يلم بها احياناً ويوقعها في فراشها برهة دون وعي الى أن تستفيق ، إذا بعادل يطرق الباب مفاجئاً عند الساعة العاشرة قبل منتصف الليل ، فصاح بها صيحة هائلة كأنه الذئب المفترس وأخذ يتهكم ويعربد كمن كان خاسراً في مقامرته ، فقال لها .. إنهضي الآن فأتحدث معك حديثاً نهائياً ، إياك أن تعانديني أو تتلفظي بكلمة لا .

- نهضت المسكينة وهي منهارة الاعصاب وفي حالة نزاع في نفسها تتمنى الموت ، فأجابته ، ماذا تريد مني في هذه الليلة ؟

قال لها : اعلمي أنك رهينة إشارتي ، وعليك أن تسيري حسب طاعتي، وحقوقك مرهونة لأوامري ، ليكن مفهوماً لديك أنني أروم الانتقال من هنا

ولا أرضى فيما بعد ان تقيمي ازاء والديك واختك رندا ، والآن لي غاية وحق القصد أن أنتقل بك الى المدينة حيث أشاء « رضيت أم أبيت » فلا فرق عندي ، وحياتك متوقفة على ظروفي ، تعيشين كيفما يقتضي الحال . أهي عيشة صالحة ، أم غير صالحة ، فهو أمر منوط بي ، ولا يحق لك ان تفوهي بكلمة .. أسمعت ؟ .

أجابت جميلة ، إيه إيه ، ماذا تقول ؟ أرجو أن لا تحلم بكلام كهذا ، ولا تفكر به . فأنا وربي سوف لا أبقى معك يوماً واحدا ، ولولا توسلات الكاهن ومحاولته اقناعي للعودة اليك لما رأيتني في منزلك ، فانا ما رجعت اليك بملء خاطري لأنني عرفتك خداعاً مكارا ، مراوغاً فخدعتني وخدعت والديّ ، وقمت متسكعاً بطلبي على يد الكاهن المحترم الذي زدته خداعاً برقة أحاديثك وتعهداتك المراوغة ، أنسيت كيف جئتني بروح منسحقة تطلب عودتي اليك من والدي بواسطة الكاهن ؟ وهو حضرته أمنني صدق مواعيدك أتذكر يا عادل كيف أنك عاندت المستحيل فأقنعتني بالعودة اليك حتى انني أصبحت الان في قبضة يدك تعود بي الى الاستعباد والمناقمة ؟ لا ، لا ، كن حذراً ، فاذا كنت تسير في حياة صالحة كالتي مرت علينا خـــلال الشهرين الآنفين ، فأنا وربي لا أحيد عن طاعتك ، ولكن ان كنت ما زلت على املك المنكر انه يمكنك ان تكرهني على حياة خزعبلية لا صلاح فيها ولا فلاح ، فوالله لا أرضى ان تكون حياتي ذليلة منقادة وراءك للهوان ، وان دهاءك الذي اغريت الجميع به قد ساقني اليك ثانيـــة لتعود بي الى الانفصال عنك وانقطاع الصلة النهائية بيني وبينك . الى المدينة سوف لا اذهب ، ولا انتقل معك ليكون من السهل عليك الاتجار بشبابي ، فأنا عن قريب سوف يحين موعد ولادتي ، ولست بغنى عن والديّ ليعتنيا بي حق الاعتناء .

صاح بها بصوت هائل ، من هما والداك ؟ انا هو ابوك انا هو امك،انا هو اخوتك ، هيي بك يوم غد فنرحل من هنا .

اجابت والهلع ملء جوارحها . دعني اموت بين والدي ولا آكل لقمة

السوء معك . فلطمها على خدها .

قالت له : أهكذا تضربني يا عادل ؟

قام مناضلا ففتح الخزانة ، فقالت له ، اترك الخزانة وهلم بك الى النوم، فقد حان منتصف الليل ونحن ما زلنا في الحديث .. كفى كاد ان يغشى علي فقال لها ، اتخشين امر الخزانة ؟ وهل انا بسارقك ..

فلما تصدى رأيه للفشل ولم تلتئم معه لتطبيق آرائه فقد نوى نية الاذى عليها بغية ان يرهبها ويضطرها للتسليم .

أما هي فانهارت قواها وخارت عزيمتها لشدة التأثر ولم يعد لها عزم ان تفوه بكلمة ، فسلمت أمرها الى الله طالبة منه النجاة من ذلك المأزق الحرج.

فلما عاين عادل ان زوجته مستهدفة للنوم وقد اغمضت عينيها دون أن تنبس ببنت شفة تدبر عند ذاك بحيلة يقتنص فيها حياة تلك المسكينة الراقدة التي لم تعد ترد عليه بكلمة لضيق ذات نفسها ، بالرغم انها مقتته وعاندته ، وحسبه ان عناد زوجته لعدم تنفيذ اوامره هو عار عليه .

(هنا ايها القارىءنسرد لك ما كان من امر عادل) .

أخذ يلتفت الى هنا وهنـــاك ويدور ذات اليمين وذات اليسار . فلما لم ير احداً وأمن وحدته دون اي رقيب ، تسنى له ان اغلق البـــاب ووضع كرسيين وراءه ، ثم انحنى على ركبتيه امام فراشها مفاجئاً ، ووضع يديه على حنجرتها قاصداً حسبما يتهيأ له أن يرعبهـا بجأشه لتنحني أمـام طاعته ..

أما رندا تلك الأخت الحنون دامت ساهرة على حديث عادل مع اختها.. ولما ساد الصمت ولم تعد تسمع من محدث يتلفظ بكلمة ، فكأنما دافع سماوي نهض بها لترى إذا كانا قد استسلما للسبات أم لا ..

قفزت لساعتها إلى ناحية النافذة الخارجية فوقع نظرها على تلـــك الهيئة الرهيبة التي أفقدتها رشدها ، فصاحت مولولة ..

ويحك يا والدي ، إنهض ، يا ويلـك يا أمي ، فقد انتهت حياة ابنتك ، صاحت رندا ، أختي ، أختي ، يا حبيبتي ، هبوا إليهـا ، أطرقوا الباب ، اكسروه ، اطردوا المشؤوم ، هذا الحد الفاصل لذلك اللعين ..

نهض الوالدان من غفلة النوم مرتعشين، ولهول الرعب طرقا الباب بأرجلها أدخلاه جانباً وطرداه طرداً لا مردّ له ..

عند تلك الحالة كانت جميلة مغمياً عليهـا ، فحملها والدها بين ذراعيـه وأدخلها إلى منزله ، وكانت الاخت رندا تبكي والام تولول وتنوح ظناً منها أنها ماتت ، والصهر راغب نهض من فراشه مرتعشاً .. أخذ يصفق على يديه آسفاً والدموع تنهـال على خديه ، والوالدان خارت منهما العزيمة ، فطفقا ساعتذاك يباشران باستعمال الوسائط اللازمة لإنعاشها ، فبعد محاولة شديدة لعلاجها فتحت عينيها ولم ترَ نفسها إلا بين أيدي والديها واختها والصهر راغب والدموع تذرف من أعينهم، لكنها لم تكن تعي ماذا جرى لها من أمر عادل، وكيف طُرد من البيت إلا بعد أن استردت رشدها ..

تفرست جميلة في وجوه ذويها وعاينت الدموع من مآقيهم فصاحت ، ما بالكم تنوحون؟ هل من أمر داهمكم ؟ أم اعتراكم ذهول ؟ أم سر عجيب ؟.. بالله عليكم أخبروني » فقد كسرتم قلبي،أختي سميرة وزوجها ، هل من حادث أصابها ؟ يا ويلي ، بالله عليكم أخبروني ..

هتف الجميع بصوت واحد للسرور . . إننا ندعو بسلامتك ، فضموها إليهم وقبلوها قبلات الفرح لإعادة الروح اليها ، وأطلعوها على انفجار الحادث الذي مرّ عليها من جراء زوجها عادل ..

شكرت الباري تعالى لنجاتها من مكايد الشر ، فانحنت تحت أقدام والديها وقبلت أيديها تقبيلاً ، وابتسمت بتقبيل اختها وصهرها .. واشارت للجميع أن يجلسوا بقربها لتسرد لهم ما تراءى لها في غيبوبتها ..

قالت .. كنت في تلك الليلة المزعجة التي فاجأني بها زوجي عادل مقبلاً

إلي محدثاً في ساعة متأخرة من الليل ، بينما كانت أختي رندا تصغي لنضالنا، وإذ وقع في نفسي بعض الغثيان فاشتد عليّ الإغماء حتى أنني لم أعد أعي إلا وأنا في غيبوبة عميقة .. فوجدت نفسي أنني أمرّ في بيداء فسيحة الأرجاء ، وعلى جانبها ما بين ذات اليمـــين وذات اليسار جنّات متكاثفة الأوراق والأزهار الجميلة ..

فدنوت الى الجانب الأيسر وطفقت أتجوّل بين تلك الرياحين أقطف الأزهار وأضمها بيدي باقة بعد اخرى ، وبينما أنا على هــذه النشوة وإذ امتثل أمامي رجل أشهب طويل القامة ذو لحية بيضاء .. وبيده عصا ، فحياني وأشار لي بيده أن أقطف الزهور من الجانب الأيمن ثم تفرّس في وجهي وأمعن النظر إلي ملياً فقال لي : إنك عما قريب ستلدين غلاماً ، فمتى ولدته ، فماذا رأيك أن تسميه ?..

أجبت ، انني سوف أسميه حليماً،قال لي .. بل تسميه منيراً لأنه سوف ينير قلبك ، ويكون سلوى حياتك ، وللحال توارى عن انظاري ولم أعـد أرى له أثرا ، وما ان فتحت عينيّ الآن حتى رأيتكم تنوحون أكان ذلك عليّ أم على غيري ، لست أعلم ..

فلما أطلعها والدها عما جرى من أمر عادل بالتمام استنكرته استنكاراً ، فوعدها الوالد بالحدّ الفاصل بينها وبينه ، وقال لها .. إنه ليس له بعد الآ أن يطأ هذه الدار وإلا قتلته بقبضة يدي ، فليعد إلى أحشاء أمه ، لا عاش البطن الذي حمله ..

قري عيناً يا ابنتي ، فلا لوم عليك من الآن وصاعداً ، فلو تدخل بشأنك ابن الأمير لينصف بينك وبينه فليس لمواجهتنا منصف ولا خبير.جميله ، وهل حقاً ما تقول أبي ? آه ، كم أنا مسرورة الآن ، فقد أنذرتكم به مراراً عدة وقلبي ينبئني بامور غريبة تحذرني من فنونه الإغرائية وخزعبلاتـه المطبقة من مدعاة تلفيقه وعدم اكتراثه بإيفاء مواعيده ، وكفاني ذلك الحلم الذي أنبأني بشر عمله ، وقد تبين تفسيره ، ولكن لا بأس يا أبي،أما وحقك لولا كرامة

الكاهن المحترم واطاعة أوامرك تجاهه لرفع الملام عنك لما وطئت عتبة منزله. فقد نبذته نبوذاً ، ونبذت الرجال كراهية منه .

والحق أقول ، إنني بعد أن فتحت عيني وتفرست بكم وعرفت بعض الشيء من سهام ألحاظكم أنكم تتحدثون عني أنني كنت في غيبوبة عميقة شبه موت فجائي فإنني وحقكم لم أشعر أن علة الموت كانت قاسية علي ، لله ما أهنأها ، هي نوم ثقيل، بل راحة وهناء ، ليتني دمت طويلا أتجوّل في تلك البادية الغناء ، الفسيحة الارجاء ، بين المنحدرات والهضاب ، إنني لعمري لم أكن أشعر بعذاب ، ولا بحرّ لهّاب ، فسهوت ، وسلوت عـــن بالي تورط الأسباب .

ترى مَن كان ذلك الرجل الأشهب الكبير الجثة ذو اللحية البيضاء الذي طيب قلبي وأنذرني بولادة غلام «أكان هو النبي أم السيد المسيح» أم أحـــد الأولياء ؟ لست أعلم ، بل أعلم شيئاً واحداً ، هو انـــني شعرت بانتعاش في نفسي حينما خاطبني ذلك الشيخ الجليل ، وارتاحت نفسي لمقابلته حتى أنني خلت نفسي في جنة الخلد أقطف الزهور والرياحين ، والآن تراني أين أنا في أحضانكم ، وبين أذرعكم .. أنتم تنبيه أحلامي ، أنتم جنتي وزهوري ، وعليكم تدبير أموري ، أنتم الحنين وقطف الرياحين ، إنهضوني ، ارفعوني ، امسكوني بالساعد الأيمن ، ها قد تجلى فؤادي ، وطاب رقادي ، أين هـــي أختي سميرة ؟ أين هو الصهر فايز الذي رفضته رفضاً،بالله عليكم إئتوني بهما.. فأنا اليوم قد ولدت من جديد ، علي أن اسرّ وأفرح باخوتي وأحبتي ، ليتني كنت أحظي بأخوي يوسف وبديـــع فهما عني بعيدان لكنني أدعو الداني وأترك القاصي .

جميله – أبي .. لي سؤال منك آملة أن تلبي طلبي به .

الوالد – سلي ما تشائين يا أبنتي فأنا لك بكل ما تتمنين .

جميله – أبي إنني أريد منك دعوة خاصة إلى أختي رندا وعائلتها،وسميره

وعائلتها ، وإذا كان لا يثقل عليك فليكن خالي وعائلته فتعين لي يوماً اجتماعياً يكون لنا فيه السرور والانشراح ، أتقبل هذا الطلب مني يا أبي ؟.

الوالد ابنتي عزيزتي ، إنه ليس بالأمر الصعب علي بدعوة كهذه ، بل أكدي لو أنك طلبت أعز شيء لدي لقدمته لك حباً بسيرتك الحسنة ولجوئك الى ربك الذي وهبك طيبة القلب وصفاء النية ،وقوة التغلب على الصعوبات ..

سأعين يوماً أدعو فيه أفراد العائلة ليأكلوا ويشربوا معنا ويكون لنا يوم فرح وسرور لابتعاد الشر عنا ..

هي بك ارسمي خطتك الى يوم الأحد بعد غدٍ وأنا ذاهب لأستحضر لك ما تحتاجين من واجب الضيافة ..

في اليوم التالي قامت الأم مع ابنتها جميله باستحضار الأطعمة اللازمة المشار إليها ، وجادت يد الوالد بتقديم الحلويات والمعلبات والفواكه اللذيذه ، وكان إذ ذاك يوم حافلاً بالافراح والمسرات ..

وبعد أن حضر الجميع ساروا جذلين فرحين تتخامر أفئدتهم بعوامل المحبة الأخوية الودية ، قامت جميله فرقصت في الوسط ..

دُهش الجميع لخفتها ودوراتها ولم تشبع عيونهم منها تطلعاً (من التطلع فيها) فأخذت بمجامع قلوبهم ، وطار عقل والديها بها .. فتقدم جميع اللائذين بها لكل خدمة تلزمها ، وأقبلوا اليها مقبلين وجنتيها بالمحبة الخالصة ، خصوصاً الصهر فايز فإنه بعد أن تفهم الخبر أنها وهي في حالة انتزاع نفسها سألت عنه زوجته غب وعيها من الغيبوبة التي عرفت عنها ، وعن الأمر الذي كان لها نهض ساعتذاك مسرعاً ، فأحضر هدية ثمينة عربون حبه لها معتذراً عما تفوه به من مذمة بحقها ..

بعد ذاك جمعت جميلة بين ذراعيها (بين يمينها ويسارها) اختيها وجميع أفراد الأسرة وفاحت بلحنها الطروب وأخذت تغني ، يا ليل ، بعد أن

كانت قد نبذت أنواع الموسيقى والطرب لسبب الظروف المشؤومـــة التي مرّت عليها ..

انتهى ذلـك اليوم الى آخر السهرة في جـوّ هادىء وانبساط عميـق ، وانشراح صدر ، وانصرف الجميع مطمئنين مسرورين .. وكان قد مضى على جميلة وقت ليس بيسير عاشت خلاله سعيدة هانئة البـــال ، وكل من والديها وجميع اللائذين بها كانوا يؤاسونها ويعزونهـا محدثين إياهـا بأعـذب الاحاديث لـكي ينفوا عن مخيلتها تيار الهواجس والافكار ، فارتاحت نفسها نوعاً وانتعشت حياتها ، فوطدت آمالها على إخلاص والديها لها ..

قامت لها بكل همة نشيطة لكل عمل ينبغي أن تقوم به لخدمتها .. وما برحت تجتاز مرحلة الوقاية والاعتناء بأعمالها الضرورية حتى حان موعد الولادة ..

وقد بهت الرجل لسماعه تلك الاحدوثة المؤلمة التي بها فتك الزوج بزوجته المسكينة فقال : قبّح الله وجه ذلك المجرم ، ليته لم يولد ..

*

١٢

في ذات ليلة من ليـالي الصيف المتلألئة بأنوار النجوم السائرة في الفضاء خرجت جميلة لقضاء السهرة عنـد احدى الجارات لتروّح عن نفسهـا بعض الهواجس والافكار ...

رحبت بها الجارة وسرّت كثيراً ليس أنه كان من واجب الترحيب فحسب، لكنها برهنت عن تمنيات طيبة لمجيئها إليها قصد التسلية معها علماً منها أنها ذات وجه بشوش ، هزلية ، ضحوك ، تسلي الزعـلان ، وتنسي الهموم عن الانسان ..

مكثت الجارة بقربها وأخذت تستقصي منها استخبارات جمة عن دواعي الامور التي مرت عليها ، وبدأت تتساءل وتقول . . لقد عاينتك مراراً وانت مقيمة في منزل ابيك تسيرين جادة باعمـال والديك مستمرة على الاقامة في منزلهما نهـاراً ، فليلاً .. ما الخبر ؟ هـل من اصطدام في أمر زواجك ؟ .. أين عادل ؟ لماذا لم اجده معك ؟ ..

أجابت جميلة مقهقهة ، لقد طار في الفضاء ، وليس له عودة للوراء ..
أجابت الجارة ، لا يا جميلة ، أظنك تمزحين ، فأنا لمحته منذ خمسة ايام ، فلماذا أنت دائماً تحدثيني كممازحة ، فعسى ان يكـون كلامك هـذا مزاحاً ..

صمتت جميلة وتبدلت فيها انقلابات مشاعرها ولم تعد تفوه بكلمة ، لكن

الجارة بعد ان كانت قـد تفهمت شيئاً من هـذا القبيل بادرتها بالسؤال قائلة : بالله عليك أخبريني ما بك مع هذا المشؤوم؟لعلني اقدر أن أفضّ لك مشكلتك،

جميلة – بربك ارحميني ، ولا تذكري امامي سيرة كهذه ، « ربي » قـد ارتجفت أعصـابي « اتيني بقليل من ماء الزهر » ليتني لم أدخـل منزلك ، قفلت راجعة إلى الوراء فلحقت بها الجارة وضمتها بين ذراعيها وغمرتها بالحنان فقالت لها . لا كان الزعل يا حبيبة .. فاذا كان هذا السؤال يزعجك فلنطو الصفح عنه ...

صدقيني يا عزيزتي إنني مـا عدت اذكر اسمه لديك ، وهـل كان صادقاً هكذا مقدار مـا أنت تكرهين ذكره ؟ . فأنا لم أعرف عنه شيئاً اكثر من أنه بلغني أنك واياه على خلاف ، وقـد تسكع الى بعض اشخاص من ذوي طغمة ثرية ليطبقوا طريقة الاتفاق بينك وبينه وأنا بزعمي أن اقول لك ، أنه هو رجلك وسيد حياتك وأمل رجائك، أما والحالة هـذه فليس لي الا الصمت عن كل كلمة ، لأن ملامح وجهك تبينت امامي بالتأثر الشديد الذي لا ينبىء بالاتفاق ..

أجابت جميلة – لا يا جارة ، ليس من اتفاق ، وقد حضر الينا ليس من جمهور واحد فقط للتحدث بهـذه القضية بل عدة جماهير ، ورجعوا خائبين وقد اخبرتك الآن عبثاً يحاول الناس اقناعي للعودة اليـه والتسليم له ثانية ، حتى وانه لا يسمح له أن يطأ أرجـاء المنزل لأنـه مهدد بالخطر ، فأرجوك أن لا تعيدي على مسمعي هذه السيرة ثانية ..

الجارة – لقد كسرت قلبي بحديثك ، وهل من اسباب تؤلمك لهذا الحـد انني آسفة لحظك التعس وانت ما زلت عروساً ..

جميلة – لا تسألي عن الاسباب فانها جسيمة وفاسقة لا يليق بي ان اسردها للملأ ..

وقد أمعنت النظر اليها الجـارة فقالت لهـا .. بالله عليك يا عزيزتي ،

انشديني نشيداً فأسمع لحنك الشجي ، كفاك عبوسة ياه.. فأنا والله لن ارضى منك هذا ، لأن العبوس يزيل جمالك ، وقسماً بذات الله لا عدت أعيد عليك هـذا الحديث البتة ، لعن الله ذكراً كهذا .. ضحكت جميلة معتذرة لعـدم تلبيتها ، لأن حالتها الطبيعية في ذلك الوقت لم تهتف للنشيد ، ثم عـادت فرجعت الى منزلها حيث كانت والدتهـا بانتظارها فسألتها ، كيف صرفت وقتك مع الجارة ، هل كانت مخلصة لك ؟

الابنة – كيف لا يا أمي وقد غمرتني بحنانها وألطافها ، فضمتني اليهـا وأخذت تقبلني كمن عرفت عن حالتي شيئاً ، فبرهنت عن شدت تأثيرها عليّ وللحالة التي توصلت اليها ، ولكي تروّح عني طلبت مني نشيداً لتعيد الفرح الى نفسي المنسحقة ، فاعتذرت لعدم تلبيتها لأنني وبينما أنا أتحدث معهـا كنت أشعر بآلام خفية خفيفة ، فطلبت منها قليلاً من ماء الزهر ، فشربته ولم ينفعني ؛ ودامت هذه الآلام تنتابني فترة بعد اخرى ، فلما ازدادت عليّ الآلام جئت أطلب رضاك ومعـالجتي ، فبالله عليك يا أمي ارحميني ، أخ ، أخ ، أسرعي اليّ .. فإنني متألمة .

الأم – لا تجزعي يا ابنتي ، ربما كان هذا موعد الولادة ، هدئي روعك .

« تعال يا سالم ، اركض إليّ ، هيا بك ، قف قليلاً أمام ابنتك لأدعو لها القابلة » ، فوقف الوالد وقفة اعتناء بابنته وأسرعت الأم فأحضرت القابلة ، وبعد وقت ليس بيسير وضعت غـلاماً ، كما أنبأها ذلك الشيخ الأشهب في غيبوبتها ..

فلما وقع نظرها على الطفل المحبوب هتفت قائلة بلسان العـذراء مريم : تعظم نفسي للرب وتبتهج روحي بهذا الطفل الذي أعطانيه .

الوالد سالم – وما مرادك ان تسمي الطفل يا ابنتي ؟

جميلة – أما قلت لك ان ذلك الرجل الأشهب ذو اللحية البيضاء أنبأني بولادته وأشار اليّ أن اسميه منيراً ؟ (اسمه منير) وقد أثار قلبي ، وفتح

بوجهي أبواب الهناء ، وكدت لا أصدق أن حنان الأم يثير العواطف حتى أنك تراني عند نظرة من عينيه انسى هموم الدنيا ، وأخال نفسي في جنان الخلد فوق القبة الزرقاء ، ترى هل أنت وأمي تعطفان عليّ مثلما اعطف أنا على ولدي ؟

الأم – لعمري ، ألستِ انت بمثابة كل أم ؟ ام قلبك يمتاز عن قلوب الأمهات ، وبالاحرى فإن النساء جميعهن ذوات قلب واحد ، رب واحد ، عطف وحنان .. أما تلاحظين كيف أنك عاندت أباك وتجبرت عليه ، فشققت طريق الطاعة ، وحدوت حدوك كيفما شئت ، ولما وقعت في الأقدار كيف انتشلك وعطف عليك ، ولا يرضى من احد ان يسيء اليك بكلمة ، فضلاً عن انه كان ينبغي ان يكون لك شامتاً ..

صرخت جميلة – ياي يا أمي ، فأنا وربي لست بمستحقة محبة أبي وعطفه الذي أبداه نحوي،فأشكر لهعطفه وأشكر الله الذي وهبني والدين نظيركما .

الوالد سالم – قري عيناً يا ابنتي ، ها أنا سأندفع بكليتي لتربية ابنك المحبوب ، حقاً إنه ابنك لكنه لديّ أعزّ منك ، لأن المثل يقول : (ليس أعزّ من الولد إلا ولد الولد) فهو لم يخلق لأمنيتك فقط ، بل ليكون سلوى قلوبنا ، هاته إلي ، أعطيني إياه فأقبله ، تعال إلي أيها الطفل الحبيب ، تعال يا جدّاه ، آه كم انت محبوب ، كم انت جميل ، ما أحلاك ، ما أغلاك .

وقد بلغ الأخوين يوسف وبديع ما جرى لاختهما من تجسم الامور لشر مصيرها فتكدرا غاية الكدر ، واندفع يوسف أحد الأخوين للمجيء الى والديه ليتفقدهما مصحوباً بهدايا نفيسة لهما ولأخته أم الطفل الجديد.

بكى يوسف لحالة أخته حتى كادت احشاؤه تنفطر لأنه كان يحبها فوق كل محبة ، ويفتخر بذكائها وسرعة خاطرها وجمالها الفتان وعرف عنها انها كانت مثال الطهر والعفاف وقدوة الشرف لبنات جنسها في ذلك الآن ، فسرّ بها الأخ يوسف غاية السرور سيما وانها لم تخفض جانباً من وطأتها لتنساق

الى الازدراء ، فشجعها على مجابهة الاقدار ، وحرّضها على ثبوت عزمها وعدم انحنائها أمام العقبات ، وإنها في حال ثورتها لا تأبه لهول الصعوبات ..

فأبدى الأخ يوسف غيرة فائقة لأخته المسكينة، فقدم لها بعض الدريهمات، ووعدها بإرسال كمية من الدراهم فترة بعد اخرى. أقام يوسف في منزل أبيه عدة ايام وعاد راجعاً الى مقره في ضواحي سورية ليعيش حياته مع زوجته وافراد اسرته حيث مقر عمله ..

انصرف يوسف من دار والديه مقبلاً الجميع قبلات الوداع مشيراً بيده الى اللقاء ..

دامت جميلة قريرة العين في دار والديها تربي طفلها بكل اعتناء، ولا تبطىء بخدمة الأعمال التي تشير بها اليها امها، فكانت على احسن حال واهدأ بال ، وتقدمت الأختان رندا وسميره ببعض هدايا عربون المحبة والإخلاص للطفل ولأمه ..

اخذ الطفل ينمو شيئاً فشيئاً حتى جاوز السنتين من عمره واصبح يقف ويتمشى ، وكانت تنظر اليه امه ولا تشبع منه تطلعاً . فتقول في نفسها ، إن هذا الطفل هو حبيبي، نصيبي، بل طبيبي ، فأمي وأبي، بل اختي واخي، يا حبيبي يا بنيّ هلمّ إلي فأضمك إلى صدري ، واقبل العينين النجلاوين، والثغر الجميل .. أسمر ، كحيل العين ، لذيذ الهيبة ، يا عيني عليه ، حرسه الله

وحقك يا امي إنني لم اكن اصدق ان حنان الام شديد العطف الى هذه الدرجة ، هو التعزية ، هو السلوى ، بالله عليك تطلعي اليه وهو يرقص فقد سلب عقلي ، يا حبيبي ، يا ولدي ..

الأم – ولِمَ لا يرقص وامه راقصة ؟..

جميلة – أأنا راقصه يا امي ؟ لا وربك ، بل إن كنت اتدور بينكم كالمزدهرة بكم قاصدة تسليتكم فليس يعني بذلك انني ادعى راقصة ولو لم اكن

اخشى ان يلمسني هذا اللقب الذي اكرهه لما تركت زوجي ، وهـذا لعلمك بأنه السبب الوحيد لانفصالي عنه ..

الأم — حسبك يا ابنتي انني نسبتك الى الراقصـات اللواتي يرقصن في المسارح ، لا وحقك ، فأنا لا أقصد بكلمتي هذه إلا انه ليس من أحد يقدر ان يقلدك في الرقص الذي ترقصينه. اما عرفت انك خلبت عقول البشر الذين شاهدوك ترقصين ؟.. في الحفلات العائلية الرسمية؟ آه ، كم كنت اتمنى ان تفوحي الآن بصوتك الشجي فأحيا بك يا عزيزتي ، يا حبيبة ..

جميلة — وهل انت مبسوطة بطفلي يا امي ؟..

الام — كيف لا وهو قرير عيني وشكواي .. اضمه الى صدري فتحيا نفسي بقبلة من عينه، فهو خفيف الروح مثل امه، بارك الله لك فيه يا ابنتي، فأنا ووالدك على استعداد لكل خدمة تلزمك لتربيته ..

إذن فلأغنّ لك ولنطرب معـاً لأننا في حالة طرب ، فقد أفـل نجم الكدر ..

وفيما هي على تلك النشوة تنشد الألحان الشجية ، إذا بأختها سميرة والصهر فايز مقبلان إليها ، فلما عاينا الطفل الفتان يزقزق ويلعب دهشا به وطلبا له السعادة والتوفيق ، ومن الغريب أمر الصهر فايز فإنه رغم مضادة غرامه بها وتحسره لحبها فإنه ما زال يغار عليها ، ويأنس بمحادثتها ولا يرضى ان يلم بها مكروه ، وكان يتأثر لتعاسة حظها ..

كل ذلك كان لان قوة الايمان التي كانت في نفسه برهنت له أن ذلك هو قسمة من الله ، فكان شكوراً للباري تعالى لسبب اتفاقه الزائد مع زوجته سميره. وكثيراً ما كان يتقدم ببعض هدايا للطفل المحبوب ..

أما عادل فبات على حدة ممقوتاً خارجاً عن مؤازرة أمه واخته ، بعيداً عن زوجته .. أخذ يصرف لياليه في الحانات والمقاهي ، وفي الميسر تارة يربح وطوراً يخسر حتى فشلت آماله ، وتهتكت أحواله، فبات أسير ذل وهوان ،

ضاعت علومه في الاهواء ، فأصبح خائراً لا يلوي على شيء. فسقط من مركزه تاركاً المصرف لشدة توانيه في العمل ، وانصرافه الى اللهو ، ولم يظهر نشاطاً وفياً لمركزه ، راح يطوي أيام استثمار نتيجته وهـــو في غضون شبابه في المتنزهات والسهرات حتى فرغ جهده فأصبـح صفر اليدين لا يملك شروى نقير ، فأخذت زوجته تردد قول الشاعر :

مضى عصر الشباب وأنت غافل　　　وفي ثوب العمى والغي رافل
إلى كم كالبهائم أنت هـــائم　　　وفي وقت الغنـــائم أنت نائم

فلما طرأ مسمع عادل أن زوجته وضعت غلامـــاً طار عقله من رأسه ، فأسرع إلى الكاهن متسكعاً له بروح منسحقة يرجوه أن يجعل له وسيلة لينظر الطفل ولو لحظة من الوقت ، أما الكاهن فرفضه رفضاً لما تبلغ عنه من سوء تصرفاته وما أشبه ، فعـــاد يحتج لزملائه المخلصين ليمهدوا له السبيل للوصول لمشاهدة الصبي فلم يلتفت إليه أحد لأن يده فرغت من الماديات حتى أنه لم يعد لنفسه من غرش يقتات به ، فكان هذا الطلب منهم ازدراءً بـه وهزءاً وسخرية ، فخلفوه يقاسي عناء الفاقة والهوان .. فأخذ يقول:

حياك من لم تكن ترجو تحيته　　　لولا الدراهمُ ما حياك إنسان

ولما كان لم يلبِّ طلبه أحد من أولئك الأصدقاء الذين كان ينتمي اليهم أضحى حزيناً ، وبات ينساب في بعض الليالي الى جوار المنزل فينحني تحت النافذة ليسمع صوت الطفل ، فيبكي متحسراً ليقبله ولو قبلة واحدة ، لكن أمه لم تسمح أن يلمسه أحد لأنها كانت متيقظة شديدة الانتباه لأمر كهذا تخشى غدر زوجها لاختطاف الولد ، ولذا كانت متمسكة به ولم تدع مجالاً لأحد غريب أن يلمسه لئلاّ يحتال عليها بدافع من زوجها وينتشل الطفل ، ولذا أوقفت له جميله ابنة صغيرة لتلاعبه قرب الدار وهي من بنات الجيران، كانت تلهو به وتلاعبه ريثما تكون قد اكملت اعمالها ..

حاول عادل بكل قوته ان يسرق الولد بأسلوب من دواهيه ولم يجسر ان

يتقدم خطوة للأمام لأنه كان مهدداً بالخطر ، لكنه لم يفلح في قصده لأن البنت التي كانت تلاعبه وتحمله متيقظة ومحذّرة من امر كهذا .. فلم تكن تسمح لأحد ان يمسه بأحد اصابعه ، كانت لا تثبت امام محاولة احد بل تهرب به الى المنزل وتسلمه لوالدته ..

ظل عادل يائساً بائساً لا عمل له ولا مهنة ، وقد عرف الناس الكثير عنه من مماطلات ومتاعب حتى انه لم يعد احد في مأمن من عمله لأية نتيجة يستفيد منها . فذلت نفسه لانخفاض وطأته ، واصبح زملاؤه يسخرون منه ويزدرون به ، ولم يعودوا يلتفتون اليه ..

أجل .. إن زملاءه كانوا يزاولون سخافة الأعمال ، فيطوون بعض الليالي عاكفين على الرقص والخلاعة كفتيان ضرب الجهل في رؤوسهم أطنابه ، لكنهم لم يتهاملوا في أعمالهم ، ولم ينتموا الى المماطلة ، أو الظلم ، أو الخلاعة السافلة ، بل داموا مواظبين على الجدّ والاجتهاد في تحسين أعمالهم ، ولم يماطلوا في اللهو دقيقة واحدة ، بل يجاهدون لتبيان نجاحهم لإفادة شاملة ترضي من يقومون بعمله — وداموا سائرين في أعمالهم التي تعود عليهم بفوائد جمة يصرفون منها القليل ويبقى الكثير ..

أما السيد عادل فقد نفى جميع الائتلافات اللائقة وراح ينطوي على تأملات بديهية يطيب قلبه لها دون أن يستفيد أية نتيجة تعود عليه بالخير على الأقل بشيء لزوجته وللطفل .. ودام على هذه الحالة عدة سنوات كان خلالها يتجول في الليل نحو منزل حمويه ليسمع صراخ الولد ولم يجرؤ أن يخطو خطوة للأمام لأن ضميره كان يبكته لعمله الصارم الذي قام به ..

وقد اشتدت جميله بضبط الولد عندما لاح لها أن والده مزمع أن يختطفه ، فظلت متحفظة بانضباطه بين يديها ساهرة على حياته نهاراً ، فليلاً ..

فلما رأى عادل أنه فشل بكل رجائه وأفعاله ، ولم يعد أحد يلوذ به

أو ينتمي اليه خابت آمـاله من العودة الى زوجته ، فعمد عنـد ذاك الى الهجرة .. صاح بنفسه ، الى السفر ، الى السفر ، واخذ يقول :

بـــلاد الله واسعة فضـــاءٌ فإن ضاقت بكم أرضٌ فسيحوا

نعم إن عـادلاً نوى نية السفر ، ولكن أنىّ له أن يسافر ؟ ليس له من درهم يقتات به .. ومن أين له ان يحصل على مصاريف السفر ؟ ..

هه ، فكرة جديدة طرأت على ذهن عادل وهي ..لم يبقَ لديه حيلة أحسن من أنه ينهض مسرعـــاً لأمه وأخته ويستغفر ذنبه معهما ، فبحسب دواهيه وتملقاته يذعن بتدبير وسيلة لتناول بعض الدراهم منهما لأجل مصاريف السفر.

ولا ريب في ان هذه الفكرة برهنت له انه مهما غضب الوالدان على الولد لا بدّ أن يغفرا له ، خصوصاً الأم التي هي ينبوع كل حنان ..

نهض عادل مسرعاً وجاء تواً الى والدته مفاجئاً وانحنى أمامها مقبلاً يديها مستغفراً ، مقراً بخطإه ، متوسلاً إليها ان تصفح عنه .. فرق قلبهـا له ... وقد لاحظت أخته أنه دخل المخـدع فأبت ان تسلم عليه ، أما الأم فجاءت تحرّض ابنتها على المسامحة وتردد عليها قول السيد المسيح ، إن اخطـأ اليك أخوك فاغفر له ..

تهافتت الأخت عند ذاك على أخيها فقبلته ، لكنها ما لبثت أن أخـذت تندد به على الاعمال السيئة التي قام بها دون ان تعود عليه بنتيجة تواجه الافتخار به كانت توبخه بثقل غضبها عليه فتقول له : يا للخيبة إن اعمالك هـذه أدت بنا الى الهلاك ، فبعد أن كنا نفتخر بك وبعلومك السامية أصبحنا نذل بك، ونـزدري بعملك ، سيما وقـــد خسرت مركزك في المصرف ، كنت سائراً بنجـاح من صعيد التقدم والفلاح ، فما دهـاك يا اخي حتى اضعت علومك ، فحططت من قدرنا وأنزلتنا في هوة الانخفاض ، فماذا تراني اقول فيما بعد ؟..

عادل — كفى ،كفى يا اختي ، دعيني اقبل يديك ويدي امي الحنون ،

بل أقبل رجليها لأنها استقبلتني في منزلها ، وغمرتني بحنانها ، فأنا مخطىء لا أستحق الحنان ، سامحيني يا أختي ، فأنا وحقك ارجو منك ومن امي بعض الكرامة ، إنني أقر بنفسي انني تابعت النقيصة، والرذيلة ، والشهوات، ولم اع لحق الدين والدنيا ، فأهملت الإيمان، وتركت المراحم ، فتعلقت نفسي بالمآثم بئست تلك المراحل، فقد رماني الله في وهدة الفاقة والعوز والقنوط، رب ! ما هذا يا اختاه ؟ لقد سدت الابواب بوجهي . ليت شعري ، اين زملائي ؟ اين اصدقائي الذين كنت احتاط بهم ؟ .. اين هم الذين كانوا يلازمونني نهاراً ، فليلا ؟ أين احبائي الذين كنت أبذر أموالي عليهم ؟ .. ربي ، إن من صروف الدهر خطباً جسيماً ، ولم يكن هذا الخطب علة للموت الطبيعي فحسب ، بل علة للانتحار .. ليت الشبيبة أن تدرس مثالتي فتعلم حياتي وتأخذ عبرة عني . .

أختي ، أختي ، أين هي امك ؟ .. بالله عليك أخبريني اين هي ؟ .

الأخت — هي في المطبخ ، ماذا تريد منها ؟ ..

أمي أمي أنا جائع كثيراً ، ارحميني ، أطعميني ، فأنا اشتهي لقمة من يدك ،سامحيني يا امي ، سامحيني ، فأنا رقيق تمنياتك ورهين إشارتك ...

يا للشؤم ، يا للعار ، فتى العلوم يشتهي الرغيف ..

١٣

حزنت الأم حزناً شديداً وتأثرت لتذالل ابنها لها فاغرورقت عيناها بالدموع ورقت له ، فاتجهت نحو الخزانة وأحضرت له ما لذّ وطاب من الأطعمة الشهية وقد انفطرت أحشاؤها لتلك الحالة التي توصل ابنها اليها .

بدأ عادل يتناول الطعام بشهية فائقة لأنه كان خائراً منذ الامس لم يذق الطعام ، فبعد أن شبع حمد أمه على معروفها وحنانها عليه . بيد أنه ما زال يفكر بمسألة السفر حتى أنه كان يطوي لياليه ساهراً عينه يقظة لا تنام ، وداعي الخجل يؤنبه لعدم جرأته بطلب بعض الدراهم من أمه ؛ وبعد جدال بينه وبين نفسه تفوق بجرأته على مكالمتها ..

في صباح اليوم التالي نهض عادل باكراً وجاء يمتثل رضاً بين أذرع أمه ، فنادى أخته وقال لها : اجلسي أمامي الآن يا أختي ، يا نور عيني أنت ، أصغيا إليّ فأكلمكما بطلبي ملقياً عليكما حديثاً ..

الأم – تكلم يا بنيّ ، فنحن آذان صاغية لحديثك .

عادل – أمي ، أمي ، إنني أخاطبك الآن كمن فقد الشعور ، فاعذريني ، لكنني بكل وقار واحترام اتكلم معك كامرأة تعرف الاحكام ، وغدر الزمان ، والاقدار ، وإني أقرّ بنفسي أن ما جرى لي من ثمول وخمول لم يكن إلا من سبيل الغباوة والجهل اللذين أتيا بي الى الانحطاط والانخفاض ، وأنا ألوم نفسي ، ولا أنكر أنني شققت طريق الآداب ، فشطرت الحياة

الصالحة التي نشأت على احضانك فيها ، بين ذراعيك كنت فخوراً ، مدعيا ، وهـــذا الفخر أسقطني في الوهاد ، كنت موظفاً فتهاملت بعملي وخسرت وظيفتي ..

أحببت فتاة حسناء فظلمتها ، وقد انكرتني لأنني تعديت على حقوقها ، والآن اصبحت مكسور الجنـاح كالعصفور المنتوف ريشه .. لا من زوجة ، لا من محبـــة أم او أخت ترويني ، حتى ولا من اصحاب انتمي اليهم .. لي زوجة وليس لي اتصال بها ، لي ولد ولا استطيع ان اشاهده ، فلتسقط عليّ الهاويـة ، الى الجحيم يا أمي ، الى الجحيم ؛ لم أعد أجد لذة في الحيـــاة ، والملذات ، والمتنزهات ، وغاية كل سرور في هذه الحياة الدنيا ..

إنني أقف خارجاً لأسمع صوت الطفل فيختلج قلبي ، أقف صامتاً وراء النافذة تحت القبة المتلألئة بالنجوم السائرة في الفضاء أتوق شوقاً الى نظرة من ابني الحبيب ولا يمكنني ذلك لأن أمه ضابطة به بين ذراعيها فلا تسمح لأحد ان يمسّه ، ولو لم اخشَ البطش باغتيالي لهجمت اليه كالذئب المفترس واختطفته من بين يديها .. آه يا أمي ، فمـاذا سيكون من حالتي فيما بعد ؟ . فلأنتحر واخلص من هذهالحياة الدنيا .. وإلا فإلى المهجر ..الى المهجر ..

سافر تجد عوضاً عما تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصبِ

الأم – وهل زوجتك ولدت غلاماً يا بني ؟ ولماذا يرومون اغتيـالك ؟

عادل – أنا المجرم يا أمي ، وقد حاولت اغتيالها لأنها لم تلتحق بي وتسير وراء أهوائي ، فأنكرتني ، وقد ولدت غلاماً ودعته منيراً على ما يقال ، حسبما تراءى لها في حلمهـــا أحد الأولياء فأنبأها بولادته وأشار لها ان تسمّيه منيراً ..

الأم – أصحيح هذا يا ولدي ؟ فاذا كانت تحوي كل هذه الصفات الحسنة، جميلة ، فتانة ، ولِمَ لم تتفق واياها وتعيشا عيشة مرضية بين الله والناس ؟

عادل – أمي ، بربك لا عدت تسأليني سؤالاً كهـذا ، فقد تقطع قلبي

وانغمست بأحزاني ، فأنا والله ظلمتها ، نعم فإنني ظلمتها ظلماً فوق ما تحتمله حتى انها نفرت مني نفوراً ، ولم تعد تقوى على سماع صوتي ، وقد لا يحلو لها التطلع الى رجل آخر سواي ، بل نذرت العفة وتجندت للعبادة حسبما تفهمت من احـــد اصدقائي الذي يؤم منزلهم بعض الاحيان حاولت اغراءها ، وبذلت كل ما في وسعي للانضمام اليها ثانية ، فلم أنجح ..

كلفت بعض الاصدقاء للتحدث معها ، وعبثاً حاول الجميع السعي لقضية الاتفاق ، وهذه الصعوبات جميعها تنخر عظامي حتى أنني أبيت أغلب الليالي ساهراً ، يقظاً ، لا أذوق لذة الكرى .. فماذا تريدين أن أعمل يا أمي ؟.. أأنتحر ؟ أم أسافر ؟ فقد انهارت قواي لقلة النوم .. هوذا مسدسي أمامي يقودني الى حتفي ..

الأم .. ويحي .. وكيف تتلفظ بالانتحار ؟ وهل هو بالسهل عليك وعلي أمر الانتحار .. وهل تروم أن تحرق قلبي ؟ أمـــا كفاني حرقة على أبيك وأخيك ؟.. فلا تتلفظ أمامي بكلام كهذا يا عادل ، فهذا قول غبي جاهل، كفاك غباوة وجهلاً ..

إذاً ماذا تريدني أن أعمل ؟.. أتريديني أن ألازمك متعطلاً صفر اليدين أطلب منك الدرهم والدينار ، أم أن تسعي بسفري فأعمل وانجح وأعود الى عنصري الأساسي ؟

الأم .. الى أين يا حبيبي هذه الهجرة ستكون ؟

عادل .. إلى الولايات المتحدة .. الى شفيق ابن عمي ..

الأم .. إن السفر يا ولدي يلزمـه كثير من الدراهم لاجـل المصاريف ، فمن أين لك أن تحصل على هذه الكمية ؟

أمي .. إن التدبير هو تدبيرك ، والامر والنهي همـــا منوطان بك ، إعلمي أن الدنيا بأسرها لم تعد تسعني لأبقى في هذه البلدة .. ارحميني بربك ودبري لي دراهم السفر فأنا أحني هامتي لتقبيل ركبتيك ..

الأم .. عفواً يا حبيبي ، فمن أين لي هـذا كله ؟ فلسوف أطلب لك تكميل كمية من خالتك فريدة مع ما هو حاصل معي الآن فيتسنى لك التيسير للسفر .. ولكن هل تراني أقوى على فراقك يا ولدي ؟.. وكيف وأنت وحيدي ، وولي عهدي سوف تفارقني وأنا في نهاية عمري ولا أمل لي أن أشاهدك ثانية . أنظر أختك كيف أنها عندما سمعت أنك تروم السفر أخذت تبكي ، عُد اليها وخاطبها فهي ولا شك ملتاعة بمشاعرها الاخوية التي تحثها على التأثر لفراقك ..

تعالي يا أختاه فنتحدث قليلاً قبل أن يحين موعد السفر ، أنا الآن على أهبة الفراق ، وسوف أترك وطني الى المهجر لأعمل وانجح يا أختاه ، وكما قال أحد الشعراء :

ما في المقام لذي لبٍّ وذي أدبٍ ... محبةٌ فاترك الاوطان واغتربِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ

ولو لم يكن هذا الشاعر قد وجد لذة في السفر لم يكن ليمدحه في شعره، ولسوف ترين مني النفوذ والرموز التي تشكل نجاحاً باهراً ، وإقبالاً وطمأنينة ، وفي النصب لذة الحياة السعيدة ..

أتركي هامشاً يا أختي عن أيامي الماضية وعن حياة الوطن ، وأسرعي بربك وهيئي لي مصاريف السفر ودعيني أنصرف متزوداً برضاك ورضا والدتي .. يا حبيبتي ، يا أختي ..

الاخت .. دعينا يا أمي نوافق على سفره ولا نعاند المستحيل .. زوديه برضاك وأسرعي الى نهضته كي لا يساورنا الندم فيفتك بنفسه يوماً وينتحر وتكون إذ ذاك الطامة الكبرى ..

نهضت الأم لساعتها وتدبرت له ببعض الدراهم وإن يكن ذلك عكس ما تتمنى ، ولكن نظراً للغاية التي كان يهدف اليها ، وإنها زعمت أنه لا بدّ أن يعوض عليها يوماً أضعاف ذلك .. وكان له ما أراد ، فاستلم الدراهم من أمه

وتأهب للسفر ..

فلما كان عليه أن يرحل مودعاً قبيل منتصف الليل حاول أن يشاهد الولد ويقبله قبل سفره ، فلم تسمح أمه بذلك خشية من أن ينتشله منها ..

ثم عندما حان موعد الفراق ودّع عادل أمه وأخته .. وبعض أنسبائه بالقبلات الحارة ، سار مهاجراً على بركة الله ..

وصل الى الولايات المتحدة بسلام حيث حضر لملاقاته ابن العم شفيق .. فرحّب به وأنزله في داره .. وشرع يعمل في محله، وكان بمثابة أخ مخلص له..

وقد سرّ شفيق بابن عمه سروراً عظيماً ، سيما وإنه شاب متعلم فتوسم فيه الذكاء ، ووطد آماله عليه ليقتضي إدارة المحل .. وأقام عادل عند ابن عمه شفيق عدة سنوات .. وكان شفيق شاباً تقياً ، وفياً مجاهداً في الحياة .. أخلاقه سامية .. مرتفعاً بمركزه لافتتاح محلاته .. موفور الكرامة ، محبوباً من كل من يعرفه .. أميركياً كان ، أم لبنانياً ..

أخذ عادل يعمل في محل شفيق بكل اجتهاد .. فتعلم اللغة الانكليزية بأقرب وقت يمكنه .. وأخذ يتعاطى مع الشعب الأميركي ، وكان محبوباً منهم لطلاقة لسانه وأسلوب أحاديثه ، بيد أنه لم يكن يفطن أن له طفلاً صغيراً يتطلب مبلغاً وافراً من الأموال لتغذيته لبان المعارف والعلوم .. بل كان يندفع للمراسلة الى زوجته فيرسل لها كتاباً تلو الآخر يوصيها بالطفل المحبوب ، أما هي فكانت بعد ان تفض الكتاب وتفهم معناه تمزقه تمزيقاً ولا تكترث بأقواله الفارغة ..

إن في ذلك سراً غريباً ، فقد مضت السنون الطوال على عادل في المهجر ولم يتبين من عمله أي نجاح ، ولا أية نية لإرسال بعض الدريهمات لابنه الذي كان يحلم به ، بل دام يصفف كلاماً بكلام بكتاباته لها ويعيرها مواعيد كمواعيده السابقة .. فصرف معظم حياته في المهجر ولم يتفقد حتى ولا والدته بشيء من استرداد الدراهم التي تلقاها منها .. فتعلقت نفسه بفتاة

شقراء أميركية الجنس وطار عقله بها فسارت على أهوائه ، فكأنه تبع قول من قال ، من تأنى نال ما تمنى .. فعاش سعيداً مع تلك الفتاة الشقراء رافلا بالهناء والمسرات دأبه الذهاب الى الملاهي والمراقص ولم يثبت على حال لمصارعة حياة قويمة تضمن له العز والافتخار ، ومع توالي السنين طوى عنه الدهر هامشاً ولم يعد يعرف عنه شيئاً فيما بعد لأن أخباره انقطعت لعدم استجابة التحارير التي كان يرسلها لزوجته حتى ولأمه ولم يعد يذكر لها فضلا .. وقد سرّت جميله لسفر زوجها عادل ، فهدأ بالها من قبيل الطفل ولم تعد تنزعج لهاجس يقلق أفكارها من التيقظ لأمر اختطاف الولد .. فسلمت أمرها لله العظيم ودامت مواظبة على كل عمل تقوى عليه لتأدية الواجب لوالديها وتربية الولد ..

ففي ذات يوم خرجت الأخت رندا في صباح الساعة الثامنة لقضاء بعض الحاجات .. وما إن اجتازت بضع خطوات وإذا بساعي البريد يناولها كتاباً مزيفاً بالسواد .. فاستلمته برعشة اصطدمت بخبر سوء ينبئها فيه الأخ بديع عن وفاة الأخ يوسف .. فلما تلاه أحد الجيران أنبأ عنه أنه قد اعتراه مرض عضال حال دون شفائه فأعيى الأطباء فأخذ بحياته ، وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة صاح يا أماه .. وأسلم الروح ، حملت الكتاب رندا مولولة ، وقام الجميع بالصراخ والعويل نائحين على شبابه ..

أما جميله فكانت تضرب على رأسها وتلطم خديها محترقة لوعة على أخيها الذي أبدى نحوها كل رقة وحنان ، وكان يتفقدها بكمية من الدراهم فترة بعد أخرى لأجل تربية الولد .. أخذت ترثي أخاها بالحزن العميق ، وقد تفتتت أحشاؤها بمرارة وحسرة حتى كادت تفقد وعيها ، تلوم الدهر الغدار الذي رماها في الأقدار .. وعذاب النفس ، وهو العذاب الذي أنحل جسمها وأذاب قلبها ..

نعم : إن الاخت جميلة بكت ، وقد بكت بكاء مريراً فقالت : ويحك ايها الدهر المشؤوم ، أما كان أصلح بك أن تنتزع حياتي عوضاً عن أخي ؟

أخي حبيبي ، يا من كنت تحنو علي فتعزيني،فانى لي من بعدك أن القى تعزية ؟
لقد حرقت قلبي يا أخي ، فمن ترى يطفىء لهيبي ، وأردفت تقول :

أعيني جودا ولا تجمدا   أما تبكيان الفرقدا ؟

لهفي عليك يا فرقد حياتي ، ومؤآساتي ، فقد أودعتني التلهف والانتزاع رحماك يا اخي الحبيب، ابعث لي اليك، ولا تطل المدة علي .. ارثيك بالدماء يا رقيق القلب .. يا غصناً يافعاً يرثى لشبابك ، قد حملتني من التحسرات ما لا تحتمله نفسي ، رحمك الله .

حزني عليك دائم ، لا ينقضي   وتصبري مني علي تعذرا ..

كان لذلك المأتم وقع عظيم تأثر له الجميع تأثراً عظيماً ، فأخذ الناس بالتعزية والمؤآساة للوالدين الحزينين اللذين فجعا بتلك النكبة الصاخبة وأخذوا يحرضون جميلة على الصبر ويخففون من وطأة الحزن والأسف عليها ..

مسكينة جميلة ، فقد تذرعت بالصبر الجميل ، غير ان العوامل التي كانت تتأثر بها لفقد أخيها نزعت من فؤادها كل سرور وانشراح،وتصدت للاكمداد والكآبة حتى انه لم يعد يحلو لها أن تتفوه بكلمة ، فباتت تختلي بنفسها مسترسلة بالدموع ليس لها من يسليها ولا من يعزيها سوى النظرة من طفلها العزيز الذي كانت تأنس به ..

قال الرجل لصديقه : ليتني ما عدت اسمع حديثاً عن هذه السيدة ، فقد مررت قلبي بالاسف عليها لمعاندة الدهر لحالها ...

١٤

ولدى هذا الطارىء المؤلم الذي صدع خاطر الوالدين وأنهك قواهما ، فقد وجدا أن في الحياة نقاط ضعف وأياما خطرة ينطوي فيها الانسان على كيفية الطوارىء التي فيها يتشاءم من حياته ، فينكمش بذاته ، وبالأحرى فان الحزن اذا تضخم على النفس يفتك بها ويذهب بحياة إنسانها وليس من فائدة لاحتباس النفس ، واكمداد القلب ، والانفعـالات التي تضني الجوارح وتقوي السقم في أعصاب الجسم .

وعليه فبعد أن عاين الوالدان حالة اليأس الشديد التي انسابت اليـها جميلة من جراء الحزن على أخيهـا الذي هدم أركانها اعتراها الخوف على حياتهـا ..

فبعد أن تبدلت افراحها إلى أكدار اختلف مزاجهـا واصبحت بانزعاج عظيم حتى انها انقطعت عن الطعام وأمست تواجه نوبة بعد اخرى ..

دبّ الرعب في قلب والديها خوفاً على صحتهـا ، فدنا منها الوالد وطيب قلبها بعبارات لطيفة قائلاً لها « هدئي روعك يا ابنتي ، ولا تيأسي من حكم الاله ، فليس باليد حيلة ، هو الواحد الجبار ، يحيي ويميت ، يأخذ ويعطي..

إنهضي وتعالي اليّ يا ابنتي ، كفاك دموعـاً ، يا من ذبلت بغير اوان ، وحملت القهر والهوان، واصطدمت بطوارىء الزمان..اراك منهوكة الاعصاب لا سؤال منك ولا جواب ، فأخشى عليك من قـارع الباب ، في وقت لا أحسب له حساباً .. أنت انسني ، بـل جليسني ، يا حبيبتي ؟ يا بنيتي ،

تعالي الي وتلقي الدريهمات كالتي كان يرسلها اليك أخوك يوسف ، وأنا اعدك أنني سأناولك إياها فترة بعد أخرى فضلا عما تمكني يدي لعدم التغفل عنك، ففي الآن يا ابنتي واغسلي وجهك ، ولا تذبلي ، كفاك ذبولاً ، فالذبول علة مؤثرة للنفس السحيقة .. أسرعي وهاتي بولدك منير الذي يتلهى بين يديك ، هيي الينا نتسلى ببعض أحاديث تنفي عن قلوبنا بعض الأحزان ، فوالله ان احشائي تقطعت ، والحزن اضناني ، ولست بقادر ان اتمالك نفسي ، هاك امك داخل الغرفة تبكي ، تعالي يا ابنتي فنؤآسيها ، ولا يجدر بنا الا ان نستسلم للصبر الجميل لأنه ليس لنا فائدة من هذا الحزن كله .. أسرعي اليها الآن فهي لا تبكي على اخيك فقط ، بل وإنها تتفطر حزناً وخوفاً عليك ان المصيبة يا ابنتي تبدو كبيرة ثم تصغر ، ولا مفر من حكم القضاء ، فنحن خاضعون لمشيئته تعالى ، وهو ما شاء فعل ..

انتعش قلب جميلة نوعاً عندما طرأ مسمعها ذاك الكلام الذي جبر قلبها وكفكف دموعها ، فخضعت جاثية على قدمي والدها وقبلت يديه وأسرعت عند ذاك لتعزية امها ومؤآساتها وهدأ الجميع صامتين خاضعين للاحكام الالهية.

ثم بدأوا اعمالهم كالمعتاد ، وعكف الوالد على اعماله حيث كان العمال بانتظاره ، فازداد عليه الطلب للمقاولات ، وكان كريماً يكافيء العمال فوق ما يستحقون ، ويرضي كل واحد منهم حسب اهليته .. فتوسع بادياته وقام بكل ادارة عمل تطلب منه ، ان كان في داخل البيت او خارجه « والحق يقال » أنه كان العامل الوحيد لردع الكآبة والانقباض عن قلب ابنته جميلة ، ولا ريب فان جوده وسخاءه عليها كان وسيلة لأزالة الهموم عن صدرها ، فضلاً عن انه كان يبذل كل غال وثمين في سبيل مرضاتها ليجعلها مرحة ويروح عن قلبها الهواجس والافكار ..

ولت الأيام والشهور والسنين فتناست جميلة جميع انتزاعات الدنيا ، فطفح قلبها بالسرور لمداعبة ولدها والتلاعب معه الذي كان يبعد عن ذهنها كل الافكار والاقدار ..

املت بحياة سعيدة دائمة المحبة لوالدها الذي كان يتمنى لها أوقات الهناء والصفاء ، ويوفر لها اسباب الفرح والانشراح ...

عادت جميله الى المرح والضحك والهزل ، وتناست جميع انتزاعات الحياة التي كانت تسبب لها النحول والنوبات العصبية التي كانت تداهمها وتحطم قواها ، كانت لا تألو جهداً لاستعمال اية وسيلة تضحك بها اباها لتبعد عن قلبه التفكير بابنه .. والتأثير على شبابه رغم انها كانت اشد تأثيراً من ابيها، وانها لشدة انعطافها لمحبة والدها كانت تسرع لملاقاته عند رجوعه من العمل ولا تبطىء بإحضار الماء الساخن، فتغسل وجهه ويديه ورجليه، ولا تتوانى عن تسيير الاعمال التي ينبغي ان تلتحق بها ، فتحضر له ثيابه البيضاء ، يلبسها والضحك ملء شدقيه ، فيشكر لها همتها النشيطة والتفاتها اليه والاعتناء به ..

ولدى ارتياحه من التعب كانت تقوم له بمهرجان لتسليته وتريح نفسه من عناء التعب ، وبعد ان ينتهي من طعام العشاء كان يضمّ اليه الطفل منير ويستأنس بقبلات وافرة من وجهه المحبوب ، ويعزي امه به .. ودام الحال على هذا المنوال حتى جاوز منير الخمس سنوات .. وبدأ يذهب الى المدرسة ..

في صباح يوم من أيام الربيع الزاهرة نهضت الأم من نومها مذعورة مقبوضة القلب لا يحلو لها أن تخاطب ابنتها ، ولا تلاعب الولد الذي كان يتراكض اليها لتلاعبه مراراً عديدة وتسرّ به ..

فأسفرت عن التحدث واختلت بنفسها سابحة في تيار هواجسها ، ولم تكن تقوى على تمالك نفسها كأنها تروم البكاء .. جاءت اليها الابنة جميله فقالت لها .. ما بك يا أمي ؟.. مالك كئيبة؟. فهذا ليس من عاداتك ..

أجابت الأم .. لا عليك يا ابنتي ، دعيني وشأني ، فانني منقبضة القلب، أرى الدنيا في وجهي كالخيال ، وكالظلام الدامس ..

فقد تراءى لي حلم أزعجني وأقلق راحتي وهو .. أن غراباً حطّ فوق بابنا وأخذ ينعق ، وها أنا الآن تائهة في تحيراتي أخشى وقوع أمر خطير يلمّ بنا ، وماذا سيحلّ علينا من اضطراب ..

ارتعدت فرائص جميله فقالت ، أمي .. لقـــد قفلت قلبي ، وانهكت عزيمتي لهذا الحلم المخيف .. عسى أن لا يتبين لنا تفسيره .. هدئي روعك يا أمي ، ربما كان ذلك اضغاث احلام ، سلمي امرك للاله العظيم وهو يدبر الأمور ..

في تلك الليلة بعد ان عاد سالم الى منزله عند المساء هادئـــاً ناعم البال اجتمع اليه افراد اسرته رندا وعائلتها .. سميره وعائلتها ، فصرف الجميع تلك السهرة بين هرج ومرج ، وسرور حتى منتصف الليل ..

انصرف الجميع الى منازلهم جذلين فرحين ، اخذت الأم تشكر ربها ، وجميله تحمد الله لعدم تفسير الحلم لوقوع حادث خطير يلمّ بهما ..

قال الرجل ، تباً للدهر الخؤون ، يفتك بالأبرار ، ويرحم الأشرار .

*

١٥

في اليوم التالي بينما كانت الأم وابنتها جميلة واقعتين بحيرة لتصدي الحلم الذي أقفل قلبيهما لانتظار وقوع حادث خطير .. وقـــد حمدتا المولى لعدم تفسيره ، وفيما هما كانتا تتحدثان مـــع الأخت رندا تجاه الباب ، إذا هما تفاجآن بأحد عمال الوالد سالم قرب الساعة الثالثة بعد الظهر وهـــو مصفرّ اللون ، شاحب الوجه ، مدهوش العقل يصرخ بحدة ويقول ..

افتحوا الباب ، سيدي سالم ، سيدي ، سيدي ..

ارتعدت فرائص الأم فوقعت على الأرض مغمياً عليها ..

صاحت جميلة مولولة ، وماذا أصاب سيدك ؟ مالك تقول سيدي ؟ ماذا ألمّ به ؟.

أجاب والدموع تنهال على خديه ، إن سيدي انهار الجدار عليه فتساقط من القبة وتوارى في الردم مـــع أحد العمال الذي هو بين يديه .. صفقت جميلة على خديها مولولة ، وأسرعت تتهادى الى منبهات تعالج أمها بهـــا ، فتراكضت الأخت رندا وزوجها لمساعدة جميـــلة على الحالة التي ألمت بالوالد والوالدة ، وما إن استفاقت الأم وهدأت قليلاً حتى جيىء بالوالد سالم قتيلاً محمولاً على لوحة واسعة ..

وما إن شاهدت جميله هذا المنظر حتى ركضت ترمي نفسها فوق والدها

وتقول .. ارحموني ، ادفنوني معه ، يا لحزني ، يا لبؤسي ، يا لتعاستي ، مالي وما للحياة فيما بعد ..

دق جرس الحزن فتواردت الناس من النواحي المجاورة ، وأسف الجميع لوفاته لأنه كان رجلاً صالحاً .. تراكضت ابنته سميره وركبتاها لا تحملانها لشدة الرعب ، فأقبلت مــع زوجها فايز يرثيان الوالد بالدموع الغزيرة وانسحاق النفس ، وبعد أن خلعوا عنه ثياب العمل ألبسوه الحــلة البيضاء وأقاموه على مرتبة تليق به ..

شرع الجميع ينوحون عليه ويرثونه بالدموع السخينة معددين أوصافــه خصوصاً زوجته الحزينة التي انهارت قواها للمصاب المؤلم .. حينئذٍ خرّت جميله أمام جثمانه وأخذت ترثيه من قلبها المحروق وتقول :

أبتِ ، إنني أرتجف ارتجافـاً حين أذكر تلك المفاجأة العصيبة المؤلمة ، أي مفاجأة المنية بانهيار الجدار عليك ، وقـــد جيء بك إلي جثة هامدة ، أتراني أنسى ذلك ؟ لا لعمري ، بل وإنني أقف أمـــام رمسك الطاهر مكسورة القلب بلا حنان ، ليس من يـــأخذ بيدي في الملمات ، ولا رفيق استعين به على الطوارىء .. أبتِ إن الضربة قاسية علي وعوامل الحزن تتنازع فؤادي ، فأرثيك بالدماء ، وإن لساني المتلعثم لعاجز عن أن يجود في رثائك يا عضدي ، ويا نصيري ، مالي أرى الدنيا في وجهي ضباباً ، بـــل سراباً ؟ لمن أشكو يا إلهي ؟ .

أين من كنت أشكوه ضيمي وقلبه علي رقيب ؟ ونفسي اليه تطيب ، ربّ ها هو أمـــامي صموت ، وقلبه يحدثني بسكوت .. آه يا والدي .. يا رجاء حياتي وصبوتي ، وجابر كسري .. إن الحزن الذي استحوذ عليّ من جرّاء فقدك أجهز على دماغي فأفقدني عقلي ، واصبحت مشتتة الافكار لا أقوى على التعبير لشدة انفعالي وتأثيري لهذه النكبة الصاخبة ..

كنت أؤمل أن ترافقني الحيـــاة ، وتشاطرني أحزاني وتكون عضداً

لولدي ، ولكن الموت الذي لا يرحـــم كبيراً ولا صغيراً قصف ظهري ودكّ معالم آمالي وأحلامي ..

تتجـــدد آلامي وأحزاني كلما فكرت أن الطبيعة كانت قاسية عليك فاختطفتك من أمامي بقليل من الوقت . وخلفت لي الشجون ، وحسرات المنون ، فكانت أقسى علي ، لأنها لم تكسر قلبي فقط ، بل قلبي وحياتي ، يا أبي ، لا أنسى ما حييت عطفك علي ، حنانك وذكرياتك ، عطفك على ولدي واعتنائك به ، فالى من ألجأ فيا بعد ؟.. ربي، أهي سخطة أم صاعقة ؟ لست أعلم ، لست أدري ما أقول ، ليت شعري لو أن الموت كان لي فمت فداءك يا والدي المفضال ، وهـــل انا سأعيش طويلاً من بعدك ؟.. لا ، لا يا أبي ..

هي المرة الأخيرة أخاطبك بها وأنت صموت ، أما تردّ علي ؟.. وهـل انت ما زلت غاضباً عليّ ؟ سامحني يا أبي ، بالله عليك .. انت لم تنظر أحداً يتخبط بنزاعه ، قم الآن وانظر نزاع ابنتك الحزينة ..

إنني انحني الآن أمام ضريحك ، مقبلة أعتاب لحدك ، رحمـــاك يا أبي ، رحماك ، استودعك الله يا والدي الحنون بقبـلات النزاع العامل في داخلي ، فالى اللقاء ، الى جنان الخلد ، الى الملكوت السماوي ، أراحـــك الله بجوار الابرار الصالحين ابداً آمين ..

إذا ذكرتك يومـــاً قلت واحزنا	ومـــا يرد عليك القول واحزنا
يا سيدي ومراح الروح في جسدي	هـلا دنا الموت منك حين مني دنا
يا أطيب الناس روحاً ضمه بدن	أستودع الله ذاك الروح والبـــدنا

ساد الحزن في أرجاء المنزل ، وأبت الوالدة وابنتها أن تتعزيا لان رجاءهما قد خاب ، وآمالها انقطعت ، راحت الأم مستمرة في النوم ، ملقـــاة على فراشها تتنازع بآلامها التي انهكت قواها وحطت من عزمها ..

أما جميلة فتلاشت وانهارت أعصابها ، فباتت أسيرة التهتك والهوان ،

ونبذت أمور الدنيا بأسرها ، وأسفرت عن التحدث مع الناس لان الحزن الذي استحوذ على مشاعرها كان يثير في مخيلتها الهواجس التي تمثل لها والدها يخاطبها ، فتغيب عن رشدها وتناجي الخيال . كانت تختلي بنفسها وتناجي تلك الروح العطوف فتقول ، تجلـّي علي يا روح أبي ، واعطفي علي كما كنت تعطفين في الحياة .. فاذا كان جسدي يحبس نفسي عنك ، لا كان الجسد ، ولا كانت الحياة ..

لكنني وكيف بي أن أعمل لاستأصل كيان الثمر لحيـــاتي وحياة ولدي ووالدتي ؟ هل نقدر أن نحيا بلا غذاء ؟ كلا ، ان الله سبحانه عز وجل قد نصّ لنا في كتابه المقدس أن نحفظ العدل ، وما هو العدل ؟

فكما أن الحيوان هو من مخلوقـــات الله يفلح ويعمل ويتناول طعامه من صاحبه ، علينا إذاً أن نعمل ونجهد ولا نتوانى عن الكفاح في سبيل إنقـاذ نفوسنا من الفاقة والعوز ، والآن فانا أحلـّل الامور بنفسي ، أقول ، ان أبي توفى رحمه الله ، وقد فقدنا خيره وعطفه وحنانه ، فهل يجوز ان نموت نحن الثلاثة بلا طعام ؟

إنني أرى ان الارض تستمد نورها من الشمس ، ثم تمدّ غيرها بالمثل قوة ونوراً ، فكما ان الطبيعة تعمل وتجهد ، فعليّ اذن ان أسعى وراء عمل آخذ منه وأعطي كما ان الجميع يأخذون ويعطون ..

كان علي ان أنهض للجهاد قبل وفـــاة أبي ، لكنه رحمه الله لم يحوجني للجهاد، اما الآن فالى الجهاد ..

ترى ، ماذا يمكنها جميلة أن تعمل ؟ إنها ليست متعلمة ، ولا خياطة ، وما هو الشيء الذي يمكنها ان تتوصل الى عمله ؟ وما هي النتيجة التي تدفعها للتغلب على تحصيلها ؟

يتراءى لنا ان جميلة كانت تتحسس بأمور شريفة ، فعمدت لزيارة بعض الاساتذة الاميركيين الذين يتعاطون مهنة التدريس في الجـــامعة الاميركية

طلبت ان تكون كمربية أو كمساعدة للعمل عند أحدهم ، أو أي عمل كان يمكنها ان تقوم به بأود أمها وولدها ، فقبل دعوتها أحد الاساتذة وشجعها على النهضة التي أقبلت عليها ..

جاءت الى أمها وهي غارقة في تيار أحزانها ، مرتبكة في مراحل الحياة التي فيها توقفت مداخيل الانتاج ، وقطف الاثمار التي كانت تمضغها بـلذة الطعم من وراء زوجها .. فأصبحت كالطير المكسور الجناح تجود بذرف الدموع أمام ابنتها تحسراً على زوجها وفضيلته وأفضاله غصت جميله بالبكاء ، وأخذت الاثنتان تندبان سوء حظهما لتلك النكبة المفجعة .. فبعد أن مكثتا برهة من الوقت صامتتين شرعت جميله تطلع أمها عما هي عازمة أن تعمل ، وإنها تدبرت العمل عند أحد الاساتذة الاميركيين وسوف تبدأ عملها في الاسبوع القادم ..

الام .. ماذا سيكون عملك يا ابنتي ؟ .

جميله .. إنني لست بمتعلمة ، ولا خياطة يا أمي .. ولو قصدت أن أعمل لوجدت شتى الاشغال يمكني عملها .. مثل إدارة منزل، كوي،طبخ، رثي.. أشغال يدوية وما شاكل .. فأكون بذلك قد تدبرت بإعالتك وإعالة ولدي وتخلصت بفضل ربي من الفاقة والعوز ..

الام .. حسناً فعلت يا ابنتي .. ولكن ابنك ، الى أين مصيره ؟

جميله .. إن ابني هو الآن في الخامسة من عمره يـذهب الى المدرسة ، ويظهر لي أنه راغب جداً في الدروس الابتدائية عسى أن يكون منه خيراً سأكلف ابنة الجيران تعتني به وتلاعبه فأدفـع لها أجرة بسيطة (زهيدة) أنت تطعمينه وتراعين ظروفه .. أما أنا فليس من الصعب علي أن أعمل في منزل الاستاذ الاميركي عملاً بسيطاً أقوم به من الصباح الى المساء فقط وأعود الى مـنزلي أواظب على صحتك ، وأضم ولدي الى صدري وينتعش قلبي برؤيته ..

كان منير وهو في الخامسة من عمره يغدو باكراً يسرع الى أمه لتغسل وجهه ويديه ، فيرتدي ثيابه ويذهب الى المدرسة بكل رغبة دون أي دافع من أمه ، ولم يكن يحتاج أحداً أن يلقنه كلمة في دروسه ، فوهبه الله نبوغاً وذكاءً ما عليهما من مزيد حتى أنه ما ان جاوز الست سنوات حتى أصبح يقرأ الكتب ، وجادت به القريحة فأولع بالعلم منذ نشأته ، وما انفك يسير سيره للأمام حتى حاز الدرجة الاولى بين رفاقه ، فأكمل الدروس الابتدائية غب انتهازه السنة الحادية عشرة من عمره ، كان خلالها قد أتقن اللغتين العربية والافرنسية .

عند ذاك طلب من أمه أن تسعى بإدخاله الى الجامعة الاميركية كتلميذ مُساعَد .. ما برحت جميله تشكو أمرها لحضرة الاستاذ الذي كانت تعمل عنده وتطلب منه إدخال ابنها الى الجامعة المذكورة حتى كان لها ما أرادت .

دخل منير الى الجامعة كتلميذ خارجي ينصرف الى منزله كل مساء ، ومن الغريب ان اجتهاده تفوق على تلامذة صفه حتى انه كان يقوى على إضافة درس سنتين لسنة واحدة ، فلمع في بريق ذاكرته وجهاده ، وتعشق العلوم حتى انه كان يعنى منه عندما كان يجلس امام مائدة الطعام يضع الكتاب امام الرغيف ، كان يأكل اللقمة وعيناه تمارسان المطالعة ..

وبعد ان نال الشهادة في القسم الاستعدادي high school (هاي سكول) انصبّ بكليته على الدرس لاجتياز مرحلة اربع سنوات ليحصل على الشهادة العليا بكلوريوس علوم (B. A.) ..

قال الرجل ، مسكينة تلك الفتاة المنكودة الحظ كيف انها فقدت حنان والدها وعطف اخيها واضحت في بحيرات الخيال تسبح ولم يعد لها من الآمال مربح ، حقاً انها فتاة نشيطة ابية النفس والله كان وليّ امورها .

١٦

نعود الآن الى عادل فانه بعد ان حاول المكاتبة الى زوجته بإرسال عدة تحارير ولم يحظ منها بجواب فقد قطع المكاتبة لانه فشل بمراسلته دون أن يمدها بنتيجة تعود عليها لمنفعة ولدها.. إن له ولداً يتوق لرؤيته ولا يعرفه..

حاول أن يطلب حضور زوجته وولده اليــه بواسطة سيادة المطران ، لكنه لم يفلح لانه لم يكن يشعر بنفسه أن زوجته رفضته رفضاً ورفضت كل رجـــل لاجله ، أما هو فكان يزداد تحمساً لطلبها ، سيما وإنه تبلغ أن ابنه اصبح شاباً يافعاً نابغة العلوم ..

ولا غرو إن قلنا أن سيادته أعجب بقلمه السيال المتضمن تلك العبارات المزدوجة ، وبراهينه المؤكدة له صدق مواعيده ، وأقواله عن الاصطلاحات التي تبين فيها من نجاح وإقبال طيلة اجتيـــاز مرحلته في ربوع اميركا ، ولا ريب فان سيادته لم يقف منه على تلفيق أقاويله الغرارة لانه لم يكن خبيراً به ، ولم يعثر على إغراءاته وخزعبلاته ، لكن كتاباته البليغة برهنت لسيادته كل جودة وطيبة من ترياق حديثه وطلاوة لسانه ولما كان عادل لم يعطِ بعض الامل بتحسين تصرفاته وبحسب وضعيته التي لم تدفعه للاهتمام بتدبير شؤون ولده المدرسية وخلافها لم يكن له ولامه بعض الثقة بصحة أقاويله ، لم يندفع إذ ذاك منير لاستجواب والده حتى ولا بوجه من الوجوه لانـــه كان يعيره كلاماً بكلام ، ولم يخطر على باله يوماً ان يمده بكمية من المال يستعين بها لاجل مصاريف العلم .

فلما كان عبثاً يحاول إغراءاته لزوجته ولابنه اغتاظ اغاظة شديدة ، فرفع دعواه الى المطرانية الكاثوليكية ملحاً بطلب زوجته وولده ..

وقفت جميلة مستندة الى جدار منزلها تضحك مقهقهة ، ولم تعر انتباهاً لسيادته ، ولا لقراءة أي كتاب حتى انها كانت تأبى مواجهة سيادته وترفض تلاوة الكتاب ..

وإذا القلوب قد تنافر ودّها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبرُ

قصد الشاب منير زيارة سيادته دون أمه تلبية للطلب المشار اليه ، فبعد ان وصل اليه انحنى لتحيته وجلس على كرسي أمامه ..

أردف سيادته يقول : هيا بك للذهاب مع والدتك الى أبيك ، وأخذ يصف له سيرة والده وما هو عليه من وفرة المال الذي أمّنه لشراء بنايتين فخمتين ، وان له كل القصد ان يسجل البنايتين باسمك وباسم امك .

وقد بالغ سيادته ملحاً على منير بالتحدث لإقناعه فقال : أنا أنصحك يا ابني أن لا تتأخر بتلبيته ، هوذا كتاب منه فاستلمه واقرأ تلك العبارات اللذيذة ، فلا يجدر بك الا ان تخضع لواجب الطاعة اليه ولا تكن خاسراً ، هيا بك اصحب والدتك وارحل الى تلك البلاد السعيدة حيث تلاقي الخيرات الوافرة التي تعود عليك بالحياة الهنيئة ورغد العيش ..

أجاب منير بكل حماسة : ترى من هو أبي يا سيدي ؟ أنا لا أعرف أباً منذ كنت رضيعاً بين ثديي أمي حتى الآن ، ومنذ نعومة أظافري حتى هذه الساعة لم أجد نفسي الا مغموراً بحنان أمي ورعايتها ، وها هي تلك المسكينة تواصل الليل بالنهار مجاهدة بتربيتي تنوء تحت ثقل الاتعاب لتشبع نفسي من العلوم أجلّها ، ومن الخيرات أكثرها ، وتوسع أفكاري بلذة الاجتهاد الطائلة التي أصبو اليها ..

أنا أعلم ان أبي نزح ، فنأى الى أقصى البعيد بعد ان رفضته امي لسوء

تصرفاته معها ، وها قد مرّت السنون الطوال على هجرته في الولايات المتحدة حيث الهناء والمسرات والخيرات المستوفاة لمن يهاجر اليها ، فما هي النتيجة التي حصلت من وراء هجرته ؟ كان يشبعني تحارير ، ويصفف كلامـــاً في السطور أفهذا يكفي يا سيدي ؟..

يلزمني أموال شتى تكاليف العلم ، وأنتم أدري يا سيدي كم تكلف هذه المصاريف ، وهل اندفع لإرسال كمية من المال طيلة غيابه ؟

وهل استعاض باستتار ما اكتشف عنه من قبيح عمله وسوء تصرفاته ؟ . أبتِ ، سيدي ، هل تصدق أنه يملك بنايتين فخمتين ، كما هـــو يدّعي ؟ ليت شعري ماذا أقول .. هل تناولت منه تلك الزوجة المسكينة درهماً أو ديناراً ؟ لا لعمري .. وهـل تلقت جدتي من ورائه تلك الدراهم التي سلمته إياها لاجل مصاريف السفر ؟ تلك الام التي ربته بالترفه والدلال وصرفت عليه من مالها الخاص وهو يتيم .. فلو كان أبي هو حقاً على مـا يدّعي في كتاباته من قلمه السيّال لكان يغمر أمه وأخته وزوجته على الأقل بشيء من المال في كل سنة (أو بالأحرى في كل مـــدة مناسبة) إذ يتبين إذ ذاك بإصلاح عمله وجودة محاسنه ويعود اليّ بعد ذاك فيراني فتىً مهذباً مستنيراً بالعلوم والفنون ، فأخضع عند ذاك لأوامره وابذل كل ما في وسعي لمصالحته مع امي ونعيش جميعنا عيشة مرضية مقدسة امام الله والناس ..

كان سيادته مصغياً بكل انتباه لحديث منير الذي ملأ قلبه فرحاً برقته ، فاستصوب كلامه لدفاعه عن وجه الحقيقة ، فرضخ للأمر الواقع بعد ان تبين له الاستطلاع عن سيرة المدّعي ، فبارك سيادته الشاب منير وقبـــله مشجعاً اياه على الاستمرار في العلوم واحترامه لأمه التي تسعى وراء نجاحه.. نهض لساعته منير فقبل يد سيادته ورجع الى امه ضاحكاً ، فأطلعها على ما دار بينه وبين سيادته من الحديث ، وكيف تقدم امامه ببراهين دفاعية حتى اقنعه وتناول البركة منه ..

سرّت الأم جميله ان تستنجد بدفاع ولدها وتقدير كرامتها لدى سيادته ،

فدنت منه وقبلته تقبيلاً وزودته الرضا والدعاء ..

كان احد الاشخاص الذين تدخلوا بواسطة الصلح مع عادل وزوجته حين رفضت موافقتهم واسمه سامي ما زال يرتاد منزل سالم (المرحوم) ليتفقد الولد منير وامه ، وهو احد انسباء عادل ..

كان يسرّه ان يشاهد منيراً مكبـاً على دروسه ، وكان حينما يتفحصه ببعض الدروس يعجب من ذكائه ونبوغه فأمّل فيه النجاح الباهر الذي بدأ يسمو به الى درجات العلم والعرفان منذ طفولته الى نضارة شبابه ، فأحبه كثيراً ودام يرتاد اليه فترة بعد اخرى حتى أصبح كصديق حميم له يسرّ به .. كان يستقصي أخباره الى جدته أم عادل وابنتها ، ومـا انفك يرتاد اليه ويستقصي أخباره حتى اصبح فتىً غضاً يناهز الرابعة عشرة من عمره .. فلما أبرق نجمه بمدارك العلوم السامية كان ومـا زال ذلك النسيب سامي الأثيل لا يفتر عن ذكره أمام جدته وعمته ، فأطلعها على ثقافته .. وعن سيره بالجد والنشاط للتقديم الى القسم البكلوري ، وبالـغ بالمدح على مزايا أمه وعن جمالها الباهر ، وزهدها في الدنيا ، وتعلق آمالها على الفتى الذي نشأ بين يديها وأصبح شاباً مترفها ، ذا مناعة ، محبوباً ، محترماً ..

عندما سمعت الأم وابنتها هذه الاقوال التي كان يرددهـا سامي على مسمعها اختلجتا بالسرور .. وكأنهما لم تصدقا بالتمام أقوال ذلك النسيب .. لكن قلب الجدة بدأ يذوب رقة ويحنو لمشاهدة حفيدها ، فقالت ، اصحيح ما تقول يا سامي ؟

وهل لابني عادل ولد كهذا ؟ هو حفيدي وانا لا اعرفه ، وقد اصبـح شاباً ، ليتني اعثر عليه لاشاهد حفيدي ، بل ولدي ..

اين عادل الذي نأى عني ؟ فنأى ولم يعد يلفت انظاره إليّ ، زودتـه العلوم فاستعاض عنها بالجنون ، بات الحنان عليه قاسياً .. بذلت ما بوسعي من تبذير اموالي عليه لافتخر بثقافته وامتيازه بنبوغه فبات اسير الطيش

معتصماً بالخلاعات التافهة ، اضاع علومه في عالم التهتك والانحطاط ..

اما الآن وقد تعزى قلبي وسر خاطري لامتياز حفيدي وحبيبي منير ، اجل ، فإنه على ما تقول يا سامي انه امتاز بنبوغه ، وقد تأصل فيه النبوغ من ذاكرة ابيه .. بيد اني اشكر الله الذي رقاه وجعله قدوة لاخدانه ، ولم يكن مبتذلاً مثل ابيه ..

إني لا أنكر على مجتمعي إقرار الجميل لتلك الام المسكينة التي ضحت صباها بين عناء وشقاء ، واستقرت على مثال الكرامة والآداب ، فأشكر لها مزيتها وهمتها وكل عمل قامت به نحو تربية ولدنا المحبوب ، نعم ، نعم هي تلك المسكينة التي رزحت تحت عبء المسؤولية ، وقامت بالاعمال التربوية أحسن قيام ، هذا القول لم أسمعه منك يا سامي فقط ، بل سمعته من أناس كثيرين الذين بالغوا بالمدح على الوالدة والمولود ..

وعلى ضوء التطور فقد جاوز منير سن المراهقة وأضحى غصناً نضيراً تقر به عينا أمه ..

وقد لزمت الصمت الجدة قليلاً من الوقت ، ثم اندفعت للتكلم مع سامي فقالت له : بربك ايها النسيب العزيز ، أما يمكنك أن تسعى لي بمشاهدة منير ? ربي ، ان قلبي يحن الى نظرة من نور محياه . أليس لك من وسيلة تمكنك من المجيء به إليّ ? . قالت الابنة ، وأنا أيضاً رق قلبي تحسراً لمشاهدة ابن أخي وتقبيل وجنتيه ، ولكن أنى لنا ذلك وقد أشبعنا أمه ذماً وطعناً ..

الجدة ، أوَهذا ذنبنا يا ابنتي ?.. لم يكن إلا ذنب ذلك اللعين صهرها الذي قادنا الله اليه فبالغ بالطعن فيها والذم بحقها ، ولم نؤكد يومذاك أنه كان يتكلم على سبيل الانتقام منها لانها رفضته وكان أداة عرقلة لكل من يتقدم لطلبها .. كان علينا ان نتروى أكثر من ذلك ولا نستعمل العجرفة والكبر ، فإنه على ما يقال ، إن امرأة أخيك وان تكن بائسة لكنها حسناء ، ناهيك

عن انها مثال الفضيلة ابنة عائلة كريمة ، ملأى من خيرات الله ، مترعرعة بماديات الحياة في ظل والدها الذي كان يستمد نتائجه من المقاولات التي كان يتراكض وراءها بكل جهد وحرص لكي يقوم بأعماله التربوية .. وإن والديها تحمد ذكراهما ويثنى على أعمالها ، ويقال ان امرأة اخيك بعد وفاة والدها عكفت على عمل بسيط في منزل أحد الاساتذة أي انها تعمل فيه منذ الصباح الى المساء لتقوم بأود أمها وحفيدنا الحبيب ..

الابنة : ومن أين عرفت كل هذا يا أمي ؟

الام : لقد عرفت كل ذلك من بعض الناس الواقفين على الحقيقة ، وكفى ما ثبت لدينا من قول الاستاذ سامي الذي أخذ يجاهد بأكثر ما في وسعه بتدبير وسيلة لمعرفة ذات البين مع ابن اخيك وأمه ..

الابنة : آه ، يا أمي ، لقد ذبت شوقاً لمعرفة ابن أخي منير ، هل هو من الصعب التعرف عليه يا سامي ؟ قبّح الله وجه أخي عادل ، فأنا وايم الحق لم أعد أذكره بفمي ، لانه لم يعد لنا بعض الثقة فيه ، فلو أنه كان من الشبان المجاهدين لكان تبين عمله بداع من دواعي الانتاج واستثمار الفوائد التي تعود بالخير عليه وعلينا ، وعلى زوجته وولده .. فلندعه وشأنه في تلك البلاد النائية ونعود الى حفيدنا منير ، ما قولك يا أمي ؟ ما العمل لتدبير وسيلة يقتضي فيها التوصل لمعرفة امرأة أخي وولدها الشاب منير ؟

اختلج قلب سامي بالسرور عندما تأكد ان الجدة والعمة تتوقان شوقاً للتعرف على منير ووالدته ، فكان يلتام عليهما بعلة الندم عما ابدتاه من اللؤم للكنة المسكينة ، ودام يندد بهما على تربية عادل وافساح المجال له لتوسيع أبواب الدلال والرفاه وبحبوحة العيش حتى بات أسير تمنياته وذليل مآربه ، فأسفر عن المروءة والنشاط وذهب بعلومه أدراج الرياح ولم يبرز بصيانة كرامته أمام الله والناس .

الابنة : دعونا الآن من عادل وسيرته ، والله إنني ما عدت اسأل عنه ، ولا أود ان يطلعني احد عنه شيئاً ، فأنا أخبر الناس به ..

إن من لا خير منه يرتجى   إن عاش أو مات على حد سوى

ما قولك يا سامي ، أظنك تقوى على تـدبير وسيلة تنساب فيهـا الى امرأة اخي تشاطرنا هذه الغاية المنشودة باستفتاء محادثات ودية مع الحبيب منير الذي اتوق شوقاً لمشاهدته فتصحبه معك في ساعة من الوقت إذا كان وحده فأهلاً به ، واذا كان بصحبة امه فألف اهلاً وسهلاً بكليهما ..

أجاب سامي ، سمعاً وطاعة ،فانا كلي مرهون لخدمة كهذه تلبية لقلبيكما ايتها العزيزتان ، ويسرني ان تلتئما ليس بمؤازرة منير فقط ، بل بوجود امـه قبله إذ تصبحون اسرة واحدة محترمة ، واني ارى في ذلك عمـلاً مبروراً ، وواجباً اهلياً .. فهيا بي الى الوسيلة ، الى التدبير ...

قال الرجل : حقاً ان للحق تخضع الامم ، فليخش العالم اسم الرب ... ما اجمل هذا الصديق المخلص ، رعاه الله

★

١٧

نهض سامي لساعته إلى منزل السيدة جميلة وولدها الاستاذ منير حين كان قـــد اجتاز المرحلة الثالثة للقسم البكلوري ، ولم يمض اكثر من الشهر على زيارة سامي الأخيرة إلى منير حتى وفد اليه بزيارة ثانية مصحوباً بهـدايا ثمينة مظهراً له غـــاية سروره بنجاحه وإقباله ، فرحب به منير ترحيب الشوق واقتبل منه الهدايا شاكراً له غيرته ومحاسنه وقـــام له بضيافة لائقـة به .. فطاب لمنير تداول الحديث مع سامي ، واخذا يتباحثان طويلاً في شتى جداول من امور الدنيا ، فشرع سامي يطلق العنان لنفسه بالتحدث مع جميلة قائلاً لها.. ان حماتك أم عادل هي بشوق عظيم لمشاهدتك ومشاهدة حفيدها منير .. وهي والحق يقال .. انهـا بحسرة للتعرف عليكما ، مـاذا تقولين لو نهضنا الآن بسرعة ، فركبنا العربة وقطعنا المسافة إلى هناك حيث تكون مع ابنتها بانتظارنا ؟

جميلة – لا يا حضرة الاستاذ ، لا تلق حديثاً علينا كهذا ، ولا تعد ، فيما بعد ، فأنا لست مثرية كما هما تدعيان.لكنني أغنى منهما خلقاً وخُلقاً وكرامة وحتى الآن ما نسيت كيف تمردتا علي باستخفاف وطأتي واستصغاري لزواجي من ابنهما الذي اضاع حياتي فظلمني وبدد شتات افكاري حتى انني بعـد ان كنت اتفوق على الكثيرين من وجهاء الناس الذين تحسروا لطلب يدي وكنت أرفضهم ، أصبحت الآن أعمل في بيوت الناس وقـد فقـدت شعوري وحاسة ملذاتي الحيوية ، فنذرت العفة ، ومـا زلت مستمرة على عفافي ، مجاهـدة في

سبيل ولدي الذي أضحى لدي بمثابة زوج وولد ، أخ ، اب ، ام ، وكل ذي قرابة ، ولولاه لدخلت الدير ..

إن حياتي كلها مرهونة لولائه ، فانا والحمد لله لست بحاجة لمساعدة أحد لأني اعمل ، واعمل ، ولا أمل ، ولا اخجل ! إني افتخر بالعمل .. فإن ترضَ أمه واختـه أو تأبيا هماسيان ، بلغهما سلامي يا سيد سامي ولك مني جزيل الشكر .. ثم حانت منه التفاتة نحو منير فرآه يضحك فقـال له .. ما لك تضحك يا استاذ منير ? . أما ترى أن كلامي موافقـاً لوجهة الاتفاق مع جدتك وعمتك يا ابن عمي ? .. فقال له هيا بنا نسير الهوينـا ونتهادى الى تلك الزهور الباسقة التي هي بالقرب من المنزل ..

هناك حديقة غناء محاطة بالازهار تروق للنظر ، وقد تأبط سامي منيراً وطفق يشرح له قضية الصلح ويقول له : اترك هامشاً يا منير عن قضية أمك وأبيك ولا تسل ابن من انت ، فأنت ابن يومك ، ابن علمـك ، دعنا نتكلم الآن يا عزيزي بالامور المناسبة ، تلك هي جدتك وعمتك بانتظـارك ، وبالحقيقة هما افضل من جدك وأبيك ، ويكون لك الفخر بالتعرف عليهـما إذ تكون جددت اسم العائلة ، وتكون إذ ذاك عرفت أن لك نسيبتين من ذوي عائلة عريقة تدعى بها يا حبيبي ، وهـذا جلّ ما أتمناه لك ، هيا بنا نصل الى جدتك وعمتك ولو ساعة من الزمن تشاهدانك بها فتكون أنت همزة وصل بين أمك وبينهما .

أجاب منير : لا يا سيدي ، فأنا وحقك لا أخطو خطوة واحدة دون مشورة أمي ، فهي والله أمي وأبي ولا أعرف احداً غيرها .. أما من جهتي فإن لي اشتياق عظيم لأشاهـد جدتي وعمتي ، واني لفي تحسر شديد للتعرف على عائلتي وذوي انسبائي .. انمـا يأتي يوم فيه يتم كل شيء ، اذ يتوجب عليّ ان اكرر الحديث على والدتي مرة بعد اخرى ، وسأداوم الالحاح عليهـا بطلبي ، وأسير وراء سؤلي معها حتى اقنعها ويكون لنا ما نريد ، اما اليوم فهو من الصعب عليّ إقناعها لأنها كما تراها متأثرة من صنيـع أبي معهـا ، ومن

تمرد جدتي وعمتي عليها ، ومع هذا كله فلنطو الصفح عما مضى ونعود الى حياة جديدة نتفاهم بها عن حب واخلاص لبعضنا . أنا أعدك يا سيد سامي انني عما قليل ، اي في وقت قريب ، اتمكن من مرضاة أمي واكرههـا على الاتفاق مع جدتي وعمتي .

عد إلي يوم الثلاثاء القادم ان شاء الله فنلقي آمالنا على الاتفاق وسأفيدك عند ذاك عن نتيجة القضية . فتبسم الاستاذ سامي لعاقبة الامر وهمّ بالعودة مودعاً الأم جميلة ووالدتها وابنها ، وقفل راجعاً الى منزله حيث قضى ليلته بالتفكير ، وكان متفائلاً للعمل المنشود .

ففي اليوم التالي أقبل الاستاذ سامي مسرعاً الى نسيبته أم عادل وابنتها حين كانتا بانتظاره على نار ، فوصل إليهما باسماً وقلبه طافح بالسرور تدل على وجهه علامات الفرح الشديد ..

فرحبتا به ترحيباً وقامت الابنة للحال لتعمل له كوباً من القهوة ، فأشار اليها قائلاً ، دعينا الآن من القهوة ، تعالي اجلسي أمامي فأسرد لك عما جرى معي من التحدث للغاية المقصودة ، جلست الابنة ووالدتها تصغيـان لحديث سامي ..

شرع سامي يطلعهما على المحاولة التي طفق يدور بهـا بتهادي المسير مع الحفيد منير واختلائه به على انفراد ، وأخذ يبرهن لهما عن ابتداع الحيـلة لإقناعه بالحضور اليهما، وانه ما فتىء يسير مع منير بأساليب ودية حتى دفعه ليرضي أمه ويصحبها معه ، واكد لهما ان منيراً تعهد بوفاء وعـده إلى يوم الثلاثاء القادم ريثما يكون قد جاهد لإقناع أمه لتدبير القضية .. وبالغ سامي بالمدح على جميله ، ووصف محاسنها مردداً أوصافها الحميدة أمام نسيبته ام عادل وابنتها معدداً فيها رشاقة قوامها ، عينيهـا ، مشيتها ، جاذبية الانوثة فيهـا حتى دفعهما إلى الشوق الوافر لمشاهدتها والتعرف عليها ، وبين أطراف حديثه كان يتبين الكلام شديداً على عادل الذي شوّه حياتهـا ، وقطع أوصالها ، ورماها في وهدة الهلاك ، فخسر سيدة فاضلة حسناء كهذه ، وطفق يردد على

مسمعها ما ساء في خاطرها من استخفاف وطأتها ، ومن إباء التعرف عليها نسبة لعزة نفسها ، والافتخار بعملها الذي لم يخطر على بال الجدة والعمة ..

إن جميلة تلك البائسة المسكينة لم تكن تتلفظ بنموذج نفسي يصور لها الكبر والافتخار فحسب بل كانت تفخر بالعمل الصالح الذي يجعل لها كياناً خالداً بين الله والناس .. ولا يخفى علينا ان بعض الناس الأثرياء يفتخرون ببذخ الاموال فيعيرون الفقير نظرة استخفاف، ويجهلون تقدير البائس المحترم ذي السيرة الحسنة الذي يحافظ على كيانه وعزة نفسه ، ولا ينخفض الى غاية معطاء ، بل يجهد الى الكفاح ، ويتفوق بكرم أخلاقه وجودة أعماله على من هم أعلاه ، ويحترم من هم أدناه ..

وبناءً على استطلاع الحقيقة من استخبارات سامي أعجبت الجدة وابنتها بالكنة قبل ان تسمعا حديثها ، سيما وإن عادلاً أقرّ لهما بذنبه معها ووصف لهما محاسنها ، وكانتا تزدادان شوقاً للتعرف عليها ، وتأكدت صدق ماقاله سامي ..

قالت الأم : اخيراً يا سامي ، نحن كلتانا على رجاء وثيق منك ان تقوم بوعدك معنا وتصحب معك حفيدنا الحبيب ووالدته لنستقبلها على الرحب والسعة ونفتح لهما قلبينا ، ونقدم لهما منزلنا باحة حب لمقابلتها ، عد اليهما بالله عليك يا سامي يوم الثلثاء القادم حسبما تعهد لك العزيز منير ..أضبط يدك بيده وهلمّ به إلينا مع أمه كنتنا ، فوالله إنني أحببتها قبل أن أراها . هذه بطاقة باسمي وباسم ابنتي بمثابة دعوة خاصة تليق بها فنصرف جميعاً بعض الوقت بصفاء وهناء ونعم المصير ..

قال، سامي .. انهضي الآن أيتها الغادة الحسناء ، وهاتي لي كوباً من القهوة فأتلذذ بشربه أمام حديثكما اللطيف وهاتِ لي من فضلك سيجارة :

ها هي السجاير أمامك يا سامي لا حاجة أن تطلب مني سيجارة ، وهذا كوب القهوة قد حضر ..

سامي، إنني أفضل أن أتناول السيجارة من يدك لأزداد تلطفاً من نظراتك ثم بعد أن تناول سامي القهوة همّ بالرجوع الى منزله وفي اليوم التالي عاد الى منير ووالدته وسلمهما البطاقة التي تتضمن الدعوة إليهما ، فسرّ منير غاية السرور لالتئامه بمن يلوذ بهما ..

ولم يكد يمرّ الاسبوع حتى حان موعد يوم الثلثاء .

أقبل سامي عند عصر يوم الثلثاء فاصطحب منيراً وأمه وسار الجميع جذلين فرحين الى منزل الجدة المومأ إليه – وما ان وطئوا عتبة المنزل حتى هجمت الجدة أم عادل وابنها تقبلان منيراً وأمه تقبيلاً بلهفة غريبة .

ضمت الجدة منيراً بين ذراعيها كمن تغمر ولدها عادلاً وهي تقول واحفيداه، واولداه ، وأخذت بالبكاء . أما منير فطيب قلبها ، وقبل يديهـا طالباً رضاها ، وتعهد لها بقدومه إليها في كل فرصة مناسبة .

وقد سرّ الجميع لذلك المجتمع البهج الذي ناشد القلوب بالافراح والمسرات، فصرفوا ذلك النهار حتى منتهى السهرة متمتعين بملذات الطعـام الفاخر والمشروبات الروحية ، والحلوى الثمينة ، والفواكه اللذيذة الناضجة ..

فبعد ان استقر منير وقتاً قصيراً وكان قد ألف نظره الحديقة التي تحيط منزل جدته خرج يتجول في أرجائها . ويتمتع بمناظرهـا المزدانة بالزهور والبراعم المفتحة المفتنة ، فأدهشه منظر الدوالي المدلاة بعناقيد العنب الذهبي اللون .. كان يلذ له أن يقطف بيده العنقود والتين، ويجول بنظره نحو أشجار الأكيدنيا والليمون وغير ذلك .

انشرح صدر منير بتلك الحديقة الزاهرة ، وزقزق قلبه بين جوارح جدته وعمته اللتين لم تشبعا منه تطلعاً .. فتقدم لهما بكل خدمة تلزمهما حتى نهاية العمر، فاندفعت كلتاهما لتقبيله بكل حرارة وتلهف وأثنيتا على مزايا أمـه والتدبير الذي قامت به في اجلال عملها لالتفاتها نحو العناية الشديدة بولدهـا وانتشالها إياه من دركات الجهل الى أوج العلاء بواسطة كفاحها في الحياة .

إن اجتهاد منير وعدم تنازله عن الدرجة الاولى بين رفاقه طيلة وجوده في المدرسة قد أنسى والدته كل الهموم والصعوبات التي مرت عليها ، وكأنها كانت ترى أن كل سعادة في الدنيا وهنائها موفورة لنظرة من وجهه ، وكانت تخال نفسها بين حلم وخيال غير مصدقة أن ولدها أصبح فتىً مرموقاً تقر به عيناها . دام منير يرتاد منزل جدته وعمته تارة بصحبة أمه ، وطوراً وحده ، فنشأت في قلوبهم محبة فائقة الوصف حتى أنهم أصبحوا يرتادون زيارات بعضهم بكل طيبـة خاطر وسرور – سيما وإن أخبار عادل انقطعت ولم يعودوا يعرفون عنه شيئاً . « أكان حياً أم ميتاً، الله يعلم – فلم يعثر على أثره من خبر.

تعلق قلب الجدة بحفيدها منير ، وقررت بنفسها أن تسجل له البناية التي تملكها لتكون له ملكاً خاصاً بعد وفاتها ، وحمدت ربها لوجود حفيد لها يقوم مكان والده ، فأصبح منير بوجهها يفوق محبة والده .

كان منير ينتهز الفرصة ليطل على جدته وعمته ويتقدم لهما بكل خدمة تلزمهما ، فكأنه بذلك ينتعش قلبه حينما يسأله أحد ، الى أين ذاهب يا استاذ منير ؟ فيجيب بكل سرور ، انني ذاهب إلى منزل جدتي ، ويطيب له أن يعرف العالم أنه من عائـلة نبيلة وليس هو في حيـاة منقطعة من ذرية يجهلها ..

كنا نلاحظ أنه في أي وقت يصل فيه منير الى جدتـه كانت تفتح له صدرها وتضمه بين ذراعيها مقبلة إياه تقبيلاً ثم تعود عمته الى مثل ذلـك ، فتعيرانه كلتاهما نظرة حب وانشغاف ، وفي طليعته المثلى الـتي كان يدأب خلالها مجاهداً الجهاد الكلي ليحصل على شهادة بكلوريوس علوم ليريـح والدته من عناء التعب ويلقي لديها كل الوسائل التي ترتاح إليها نفسها ، ولكي يقوم باعتناء بجدته وعمته ..

إن الله سبحانه وتعالى لم يشأ هناء جميله، بل شاءت الأقدار وهبت الأرياح واصطدمت الأنواء ، فثارت الهيجاء بين الدول الكبرى ولم يكن آنذاك من قناعة امبراطور المانيـا الارتجـاع عن الهجوم المباشر لوقوع الحرب

العالمية الاولى سنة ١٩١٤ إذ كان يومذاك امبراطوراً شجاعاً ذا بأس وجأش ، فاقتحم مبارزة الحرب للدول الحليفة ، ولم يرتد عن زعامته ومكانته للبطش في صفوف الحرب التي أملته أنه سوف يتفوق على جميع الدول ويترأس احكام الدنيا بأسرها ، كان بطـــلاً صنديداً فحصل على الرئاسة بفضل أعماله التي تبين فيها بابراز الاختراعات التي لم تكن تخطر على بال غيره ، ناهيك عـن بسالته وتبيان مداركه لرفع كيان الدولة الالمانية وتدرجه في سلك الجندية الى أوج الرئاسة العليا ، وازدهر الشعب الالماني بالعمل المنتج الذي قام بـــه لاتساع أوتاد الحكم في بلاده حتى ذاع صيته في انحاء المسكونة وكان لوطأته أثر شديد في قلوب الناس . وأمل وثيق باشتداد عزمه زعماً منهم أنه سوف يتملك الدنيا بأسرها ولا يمكن لأحد أن يجابهه.

ولما كانت الحكومة العثمانية آنذاك تفخر بعظمتهـا تجاه كل دولة سواها أصبحت حليفة المـــانيا ، فلم يكن اذ ذاك من بد للتضامن معها والتآخي للاضطهادات التي ينبغي ان تثور بها معها في الهيجاء التي كانت تستعد لأجلها.

وقد نشبت الحرب الاولى في تلك السنة بين الدول كما يطلعنا عنها التاريخ وآباؤنا الاقدمون ؛ فاضطرت الحكومة العثمانية عند ذاك ان تجند رجـــالها للحرب ، أمسلم كان ، أم مسيحي ، ام درزي ، لا فرق عندها ، وقتما كان قبل ذلك الحين ان الحكومة التركية تأبى تجنيد المسيحيين حذراً من الغـدر بها لتقويم مسعاها ؛ ولما كانت بيروت في تلك الايام تحسب انها ولاية يحكمها فرد واحد وهو (الوالي) دون الجبل ، كانت تنذر اللبنانيين المواطنين في الجبـــل بعدم التجنيد حسبما كانت تقتضي دواعي الاتفـــاق المشتمل من الدول الاعضاء ..

أما ففي تلك الناشبة الفجعاء وجهت الحكومة انذاراً لكل شاب مسيحي ان يكون مستعداً للدفاع عن بلاده . ولما كانت بيروت وحـــدها ولاية مركزية يتولى حكمها احد ولاة الاتراك ، كان له كل الحق ان يتصرف بادارة أعمالها على الوجه الذي يشير اليه كيفما شاء دون أي رقيب ..

باشرت الحكومة التركية في بيروت تجنيد المواطنين الأجباري من كل الطوائف ، ولم يكن في تلك الايام وسيلة للتخلص من التجنيد سوى الفرار .

كان لفايز وسميره ولدان اسم الاول ابرهيم واسم الثاني عاطف ؛ وكانا قد ادركا سن الرشد ، وفي طليعة العمر الزاهي يقطفان زهرة الشباب .. فلما أدرك الوالدان أنهما سيكونان مطلباً للتجنيد دبرا لهما وسيلة للفرار ، ففرا الى الجبل وتغلغلا في نواحي كسروان ..

ان الحكومة التركية كانت صارمة شديدة الهيبة لا تطلق العنان للغاية المقصودة فكانت تستنكر الفرار ؛ ولما لم يكن بد من القاء القبض على الأخوين ابراهيم وعاطف وعبثاً حاولت الحكومة ان تجدهما اضطرت عند ذاك ان تلقي القبض على الوالد فايز الذي كان يناهز الخمسين من عمره فأسره الجيش مستعيضاً به عن ولديه ..

ولم يطل الوقت عليه اكثر من الشهرين كان قد حمل نير الجندية واذا به فرّ هارباً الى بلاد نائية سيراً على قدميه ، ففي ساعة من الزمن فوجئت سميره بقدومه شاحب الوجه منهوك القوى مريضاً مصاباً بداء عضال ، لم يلبث ان توفاه الله ..

إن سميره انغمست بعوامل الحزن الشديد ، اولاً لفقد زوجها الذي لم يكن يحلو لديه شيء في الدنيا إلا التطلع فيها ، وثانياً تشريد ولديها وابتعادهما عن نظرها ، وقد اقتضى الامر بعد ذلك ان اضطرت لتبقى ملازمة بعض اعمال في الفرن مع عملاء زوجها وتجود بارسال بعض الدريهمات لولديها ابراهيم وعاطف ، فلما اشتد الجوع اشتداداً عميقاً حتى انه لم يعد احد يستطيع الحصول على شيء من القليل ليسدّ جوعه اضطرت عند ذاك سميره ان تبيع المنزل الذي جاهدت ببنائه .. فباعته بأبخس الاثمان بغية ان تسدّ غائلة الجوع عنها وعن اولادها ، وبفضل تلك الدراهم تخلصت العائلة من غائلة الجوع ...

مسكين فايز ، كان رجلاً صالحاً محباً ومحبوباً من الجميع ، بعيداً عن

المناقمات قريباً من الله ، فقام بتربية اولاده احسن قيـام وترك وراءه ذرية صالحة تحمد مزاياه وتقتدي به ، فقضى نحبه وهو في ربيع شبابه لم يطأ سن الكهولة،فانغمست سميره بالتحسرات الشديدة لخسارتها عطفه وحنانه لأنه هو وحده المؤمن لها مصاريف المعيشة ، فضلا عن انها عاشت معه حيـاة هانئة منظمة خالية من الاكدار .

وبعد انتهاء الحرب تبدلت الاحزان الى افراح وبات الناس في بحبوحـة ورغد العيش .. ورجع ابراهيم وعاطف الى اعمالهما في بيروت فتزوجا وولد لهما اولاد . اما سميره فلم تكن كسولة خامـــلة ، بل كانت تتعاطى شغل الصوف وبعض الاشغال اليدوية ، وكانت تتقدم لاسعاف بعض الجارات بمـــا تستطيع ان تقوى عليه من الاعمال الضرورية مثل الخياطـــة البسيطة وما اشبه ..

كانت سميرة محبوبة من كل الذين يعرفونها لشدة مروءتها ونشاطها،تتحاشى كل مسألة تتورط للبحث عن مشاكل الناس ، فعاشت حيـاتها هنيئة بريئة من كل شر وأذية ، ومنـذ زمن ليس بيسير أقبلت على الشيخوخة ، فتوفى الله ابنها الاكبر الذي كان يعتني بها ، وليس بعده من زمن طويـل فقد توفى الله ابنتها الصغرى ، اما هي بعد ان احتاطت بالحزن الشديد لفقد ابنتها وابنها، خارت قواها فرزحت تحت عبء الشيخوخة فتوفاها الله وتغمدها برحمته..

ولما كان الوالي يومذاك قد طلب اسماء الطلبة الذين يجاوزون العشرين من العمر من رئيس الجامعة الأميركية ، تجهز حضرة الرئيس بتسليم العدد المناسب لأنه كان يرى في ذلك واجباً مقدساً ، فمنهم من فرّ هارباً إلى أقاصي الجبال (لبنان) وبعضهم من سلم نفسه جندياً إلا منيراً لأن أمه أخذت تبكي وتنوح، ودبّ الهمّ بركاب جدته ام عادل وعمتـه إذ لم يكن مفرّ من تجنيده ، ولم يكن من حيلة آنذاك إلا أن تفرّ به امه إلى لبنـــان ، حيث مقرّ الأخوين ابراهيم وعاطف ولدي الأخت سميره اللذين تغلغـلا في ضواحي كسروان كما ذكرنا عنهما آنفاً ..

فلما رأى منير أنه لا بد من الفرار للتخلص من عذاب الجندية فقد حصل على وثيقة لبنانية وفرّ هارباً متغلغلاً في تلـك الضواحي حيث اجتمع بابني خالته ابراهيم وعاطف اللذين كانت امهما تغذيهما من الماديات التي كانت تحصل عليها من منتوجات الفرن الذي استلمته بعد وفاة زوجها. فبعد ان أن صرف معها أياماً قلائل ، تعرّف على بعض العائلات البارزة ، فدخل أحد المنازل حيث وجدوا فيه الكفاءة من العلوم ، فرحبوا به وكلفوه أن يعطي بعض الدروس لأولادهم ..

بدأ منير عمله بكل همة ونشاط ، واستفاد الأولاد على يـده وتميز بفوزه في التدريس لتلقين الدروس على الأسلوب المفيد ، سرّ الجميع بـه سروراً عظيماً ، وكانوا يشبعون نفسه من بعض الأطعمـة وتقديم الدراهم (خرجية) فسار متهادياً للنجاح بعناية الله مرموقاً بمحبة أهل المنزل ، لكن الافـكار كانت تتلاعب في رأسه نهاراً ، قليلاً للاهتمام بأمه ، وكيف يمكنها ان تتحمل فراقه بينما هي لا تقوى على فراقه يوماً واحداً ..

أما هي ما زالت تعمل في منزل الاستاذ الأميركي كالمعتـاد ، ولم تكن عنده بمثابة خادمة ، بل شبه مربية لولده الذي كان ينـاهز الخمس سنوات..

كانت تهتم بتربيته ونظافته وارساله إلى المدرسة ، وكانت مكلفة بترتيب المكتبة التي تخص الاستاذ ، ولم تكن تتوانى عن أي عمل تـكلف به لئلا تدفعها الحاجة لمساعدة أحد المحسنين ..

وكانت تعمل بكل نشاط طيلة ايام الاسبوع،وتستأذن في الذهاب يوم الاحد الى الجبل لمشاهدة ابنها ، تجلب له معها من كل غال ورخيص حسب تلـك الأيام العصيبة ، بعد أن تصل اليه وتمتع نظرها بقبلة من وجنتيه كانت تنسى جميع أتعابها..

جاء بنا القلم لنخبر أنه لم يكن في تلـك الأيام سيارات ، بل عربات على الخيل ، لأن السيارات آنذاك لم تكن ظاهرة في لبنان مطلقاً ، والعربات التي

كانت تجرها الخيل احتكرتها الحكومة التركيـــة بالسيطرة على كل حيوان يدب على الأرض ..

وعلى ذلك كانت جميلة تسعى إلى الجبل ذهاباً وإياباً سيراً على قدميها إلى أقصى مسافة لا تقل عن أربع ساعات .

كانت تتعب ولا تعيى ، تكل ، ولا تملّ ، حباً بولدها ، حباً بنظرة من عينه ، فابتعد عنها وهي تضطرم بنار بعاده إذ لم تكن تقوى على فراقه .. كانت تنتظر نهاية الاسبوع بفارغ الصبر وهي على نار ليحين موعد يوم الأحد لتلاقي ابنها الذي كان ينتظرها في مقدمة القرية،كانت تغسل له ثيابه فتحملها باليد اليمنى ، وعلى عضدها الأيسر تتحمل ثقل الزاد الذي تهيئه له من ثمرة أتعابها وفي إبان سيرها تلك المسافة النائية كانت تنوء تحت إعيائها حتى تنهك قواها فتلتمس الرحمة من الله ، وغب وصولها إليه تضمه اليها وتبرّد غليلها.. ودامت عدة شهور على هذه الحالة حتى أضناها الملل ..

كان منير يشعر بحزن عميق عندما أمه تتلهث وتتنفس الصعداء لانتهـــاك قواهـا من شدة التعب ، فيتأثر جـداً لإعيائها ، فأخذ يخاطب نفسه ويقول ويحي ، إن امي قد اقبلت على الهلاك وانهكت قواها ، فاذا اصيبت بنكبة لا سمح الله ، فماذا ستكون حياتي بعدهـــا ؟ والله لو أن أمي تصاب بأذى لأقتلن نفسي وراءها ، فانهـــا لعمري ، لو تعبت او مرضت فمن ذا الذي سيعالجها ويعتني بها ؟ تلك جدتي العاجز التي لا تقوى على الخدمـة ، لا والله فانا لا ارضى أن ترتكب أمي كل هذا العذاب

قال الرجل : يا للقضاء ، ما اشقى هذه المرأة ، يحق لولدها ان يرتاب في امر حالتها ولا يقوى على عذابها ..

١٨

منير – ها قد طرأ على خاطري فكرة : وما يضرّ بي لو سلمت نفسي جندياً ؟ اجـــل ، انه ليس لدي حيلة لتوقيف مشقات أمي الا بالتسليم .. نعم ، ليس لي حيلة الا بذلك ، فليصبني ما اصاب غيري ، فحياتي مرهونة لوجه الله ، « أجنـدياً كنت ام مختبئاً في منزلي »فهو امر موكول به إلى الله عز وجل ، فلا بد من اعتزامي على قصدي،واسراعي لتنفيذ فكرتي لاخفف عن والدتي مسالك تلك المسافة التي تكل عن سيرها فحول الرجال .. ولكن يا ويلي ، كيف يمكنها ان تعيش دون مشاهدتي على الأقـل يوماً واحـداً في الاسبوع ؟ ربي ، وكيف العمل ؟ نعم فهو واجب مقدس علي أن اخدم بلادي وفرض القانون محتم على قلبي ، آه يا امي .. لولاك لما بقيت في هـذه الارض دقيقة واحدة ..

ها ان حالة الوطن تفوق اشتداداً بطوارىء الجوع الذي ضرب اطنابه في جميع الانحاء حتى انني أشاهد بام عيني جثث الموتى المنطرحـة على جوانب الطرقات من تضور الجوع ، ليس من يدفنهـا ، ولا من يسأل عنها ، وقـــد اقشعر جسمي لمشاهدتي تلك المناظر التي تدمي القلوب والتي اوقعتني في حيرتي وهي التي تدفعني ان اسلم نفسي تسليماً ...

الآن قـــد حان موعد يوم الأحد عليّ ان انتظر امي هناك عند مقدمة القرية ، يا حبيبتي يا امي ، ما اشقاك في الحيـاة ، ما اتعس حظك .. فبعد أن كنت أبذل قصارى جهدي في الدروس لأنهي سنتي الأخيرة وأنال الشهادة

العليا واريحك من اتعابك ، أصبحت الآن تتحملين عبء الاعبـــاء لترحميني وتعثري على نظرة مني . ربي ، أرفق بها ، هي ام حنون ، هي سيدة فاضلة جديرة بالكرامة ، ربي لا تفجعني بها ، بل زودني برضاها كن لها معينا ».. وما إن أكمل كلامه منير وعيناه جاحظتان للأمام حتى سمع صوتاً منخفضاً يدوي عن بعـــد المسافة وينادي ، يا جورج .. أركض إليّ يا ولدي .. اركض إليّ ..

هو جورج ، أعني به منير الذي تبدل اسمه بجورج حذراً من أن يعثر عليه أحد فيقبض عليه ويسلمه جندياً ..

حينما طرأ مسمعه كلمة جورج طار عقله من رأسه، أخذ يتراكض بسرعة فوق ما تحمله ركبتاه ، وما إن وصل الى أمـــه حتى كاد يغمى عليها .. فاحتضنها وبسطها على منكبيه وأخذ يفرك يديها ورجليها ويقبلها تقبيـلاً حتى استفاقت وهي بين يديه تغمره بحنانها وتحمد الله ..

جلس الاثنان في زاويـــة الكسليك التي هي الآن محطة لقصر المرحوم بشاره الخوري فخامة الرئيس اللبناني الاول حيث كانت تلك الزاوية خراباً لا يأويها أنيس ولا جليس .. ثم بعد أن استراحت الأم قليلاً قدمت لابنهـا ما حملته معها من الاطعمة اللذيذة وشرعت تسرد له ما جرى معها في طريق سيرها ، قالت ، أصغ إليّ يا بنيّ فأقص عليك حكايتي .. قـال لها .. كلي آذان صاغية ..

قالت ، إنني خرجت من منزلي فسرت على بركة الله حاملة اليك بقجة ثيابك وبعض الاغذية لإعالتك كالمعتاد .. كنت أجري بسرعة كلية حتى سارت بي قدماي الى القرب من انطلياس ، إذا بشاب يتتبع خطواتي كان هو نفسه قاصداً مسافة تلك الطريق التي أنا أسلكها فجاءني متواضعـــاً وعلامات الشهامة على وجهه وكنت اذ ذاك هلكت من تعب المسير ، فقال لي ، هاتِ يا أخية فأخفف عنك ثقل تعبك .. هيي بك سيري براحة فأنا أحوّل عنك العناء وأوفر عليك سهولة الجري ..

طاب قلبي لكلامه الرطب فأجبته ، نعم يا أخي ، ان كنت تحمل لي هذه الاغراض فأنا أدفع لك أجرة ما تستحق وقدر ما تطلب مني ..

أجابني ، لا بأس من ذلك .. فلما شعرت بقليل من الراحة لتخفيف الحمل عني جددت بالمسير معه حتى وصلنا الى القرب من نهر الكلب حيث انقطع المارة ، وما ان وصلنا الى هناك حتى اختلف مزاجه ، فجحظت عيناه بوجهي مهدداً إياي بفظ الكلام قائلاً لي .. انصرفي من هنا هي الاغراض أغراضي وتخصني ، فصحت بـه صيحة الالم والهلع وبدأت أصرخ صراخاً شديداً .. فتراكض الي أحد الجنود من ذلك المخفر القريب من النهر الذي لم يعرف هو نفسه عنه شيئاً ..

أقبل الينا الجندي متسائلاً عن السبب فقبض عليه ، وجذبه من يده بعد أن وقف على الحقيقة وقاده الى الضابط رئيس الشرطة مزمعاً أن يزجّه في السجن .. أمـا أنا يا ولدي فبحسب طيبة قلبي ونيتي الصافية لم أرضَ له السجن لانه حمل لي الاغراض طيلة تلك المسافة ..

عدت بنفسي الى رئيس الشرطة أشفع بـه واطلب منه واسطة لإسقاط حقي عليه ، فأخرجه خارج المخفر وصفعـه مهدداً إياه بقوله له : عليك أن تصل بالاغراض مع هـذه المرأة الى منزلها وهي تكافئك لقاء مـا تستحق .. أسمعت يا هذا ماذا أقول لك ؟.. أجاب ، سمعاً وطاعة يا سيدي ، فأنا رهين أوامرك ..

عند هذا التهديد اطمأننت منه ، حمل الاغراض ومشى مسافة الطريق ولم ينبس بكلمة ، وما انفككنا نسير جادّين في الجري حتى أوشكنا أن نصل الى هذه الناحية ، أخذ يلفت أنظاره ذات اليمين وذات اليسار ، فلما لم يجد أحداً وخلا له الجو بالوحدة سوّلت له نفسه أن يعيد علي التهديد لسلب الاغراض مني وكل ما تملكه يدي .. فطاب له أن يفعل مـا يشاء ، فأخذ يشتمني ويقول لي .. اذهبي من هنـا يا كيت وكيت ، فالاغراض أغراضي وليس لك شيء مما في يدي ..

هنا كانت لي الطامة الكبرى يا ولدي إذ أن هذه الناحية التي وصلنا اليها لم يعد يوجد فيها انسان ، ولا نسمة حيوان ، فقلت له والدموع تنهال على خدّي بغزارة ، بربك ارحمني فأسمح لك بنصف الاغراض واتركني امرع الى اولادي الصغار الذين يعولون جوعاً ، قال لي، وعيناه جاحظتان بوجهي ، لا ، لا تأملي بذلك ، فأنا لست بعازم أن أعطيك شيئاً منها .. سيري في طريقك وإلا اصبتك بأذى ..

ومـــا ان حانت مني التفاتة الى البعيد حتى أبرق بوجهي نور سيجارة يضيء ، فصرخت يا جورج ، اركض إلي يا ولدي ، اركض إليّ .. فعندما سمع الرجل وطأة أقدامك طلب الاجرة مني .. فأعطيته اياها وفرّ هارباً متراكضاً وتوارى في تلك النواحي ولم يعد يعرف له أثر ..

صمت منير برهة من الوقت لكن اعضاءه كانت تهتز اهتزازاً ، واضطرم بوعيد ناره لذلك الحادث المؤلم الذي ألمّ بأمـــه ، وحذّره الفكر المؤنب من وقوع أمر آخر يرميها في مأزق لا يمكنها التخلص منه ، سيما وانهـــا تجري وحدها في مسالك الطرقات ليس من يرافقها ويشجعها للمسير .. ففتح فاه ساعتذاك وكلمها بكل صراحة قائلاً لها ، إنني راحل من هذه الديار كلها ، وسوف لا أبقى هنا بعد الآن دقيقة واحدة .. ها قد توفى الآن صاحب المنزل الذي ألجأ اليه (أي أبو الاولاد الذين اعطيهم الدروس) ولم يعد لي بعض الامل بتدريسهم .. وانت يا امي تتحملين كل هذه المشقات لاجلي ، فلست ارضى بذلك ، ولن أرضى ..

الأم – يا ويلي ، ما هذا الخـبر المؤلم ؟ . أتراني أقوى على هـذا الفراق المرير ؟ إن تفارقني يا ولدي وتتركني وحدي فلسوف ألاقي حتفي فتعود ولا تجدني ، لا يا بنيّ ، فأنا لا أرضى منك هذا ، ولن أرضى .. أنا رهينـة خدمتك ، أنت حياتي وصلاتي .. وكلي بحذافيري موقوفة لقبلة من وجهك المحبوب : يا فلذة كبدي ، يا حبيب أمك .٠

منير – أمي ، لا تخافي ، لا تخافي علي ، أما عندك ايمان بالله ؟ ان أعمالك الطيبة وسيرتك الحسنة التي سرت بها أمام الله والناس لا تضيع لك أجراً وهي الحافز لثقتك بعزته تعالى أن يرحم قلبك ، فهو عادل رحيم ..

لي كل الثقة أنه سيرافقني في الجندية ويعتني بأموري ويعيدني اليك سالماً ، وبما ان مدة الحرب أوشكت ان تنتهي ، فلا أظن أنها تتحمل أكثر من شهرين أو ثلاثة ، هدئي روعك يا أمي واستعيني بالله ، فهو خير معين .

أخذت الأم المسكينة تندب سوء حياتها فتبكي وتنوح لفراق ولدها الوحيد الذي سيصبح فريسة المدافع ..

عمد منير عند ذاك على النزول الى بيروت قاصداً رئيس الجامعة الاميركية فأطلعه على قصده ، قام الرئيس لساعته فأسلم منيراً للحكومة وأودعه السلام داعياً له بالرجوع سالماً .. راح منير فودع أمه وجدته بالنظرات الاخيرة ، والدموع الغزيرة ، والقبلات النهائية وخلّف أمه تقاسي من آلام فرقته ما لا يطاق ، ثم دار فودع خالتيه واسرتيهما وجميع اللائذين به ، وأنهى أخيراً وداعه لجدته أم عادل وعمته وسار الجندي منير مع الفرقة المتأهبة للمسير بالسلاح الكامل . فسلكوا طريقهم على بركة الله بقيادة أحد الضباط الأتراك ، فبعث بهم الى الموصل والى نواحي الاستانة حيث كانت تثور الهيجاء بلا هدوء ولا ارتياح ..

عقب وصوله الى المكان المذكور عثر على معرفة بعض الضباط من ذوي العلوم السامية ، الذين كانوا يدرسون معه في الجامعة وهم مفتخرون برتبتهم فلما شاهدوا منيراً جاؤا به الى القائد المتولي إدارة المخافر ، وعرفوا القائد على إمكانيته بالعلوم والفنون ، فلما وقف القائد على حقيقة معرفته السامية جرده من ثياب الجندية وخلع عليه حلة ضابط .. فاعتز منير برتبته وكان مسروراً (لأنه شتان ما بين رتبة ضابط ورتبة جندي) كان له الايمان العظيم بالله أنه سيكون في مأمن عظيم من شر الاغتيال ، ولم يأبه لهول الحرب ، بل قدم

نفسه ضحية للوطن .. لم يكن يخشى هول المدافع والهجومات التي كان يشاهدها بمرأى عينه ، ولا يرتاب من أي أمر كان سوى التفكير بأمه وماذا أصابها بعد فراقه ، لم يخش عليها من تضور الجوع لأنها كانت ما زالت تعمل عند الاستاذ الأميركي .. لكنه كان يخشى عليها من التحسرات ، وتصاعد الزفرات لابتعاده عنها ..

أجاب الرجل : يا لنكد الحظ ، ويا للتعاسة ، وهل هذه المرأة خلقت للاحزان والشجون ؟ وكيف يمكنها أن تتحمل فراق ولدها الذي لا تأمل برجوعه ، رعى الله أيامها .

*

١٩

كانت الهواجس تتراكم على مخيلة منير إناء ليله وأطرافه لا يحلو له طعام ولا شراب سيما وإنه في وقت ارتياحه عن العمل المفروض عليه حينما يلجأ الى سريره ويتكىء على فراشه يمثل أمـــه امامه تقبله بالعبرات المنهالة على خديها . فيأخذ منه الأرق مأخـــذاً ، فلا تغمض عيناه .. كان طيف أمه يناديه بالتخيلات الوهمية فيخالها أنها مريضة لفقده لانه كان يقدِّر لها قيمة حنانها ومحبتها التي لا توصف ..

إن تلك المسكينة أم منير بعد ان ودعت ابنها الوداع الاخير كانت قد قطعت الامل من عودته لان الحرب كانت طاحنة آنذاك وأخذت بأرواح الاكثرين من الجنود والضباط البريئين ، ثم عادت الى منزلها حيث كانت امها العجوز تذرف الدموع بغزارة لفراق حفيدهـــا منير وحالة ابنتها العصبية حالما وطئت ام منير عتبة المنزل راحت ملقاة على سريرها دون وعي .. ركضت اليها الجارة لتقول لها مثلما يقال باللغة الدارجة : (مثلما ودعت تلاقي) فوجدتها بحالة الاغماء ، لا شعور ولا حس ، وامها تذرف الدموع وتصفق على وجهها وتقول :

يا ويلي ، هي ابنتي ، ورجل بيتي ، رحماك يا رب ، إن ابنتي ماتت فمن ذا الذي سيعتني بشيخوختي فيما بعد ؟ إنني امرأة عاجز ، إرحمني يا رب ، يا مَن تحيي وتميت ، أنقذ ابنتي ..

اسرعت الاخت رندا وهي مرتعدة فجست نبضها وتأكدت انها لم تمت

بل مغمياً عليها ، فكادت رجلاها تهتزان اهتزازاً لشدة الهلع .. بادرت حالاً باستعمال العلاجات التي تنفع للإغماء وأخذت بالوسائط التي تعرفها .. فلما حالت دون النفع بشيء دعت الاستاذ الاميركي سيد عملها ..

اسرع الاستاذ متراكضاً لتلبية المهمة المشار اليها مصحوباً بالطبيب ، فبعد ان جس نبضها ووجد فيها نسمة حياة ضربها إبرة واستعمل لها العلاج اللازم ، ولم يبرح من أمامها حتى استفاقت ، ففتحت عينيها وكانت تخال نفسها في حالة حلم ، أو نوم ، فشاهدت الطبيب والاستاذ وكانت اختها وامها مع الجارة يذرفن الدموع بغزارة .

توهمت للقضية لكنها لم تكن تفهم شيئاً من أمر نفسها ، بل قالت لامها ، ما بك ؟ مالك تبكين ؟ أين منير ؟

اجابها الطبيب ، دعي الاوهام وراءك ، مالك ولمنير ؟ هو بخير ، اتركيه محروساً بعناية الرحمن ، انظري الى نفسك الآن ، كنت غارقة في هوّة الموت ونحن الآن بذلنا جهدنا في معالجتك حتى أيقظناك من سباتك العميق الذي لم يكن لك منه رجاء لاعادة الحياة اليك ..

أجابت ، ما لي وللحياة فيما بعد ؟ فأنا والله لا ارضى الحياة طالما ولدي بعيداً عني ، ربي ، إن تصب ابني بأذى فلا تطل عمري .. دعني اموت ايها الطبيب ، لا حاجة للمعالجة .. استودعك الله ايها المعالج الحكيم .. ايها الاستاذ الفاضل ، ان نفسي حزينة جداً ليس لي بعض الأمل في الحياة ..

حينذاك اقبلت اليها امها العاجز وانحنت على صدرها مقبلة إياها تقبيلاً ، وقالت لها : هدئي روعك يا ابنتي ، ولا تقطعي رجاءك من الله .. قومي ، انهضي ، اقرعي الباب الرحيب ، فهو وحده المجيب .. إن حياة ابنك وحياتك ، بل بالاحرى حياتنا جميعاً مرهونة لمشيئته تعالى ، ولي كل الايمان أن حبيبنا منيراً سيعود الينا سليماً معافى ان شاء الله ..

فلما سمع الجميع اقوال الجدة اقشعرّت اجسامهم ، فتأثروا لكلامها

وأملوا بعودة منير ، وطيبوا قلبها بالاطمئنان عنه ..

أخذوا يحاولون ردع الاوهام عن مخيلتها بالتحدث معها بلطيف العبارات ، اما هي فكانت تزداد لوعة ولهيباً ..

وما بين لحظة وسواها حينما كان الطبيب والاستاذ ، فأمها ، واختها ، وجارتها يطيبون قلبها وإذ اعترتها قشعريرة في جسمها واخذت تنتفض وهي بين أيديهم ما زالت ملقاة في فراشها ..

عند تلك الحالة اضطر الطبيب ان يصحبها الى المستشفى بواسطة الاستاذ الاميركي سيد عملها ، واخذ الطبيب يعالجها لاسباب الملاريا .. لكنها ما لبثت أن تبدلت معها أعراض السخونة الى حمى (تيفوس) هلعت الأم خوفاً على ابنتها فأنهكت قواها ، أخذت تلطم على خديها وتندب مصيرها وتواطؤ حياة ابنتها ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى اختطف زوجها من بين يديها وافجعها بابنها يوسف وهي تنتظر مراحم الله في اود ابنتها ، وهي مع هذا كله قانعة بما حباها الله من نعمة لتيسير أعمال ابنتها التي لم تحوجها الى شيء حتى ولا في سني الحرب .. فقرّت عيناها بمنير ، واملت فيه الحياة السعيدة والهناء لها ولابنتها ..

أما الآن فأدركها الويل ، وأغشى عينيها الظلام ، والحالة تشتد قهراً أكثر فاكثر ، أولاً فراق منير وعدم الامل بعودته إلا بوحي من الله ، وثانياً وقوع ابنتها بسخونة الحمى الفتاكة التي قلما ينجو منها أحد الا برحمة الله ... فماذا حلّ بتلك الشيخة المسكينة ترى ؟ ها هي حضرت الى المستشفى لتطمئن على ابنتها حيث كان الطبيب والاستاذ واقفين أمام سريرها وهي تهذي وتقول : منير ..

تعود جميلة فتنظر إلى الطبيب وتقول له : إنني استحلفك بالله العظيم ، إن كان منير قد رجع وكان الله توفاني فمره أن يزور قبري ويناجي نفسي بين اللحود ، وأنت يا امي الحنون ضميه الى صدرك وقبليه عني قبلة تحسراتي لفراقه ..

تأثر الجميع لحالتها الأخيرة سيما وانها بعد ان تلفظت بتلك العبـــارات المؤثرة أخذت امها واختاها رندا وسميره يذرفن الدموع السخينة اذ لم يعد لهن بعض الامـــل بنجاتها لأنهـا اقبلت على خطر الموت ، فقاست من آلام السخونة ما لا يطاق...

أما الطبيب فكان ماهراً دقيقاً في امر معالجتها ، وبالأحرى فان الاستاذ الأميركي موكول بها ، وقد بذل من امواله مبلغـاً وافراً لإداء جميـل خيري لتحسين صحتها ، وما انفك يرتاد الى المستشفى ذهاباً واياباً ويجـاهد باعتناء لمعالجتها حتى أقبلت على الشفاء ..

فأنهضها الاستاذ الى منزلها حيث كانت امهـــا ضارعة للإله الحق ليشفي ابنتها ويعيد منيراً ، الى امه ..

فلما عادت ابنتها الى البيت جثت الجـدة على ركبتيها وحمدت المولى العظيم أخذت تحيط ابنتها بالاعتناء الـدائم والخدمة الصالحة حسب اشارة الطبيب

كانت تلك الأم العاجز تجلس أمام فراشها فتسليهـــا ، وما فتئت تقص عليها الاقاصيص المضحكة وتطلعهـا على شتى حكايات مرت عليها في قديم الزمان حتى اقبلت على الشفاء التـام ، ودامت ضارعة للاله الحق وممارسة الصلاة بتواتر لينقذ منيراً من الاخطـــار ..كانت تقف تحت القبـة الزرقاء تناجي ربها بقوة الايمان ، تطلب عودة منير لأمـه وانزال الصحة والقوة على ابنتيها ..

فاستجاب الله دعاءها ، واستعادت ام منير صحتها ، ثم عـادت الى عملها في منزل الاستاذ الأميركي وهي نحيلة الجسم كالخيال متلعثمة اللسان لا تنطق الا باسم منير ..

استقبلتها السيدة الاميركية بكل سرور ، فقبلتهـا وهنأتها بسلامتها ، وكانت تلك السيدة الاميركية تحب جميلة كثيراً وتعتني بهـا نظراً لما كانت تبديه من جودة ورشاقة في عملها الذي لا يستحب من غيرها ، كانت توافيها

بكثير من الهدايا ، وتهون عليها كل الصعوبات لانهـا تأثرت لعدم صحتهـا ونحولها من جراء تلك الحالة المؤلمة ، حتى انها بعد ان طلعت من المستشفى لم تعد تشغلها بشيء بل صرفتها الى راحة تامة في منزلها وكانت طيلة مدتهـا في المستشفى لا تبطوء من ان تمد امهـا العاجز ببعض الدريهمات لتصرفهـا على نفسها ..

أما تلك السيدة الفاضلة فلشدة محبتها لجميلة لم تعد تعتبرها كعاملة في منزلها بل كعضو عامـل بين افراد الأسرة ، فجعلتهـا كمواظبة لبعض تدابير تهم شؤونهم الادارية ..

قال الرجل : لقد ضاق صدري : وتأثرت في داخلي لحدوث امور كهذه تمر على فتـاة تعارك دهرها بالمتاعب والمشقات ، دعني وشأني ، لا عـدت تكمل الحكاية فقـد انقبض قلبي ، قال : لا عليك ايها الصديق ، ولا بأس من ذلك ، ها قد بان الفرج وإن من العسر يسراً ..

*

٢٠

نعود الآن الى منير فنقول .. انه دام مرتبكاً في هواجسه طيلة أوقاته ، راح يطوي لياليه ساهراً يقظاً لا يذوق لذة الكرى . . ويكرر بين تخيلاته كلمة يا أمي .. يا حبيبتي ، كيف أنت ؟ وماذا أصابك طيلة غيابي عنك ؟ ألعلي ظلمتك يا أمي ؟ فأنا مظلوم .. بئس الدهر الغدار ، لا بد من الفرج ..

لم يكن للفرج حيلة ، ظلم، قضاء ، استبداد ، استياء ، فانفرطت أحشاء منير ولم يعد يقوى على تحمل عذابه لأن النيران اشتعلت في أحشائه .. وكم من مرة كانت تسوّل له نفسه أن يفرّ هارباً ويطير مرفرفاً جناحه فوق رأس أمه ويرمقها بنظرة لو أن الظروف مساعدة له ، لكن أنى له ذلك والمسافة طويلة ، وبات السفر ضئيلاً ، بل منقطعاً ..

ظل يتأجج في عراك نفسه طيلة شهور عدة ، كان يعلل نفسه بالأمل ويطلب الفرج من الله حتى انتهت الحرب ..

وقع الاحتلال فنزحت الحكومة التركية إلى البلاد العثمانية وتركت لبنان للجمهورية الفرنسية ، ففتحت ابواب الفرج وتسرّحت أمور الناس وأخذ بريق الأمل يشعّ من عيني منير ، فبدأ الجنود ينصرفون كل الى وطنه ، وكل فرقة من الضباط كانت تنتظر أوامر الانصراف بفارغ الصبر لتنهض وتعود الى اوطانها بأسرع ما يمكن من الوقت، لان كلاً منهم يشتعل بنار الشوق لمشاهدة أهله ..

ولسوء الحظ ولشدة التقهقر لحالة منير وأمه فقد تأخر موعد الفرقة التي يألفها منير ، فبات على نار ، وعيل صبره حتى أنه لم يعد يقوى على الانتظار فيما وانه كان يشاهد بأم عينه انصراف الضباط والجنود وهو ما زال متأججاً بوعيد ناره.. ولم يكن يحصل على وقت مناسب لانصرافه من الخدمة فانحصرت أفكاره كلها لنداء امه وأصبح كالفاقد الشعور يتلهث عنـــد ذكراها وهو لا يعرف عنها شيئاً ، « أميتة هي أم حية » الله يعلم ..

فلما حال بدون تحمله الصبر المرير للهواجس والأرق، واعياه الضنى والنحول عمد عند ذاك الى الفرار ..

هبّ لساعته وعزم على المسير وأخذ يجري سيراً على قدميه يطوي البوادي والاحراج فيستقصي سبيله من بعض المـارة ، ولم يكن يخلو من بعض الدراهم في يده .. كان يسير بسرعة تارة بجدّ ونشاط قدر ما تمكنه ركبتاه، وطوراً يرتاح في بعض النواحي، أو يبيت في بعض القرى الصغيرة ويصرف من الدراهم التي بيده ..

فلما طالت به المسافة وكانت يده فرغت من الدراهم اضطر عند ذاك أن يبيع من ثيابه الفاخرة التي كان يرتديها برتبة ضابط كان يقتات تارة بقليـــل من الطعام ، وطوراً يجري طول النهار بلا طعام ..

أخيراً بعد أن أوشك أن يصل الى بيروت ولم يعد له إلا البذلة التي يرتديها واحتاجت يده للدراهم إذ لم يعد لديه ما يقتات به فقـد اضطر أن يستعيض من البدلة المركزية التي يرتديها بجبة عتيقة رثة كان آنذاك قد صادف فلاحاً في بعض الحقول ، فاستبدلها بعلاوة بعض الدريهمات تفوق ثمن البذلة ، ومع هذا كله فلم يكن ليبالي بشيء . وليس له من الهموم في الدنيا إلا وصوله الى أمه..

ولا ريب ان جريه تلك المسافة طويلاً فطويلاً أنهكت قواه ، وما إن وصل الى بيروت حتى خال نفسه أنه في جنـان الخلد.. فانبثق بريق النور من وجهه وأمّل بالفرج العظيم ..

ارتاحت قواه .. فحمد ربه الذي أوصله سليماً معافى ، فقال في نفسه ، لو أن الله أسعدني ووجدت أمي في الحياة لا كملت حياتي سعيداً بقربها وإلا سوف أتيه في بلاد الله الواسعة ، وعبثاً يمكني البقاء دون مشاهدة أمي ..

لم يبطىء منير فأكمل سيره توا إلى الجامعة الاميركية ، فوصل اليها وهو شبه بائس فقير يستعطي ، كئيب الوجه ، رثّ الثياب ، طويل اللحيـــة ، لا يمكن أن يعرفه أحد، وهو منهوك القوى ، خائر العزيمة لشدة التعب ..

تقدم الى البواب فطلب منه شربة ماء ، فناوله البواب الإبريق فشرب واستأذن منه ان يستريح قليلا على الكرسي بعد الإعياء . فأجلسه البواب على كرسي صغير أمام باب المدخل ، فلم يكن يقوى على التكلم لأن حلقـه نشف لشدة الجري طول المسافة النائية ..

فسأله البواب ، من اين انت قادم ايها الشاب ؟

أجاب ، إنني كنت جندياً معذباً ، وبعده اصبحت ضابطاً ، فلما طال بي الوقت ولم يسمح لي بالانصراف اضطررت ان أفرّ هارباً ، وقد أعياني التعب لأنني منذ ايام عديدة وأنا أسير من بـلدة الى بلدة على قدمي حتى وصلت الى هنا خائر العزيمة لا ألوي على شيء ، ولم يعد لي قوة ان اجتاز خطوة واحدة او خطوتين من هنا الى هناك ..

أجاب البواب ، مسكين انت ، الحمد لله الذي أنقذك من غائلة الحرب . لكن بالله عليك ايها الشاب أخبرني ، الى أية بلدة ساقتك الحكومة ؟ وبأية مركزية كنت تقيم ؟ وما اسم الفرقة التي كنت تألفها ؟ هل كنت في ضواحي سوريا او في بر الأناضول او في بلدة نائية ؟

أجاب منير ، وحقك يا عم انني كنت في الموصل واحيانا في ضواحي الاستانة حيث كان الذعر والرعب طارحين اطنابهما ، مناورات ، هجومات، ليلاً نهاراً ، قلوب مرتعدة ، عزائم خائرة ، مناظر كئيبة ، مجاريح ، قتلى بلا عدد ، وكل منا واضع روحه بين يديه ينتظر الموت ساعة بعد اخرى .

إن جئت أسرد لك وقائع الحرب يلزمني مجلد ضخم ، فأرجوك ان تقيلني من حديث الحرب فإنني عند ذكره ترتجف اعصابي ..

البواب : أنا أعلم انك عي تعب ويصعب عليك التكلم ، ولكن لي سؤال صغير عندك أما يمكنك ان تجاوبني عليه ؟

منير : سل يا عم ما تشاء ، وانا كلي آذان صاغية لسؤالك .

البواب : انت تقول انك كنت ضابطاً في الموصل ، فبالله عليك أنبئني ، بأية فرقة كنت ؟ أما تعرف جندياً ، او بالأحرى اصبح ضابطاً واسمه منير ؟.. ان أمه سارحة في مسالك الدروب تبكي وتنوح لأن ابنها تأخر عن المجيء ، ولم تعرف عنه شيئاً ، فقطعت الأمل من مجيئه ومن وجوده في الدنيا ، فتراها كالبلهاء ، لا تلوي على شيء ..

منير : ولمَ تزيد عليّ السؤال وأنا تعب ؟ فهل الى هذا المقدار يهمك أمر ابنها ؟..

أجاب البواب : نعم يا ولدي ، ولي هادس عظيم ان اعرف شيئاً عن هذا الشاب اذا كان لم يزل حياً ام توفاه الله .. اولاً فإنه خريج الجامعة الاميركية التي أنا أقف على بابها حارساً ، وكان قد اعتاد هذا الشاب ان يرتاد الجامعة ذهاباً واياباً ، ناهيك عن انه استاذ ماهر نابغة العلوم ، وكان عليه ان يكمل السنة النهائية ليحصل على الشهادة العليا لو لم يكتب له الله نصيباً بالتجنيد. وحقك ايها الشاب ان قلبي يتقطر دماً حينما اشاهد أمه المسكينة تقول يا منير.

عند ذاك اضطرمت أحشاء منير فافتر ثغره لارتياح قلبه ان أمه ما زالت في الوجود ، لكنه لم يقوَ على تمالك نفسه فاغرورقت عيناه بالدموع .. عند تلك الحالة تبصر البواب بوجه منير فتوسم فيه المعرفة واختلجت جوارحه ، فقال له : أأنت منير ؟.. يا حبيبي . ثم هجم عليه كالوالد الحنون وقبله تقبيلا ، وكأنه لم يصدق انه كان عين الحقيقة . كان يردد قوله لمنير ويقول له : لله ما أبهج هذه الساعة ، هيا بك اسرع الى امك فهي تكاد تموت ..

أقبل منير على يدي البواب فقبلها وحمده على عطفه واستئناسه ، وكيف استقبله واجلسه على الكرسي وهو بحالته الرثة الشاحبة واستئناء ارتياحه للتطمين عن امه ..

أجاب البواب : رحماك يا ولدي ، انني لا اشعر قط انني عملت معروفاً احمد عليه ، لكن عينيك الكحيلتين لم تخفيا عني عزتك وفخرك وليس فقط ذلك ، بل انني حالما وقع نظري عليك اختلج قلبي تعطفاً للتحدث معك ، وكأن روحي اضطرمت في داخلي وعرفت أنك من بعض المعذبين في الجندية ، وحسبي أن أستقصي الأخبار عن الفتى الذي أحبه ، وهو منير ..

قال منير : أتحبني يا أبا سعيد ؟.. قال ، نعم أحبك وأنت بمثابة ولد من أولادي ، ولذا اقول لك ، يا ولدي ، يابني ..

قال منير : إذن أعطني رأيك أيها العم في موضوعي هذا الذي سأعرضه عليك ..

أبو سعيد : ما هو رأيك يا عزيزي ؟.. ماذا دار بخاطرك ؟.. بالله عليك أخبرني ، لكنني أرجوك أن تسرع إلى أمك ، لا تبطيء

منير : أيها العم ، إنني مسرع كل الإسراع لالتقي بها ، لكنني ولا ريب أن شدة الفرح للانسان تؤثر عليه مثل شدة الحزن فأخشى أن أبغت أمي بمفاجأة غير منتظرة فتصطدم بعوامل مؤثرة تفضي بها الى الاغماء أو الى الخلل ، لي فكرة أن أرسل لها كتاباً أنبئها بمجيئي قبل وصولي إليها ، ما قولك أيها العم أبا سعيد ؟..

أجاب ، حسناً ، حسناً ، هيا بك ، أسرع ، هوذا ورقة وقلم ، اكتب ما تشاء ..

كتب الكتاب منير وذهب مسرعاً الى جوار المنزل ليسلمه لإحدى الجارات لتنذر أمه بقدومه ، وما إن وصل الى أرجاء المنزل حتى التقى بخالته رندا على سبيل الصدفة ، فحالما وقع نظرها عليه وهو يخاطبها ليسلمها الكتاب

طار عقلها من رأسها، فضمته الى صدرها وأخذت تشمه شماً وتقبله .

عند تلك اللحظة خرجت أم منير الى خارج المنزل لتعرف ماذا جد مع اختها إذ أنها تأخرت عليها بالمجيىء حينما كانت كلفتها بغرض ضروري واذا بها يقع نظرها على أختها رندا تضم منيراً الى صدرها وتقبله ، فاختلج قلبها بالسرور ووقعت على الارض مغمياً عليها .. ولم تع ماذا كان من أمرها..

فاحتضنها منير وأخذ يقبلها ويفرك يديها ورجليها وأسرعت الاخت رندا وأمها بماء الزهر وأخذتا تسقيانها بعض المشروبات الروحية المنعشة ، تراكض الجيران عند تلك الضجة ، وكانت ما زالت غائبة عن رشدها ، وما انفكوا يستعملون لها الوسائط اللازمة حتى دب فيهـــا الانتعاش ، ففتحت عينيها ووجدت نفسها بين يدي ابنها منير .

اخذت تقبله بالدموع المنهالة على خديها وتقول .أحقاً أنت جئت ياولدي؟. لا ، لست أصدق .

الحقيقة انه كان مشهداً مؤثراً لحالة أم منير وانضمامهـــا الى ولدها ، سيما وانها حينما كانت تصيح يا ولداه ، أصحيح أنت جئت ؟.. كانت ساعتذاك ترفع نظرها الى السماء وتقول ، أحمدك يا الهي ، يا مَن أنعمت علي فأرجعت ولدي الى احضاني يا سيدي الرب ، إنني لست أحلم أن تصنع معي معروفاً كهذا ، أشكر مراحمك الإلهية ، يا من تأخذ وتعطي ، وتحيي وتميت .. زد إيماني أيها الرب العظيم .

حينما كانت أم منير تتلفظ بتلك العبارات المقدسة أضحت هي واختها رندا والجيران تقشعر أجسامهم ويذرفون دموع الفرح مسبحين الله ومهنئـــين بعودة منير ، وانصرف الجميع الى منازلهم مسرورين منشرحين ..

وحالما بلغ الخبر الاخت سميرة وعائلتها ، فجدة منير أم عادل وعمته فقد أقبل الجميع مهنئين بالقدوم الميمون ، ومقبلين عزيزهم وحبيبهم منـــير القبلات الحارة .

فتوافد جمهور الانسباء جماعات وأفراداً وبعض الاصدقـــاء لإداء التهنئة لتبيان ما خامر أفئدتهم من الفرح والسرور بقدوم النسيب المحبوب. وفي صباح اليوم التالي أقبل الاستاذ الاميركي وزوجته الى منزل أم منير مهنئين بقدوم ابنها ، فتقدما إليها بهدية ثمينةقطعة قماش من الجوخ الانكليزي لتكون بذلة لمنير وفستاناً زاهراً لها .. فتقبلت الهدية منهما ، وكان لها الشرف الزائـد بقدومهما فأثنت أم منير على جميلهما وعادت بعد ذلك الى عملهـــا في منزلهما كالمعتاد.. كانت قــد اكتسبت منهما محبة ورقة واخلاصاً نظراً لشدة مواظبتها على الاعمال التي كانا يكلفانها بها .

كان الاستاذ الأميركي ذا إهابة، طويل الجسم ، اشقر اللون تبـــدو على محياه ملامح الكرامة والاجلال ، موصوفاً بعمل الخير يتحلى بفضائل التبرع من يده البيضاء الى بعض المحتاجين ، وكانت زوجته أيضاً من السيدات الجميلات تنتمي لمساعدته على القيام بكل عمل صالح ينويان ان يعملاه .

قال الرجل : يا للفرج ، ما اجمل هذا اللقاء ، حقاً انها حكاية مؤثرة .

★

٢١

ولىّ الصيف وأقبل الخريف ، فتحت ابواب المدارس ، فأقبل منير الى الجامعة الاميركية وبدأ دروسه التكميلية للسنة النهائية ، ومـــا فتىء يسير بالاجتهاد الكلي حتى نال الشهادة العليا بكالوريوس علوم .

زقزقت أم منير وطاب قلبها ، فأملت لابنها النجاح والفلاح ، وشكرت الباري تعالى .. ثم عملت له حفلة شيقة حضرهـــا جميع الأنسباء وبالأحرى نقول – إن خاله بديع الذي كان وما زال قاطناً في سوريا مع أفراد أسرته فإنه حالما تبلغ خبر وصول منير الى أمه أقبل مسرعاً الى لبنـــان مصحوباً بهدايا نفيسة لأمه ولأخته بعد أن كان قد مضى عليه مدة طويلة لم يحضر فيها الى لبنان .. سرّ الجميع ان يشاهدوه بعد غيـــاب طويل فهجموا لتقبيله ، خصوصاً الأم العاجز فقد انتعش قلبها بمشاهدة ابنها وحفيدها : وشكرت الله لتلك الحفلة الاجتماعية الميمونة ولما لم يتسنّ لبديع الوقت المناسب ليمكث طويلاً بين آله وذويه أقام بينهم أسبوعاً كاملاً وقفل راجعاً الى أسرته مودعاً الجميع بتحسر الفراق .. ففي السنة الأخيرة التي أنهى فيهـا دروسه منير ، وبعد ان استراح قليلاً من عناء الدرس تدبر بوظيفة نبيلة كان فيهـــا مديراً لبعض الأقسام التعليمية .

هدأ الجو وساد النعيم في أرجاء أم منير ، ولم ننس أننـــا ذكرنا في حكايتنا هذه أن أم منير كانت ذات صوت رخيم ولحن طروب زاهرة الصبا تميل الى الازدهار والافتخار ، ولا ريب فإنها بعد ان فتك بها الدهر لم يعد

يحلو لها التلفظ حتى ولا بلحن من ألحانهـــا المطربة ، بل دامت مثابرة على الكفاح لاستثمار الانتاج الذي حصلت عليه بفضل جهادها لتدبير شؤون ولدها ووالدتها .

أما اليوم فنعماك أيتهـا الأم الفاضلة ، اسرحي وامرحي في فضائلك ، وتحت رعاية ولدك الذي سيبادلك الحنان ويقول لك ، كفي يدك عن العمل يا أماه أنا رهين بنانك .. أنا اليوم أصبحت استاذاً ، مديراً ، كل ذلك من أفضالك يا أمي ، راتبي لك يقوم بمعيشتك ومعيشة جدتي أحسن قيام . هيا بنا نستأجر منزلاً فخماً نزينه بالمفروشات الفاخرة ونسعد بحياتنا بنعمة الله ، لي كل القصد أن أعد لك خادمة خصوصية تقوم لك بكل أعمالك دون أن تكلفي نفسك إلا بالكلمة التي تتفوهين بها .

ليت لليد الكاتبة أن تشرح بوضوح عما خامر قلب أم منير من الابتهـاج حينما سمعت من ابنها تلك العبارات المزدوجة المنبثقة من جوارحه العطوفـــة فحمدت ربها لتخلصها من ذلك التيار الجارف ولجـــأت الى الصلاة مستمرة بالتسبيح للاله العظيم الذي أولاها النعمة .

فلما طاب قلبها وانبعث من عينيهـــا شعاع الفرح وكان جميع الأقارب واللائذين بها مجتمعين عندها في سهرة من تلك الليالي وقفت بخفة على رؤوس رجليها وهللت للرقص بالهمة المستوفاة من اندفاع عاطفتها ..

أخذت تغني وتدور بخفتها السريعة بالتنقل من خطوة الى خطوة لا يعرف لها وضع ، فدهش الجميع بسرعة خفتها ، خصوصاً منير الذي كان يتطلع اليها ويزداد دهشة لتنقلها في التكيف على الوان مختلفة من الرقص الذي كانت تكل عنه الراقصات في المسارح ..

وقد فتحت بوجهها ابواب الهناء ، والصفاء والرحمة ، والسلام ، فضحكت للدهر ؛ وابتسمت للحياة ، وبات منزلها منهلاً للزائرين والزائرات الذين كانوا يؤمون تلك الدار المزدهرة بالمفروشات الانيقة ، والاواني المزخرفـة بالزهور

الاصطناعية ، وقد عم البشر افراد العائلة حتى انهم كانوا يملأون الدار في كل ليلة ، ويدور الفرح في نفس كل منهم حتى ان الجدة ام عادل وابنتها كانتا تدعيان اليهما منيراً وأمه في كل وقت ينصرف اليه منير للفراغ من العمل .

كان يذهب اليهما تارة وحده ، وطوراً يصحب امه المزدانة بالحلى الفاخرة والثوب الانيق حيث تمجدت بعزةنفسها امامها،فزيدت محبتها لها، واصبحت متلألئة بكرامتها تجاه كل من عرفها .. وكانت الخادمة التي اعدها لها ابنها لا تألو جهداً في مرضاتها ، وتقوم بكل عمل تأمرها به سيما وإن النظافة كانت دأبها فأخذت تسير وراءها حسبما يقتضيه ترتيب المنزل .

أما الجدة العاجزة أم جميلة فقد خارت قواها ولم يعد لها قوة على العمل ، فسلمت الخادمة جميع شؤون المنزل وتركت لنفسها جانباً للاستراحة.مسكينة تلك الجدة العاجز..لم تعد تقوى على العمل، وليس لها رائد للتسلية..فعكفت على لعب الورق بنفسها ، كانت تتمنى ان تتسلى مع احد اللاعبين فلم تجد لديها سوى حفيدها منير الذي كان يأتي اليها كممازح فيقول لها : جدتي ، جدتي ، (ستي ستي) أتريدين ان ألاعبك بالورق ؟ تعالي فألاعبك دور باصره أتعرفين أن تلعبي يا جدتي ؟..

كان يضحك ويمازح جدته لينفي عنها الضجر والتفكير ويؤملها بالحياة الهنيئة ، ثم يعود إلى أمه ويقول لها ، أأنت مبسوطة يا أمي ؟..

دومي سعيدة برعاية الله ، فأنا أمامك ، وكل ما تجنيه يدي فهو بين يديك ، لك ما تشائين وما تطلبين .. وقد افتر ثغر الأم والجدة فأخذتا تدعيان له بالتوفيق وطول العمر ..

طابت نفس منير لارتياحه بحياة أمه التي تعيش في ظله وتحت كنفه .. راجت الامور معه وبرز في مقدمته العلمية وتبين بجلاء هدفه الى التمثيل في مسرح الوست هول وخلافه، وكان يقتصر على الحفلات في الطوالع الجامعية.. وكثيراً ما كانت المسرحيات التي يعدها للتمثيل ترضي كل الناس فيحمدون

ذكره ولا بد أن تكون بعض الميزات الخليقة به توفرت فيه حتى ضمنت له النجاح الباهر فذاع صيته بين أغلب الناس ..

مضت السنوات الطوال وهو يزداد إدراكاً لاستعداداته العلمية والمسرحية، أخذ يسرح في نوادي التمثيليات فأبعد عن ذهنه غباوة الجهل .. ولم تلمس مشاعره عوامل الحب كبقية الفتيان الذين يميلون الى الاهواء النفسانية فيعشقون الميول التافهة ويسحقون حياتهم للبذل والتضحية في سبيل ملذاتهم التي تصدر منها المشاكل التي يتعذر حلها .

فعلى ذلك وقد تعلقت نفوس الفتيات بـــه حتى أن البعض منهنّ كنَّ يتمنـّين أن يكون منير لهنَّ خطيباً ، أو زوجاً .. أما هو فكان ذا مناعة تردعه عن التوصل إلى الأمل الذي ربما كان يصبو إليه فكرياً ولا يهدف إلى مسعاه حذراً من تشاؤم أمه للماحكات التي تصدر بين الحمى والكنة .. وقـد أطلعتنا الأخبار أنه كان يوجد بالقرب من منزل منير عائلة عريقة كريمة الأصل مؤلفة من صبيين وبنت .. كان الوالد يشغل متصرفية جبل لبنـان ، وهو رجل عظيم ذو هيبة ووقار .. فأحب ذلك الوالد منيراً لتدرج مسلكه وقوة مداركه ..

كان يدعوه إليه في اوقات الفراغ ليتسلى معه ويشاطره علمه ، وكانت زوجته جميلة الوجه رشيقة القد فتانة ذات شخصية بارزة..مشهود لها بالاخلاق الطيبة المقدسة ، والملاحظة في أطوار أولادها الذين نشأوا على تربيتها وعاشوا ضمن ذلك البناء الذي شادته لهم بفضل تدبيرها وادارتها ..

كان أحد أولادها طبيباً ماهراً وهو الاكبر ، وقد ألف معاشرة منير فأحبه حباً شديداً نظراً لشهامته وآدابه ، وأدبه..فوثق منه باشتهاره في الادب لأنه اصبح فطحل الادب العربي وهو ما زال استاذاً ووزيراً .

كان للطبيب أخت اسمها جلنار ، كانت قـــد تلقنت العلوم في احدى المدارس الانكليزية الداخلية حيث تلقت الشهادة باللغتين العربية والانكليزية (هاي سكول High School).

كانت هذه الفتاة متصفة بأطيب الأخلاق ، رزينة حاسمة ، مجاهدة لكل عمل صالح يرضي والديها وأخويها ، وكان الجميع يحبونها محبة فائقة الوصف لامتلاء النعمة المتلألئة في وجهها الجميل وافترار ثغرها لكل كلمة تتفوه بها او صعوبة تقوى عليها او ضائقة ناتجة عن التفكير في مصاعب الدروس تجتازها وتتخطاها اذ انها لم تكن تشعر بمتاعب الجد في سبيل كل نتيجة مثمرة للحياة السعيدة

أما منير فبعد أن وثق بتلك الظاهرة الودية التي يبديها الوالد المتصرف ولده الطبيب أخذ يرتاد منزلهما فترة بعد أخرى في مناسبة أوقات الفراغ ، و بالسهرات ، فطاب قلبه أن يتذوق ويغتنم اوقاتــه للتحدث عن شتى أساطير تبرهن عن تجاوب محبته وغيرته نحو مجالسيه الذين ينتمي اليهم ويلوذ بهم وينطوي على مبادئهم وثقافة أخلاقهم وتقدمهم الى سمو الرفعة التي يتوق إليها ويجهد من أجلها .

وقد مهد له السبيل حضرة الوالد المتصرف ان يتصل به بصورة دائمة لانه أعجب من أحاديثه وطرائفه ، فكان كنديم له يسامره ويسري عن مخيلته كل التفكير ، وبالأحرف نقول .. انه حينما لا يحضر منير الى السهرة كان يرسل الخادمة وراءه ، فتدعوه ليصرف الجميع معه وقتاً هزلياً قصد التسلية والبحث عما ينجم من نفوس الناس وما يتأتى من ذواتهم للعمل الصالح أو الطالح ...

أما منير فألف معاشرة تلك العائلة الشريفة حيث كانت تتمايل أمامه تلك الفتاة الحسناء ابنة المتصرف ..

أخذت المسالك الكهربائية تتجاذب في ألحاظ العيون وسهام النار تشعل من القلب للقلب ما بين منير والفتاة جلنار ، والفؤاد يحكي بستائر الخجل الذي كان يضبط لهما كتمان السر العامل في أحشائهما .. كان يحلو لمنير أن يطلب شربة ماء من جلنار فتتراكض الخادمة لتلبيته ، أما هو فكان يقول لها ، لا أريد أن أشرب من يدك يا شاطره، بل أفضل أن أشربها من يد جلنار ...

وقد سرت بحبه جلنار حينما كان يطلب منها الماء ليشرب ويقول لها ،أنا عطشان ، كانت تخجل وتحمر وجنتاها فتشعر بانعطاف داخلي يختلج في صدرها

وينتابها بحيرة لعدم تمكنها من اكتشاف المكنون زعماً منها أنها هـي صاحبة الوجهة السلبية لانها هي التي تنتظر من ذا الذي يفتش عليها ويكشف لهـا مكنونات قلبية ..

أما الشاب منير وهو صاحب الوجهة الإيجابية الذي يتولى مطاليبه بدون استثناء،ويبوح بأسرار حبه بدون خجل ولا تكليف فإنه مع كل ما توسم في وجه جلنار من سحر وجاذبية لم يجرؤ على كشف مكنونه زعماً منه أن أمه كانت تعمل في منزل الاستاذ الاميركي، ولم يكن له يومذاك ثروة يتباهى بها تجاه من يحبها ويهواها ..

أما هو نفسه فلم يعد يقوى على ضبط عواطفه فكان يلتمس فرصة مناسبة للتحدث معها ، ويرغب في نموذج مبادئه كشف ما يكنه فؤاده من مغامرات وعوامل ودية تحكيها عيناه وعيناها ..

الحب لا يخفى وإن أخفيته والبغض تبديه لك العينان

أما هي فميزت الأمور وفطنت للسبب الذي يؤخره عن امتداد حديثه للموضوع ، لكنها لم تجرؤ أن تبرهن عن سورة حبها وتعشقهـا له ... ولم تكترث للموضوع الذي كان يعنيه بنفسه ، بل بعكس ذلك ، فاننـا لو حصرنا فكرنا للقضية لتبين لدينا ان المتصرف وزوجته واولاده كانوا يفخرون بعمل أم منير وجهادها في سبيل نشأة ولدها القويمة ومبادئه الشريفة الـتي مثلت له حياة سعيدة موفورة الكرامة . وقد تراءى لنا انه كلما حضر منير ليصرف موجزاً من الوقت مع ابيها واخيها كانت تتمايل امامه كالظبية المرتادة الى التلال تحاكي عيناها نظراته الخلابة فتحصر عواطفها الى التطلع في وجهه الساحر ، فاولعت به ولعاً شديداً أدى بها الى النحول دون ان يعثر احد على علتها التي لم يكن يوجد لها علاج ..

فانقطعت عن الطعام وابت ان تتناول من امها المغذيات اللذيذة ،والاطعمة الشهية التي كانت ترفضها رفضاً .. لا شيء كان يلذ لها الا ان تختلي في غرفتها

وتسبح في تيار مخيلاتها ، وعوامل الخجل لا تخولها ان تبوح بسرها حتى ولا لامها ، فذعرت الام لأمر ابنتها وخشيت عليها من الأذى لانحراف صحتها ، كانت توافيها ببعض الحلوى مرة بعد اخرى لتتغذى وتعيد بعض نشاطها فكانت تزداد رفضاً .. فلزمت الصمت الكلي حتى انها لم تعد ترغب ان يوافيها احد وهي ضمن غرفتها ..

تأكدت جلنار أن منيراً لا شك أحبها وتعلقت نفسه بهـا لأن مشاعره الودية دفعته للتحدث معها ، وللاطمئنان عن كيفية صحتها وسبب اختلائها في الغرفة .. وعن الداعي لعدم قبولها الطعام .. ولا غروَ إن قلنا أنه كان هو الطبيب المداوي لها إذ لحينه عندما تقدم لمكالمتها افترّ ثغرها بابتسامـة فكاهية روّحت عن قلبها عناء التفكير .

أخذ يناولها الغذاء بيده ويشجعها لتناول الطعام ، واستمر يوافيها دائماً ليسليها ويجلو عن صدرها غياهب الأسى التي أدت بها إلى النحول ، وليس ذلك فقط ،بل وإنه ما فتىء يسير معها بالتحدث عن شتى أقاصيص فكاهية مضحكة قصد التسلية حتى استعادت صحتها فكان كلما جاء ليبرح من أمامها لا ترضى الا بقاءه بقربها ..

ولما تبين لديه ولوعهـا بحبه وازدياد رغبتها بدخوله الى غرفتها للتحدث معها تجاسر اذ ذاك وقال لها ، أتحبينني يا جلنار ؟ قالت ، نعم ، نعم أحبك ، بل اهيم بك ، وكم انت محبوب ، يا كحيل العين ، يا أسمر ، ومن ذا الذي لا يحبك وأنت شهم كريم ؟ أفلا تحبني أنت ؟ أو ليس لك قلب يناجيك ؟

تحركت عواطف منير عند ذاك واضطرمت النار في احشائه ولم يعـد يقوى على كتمان سره ، فباح بقوله لها .. حبيبتي جلنار ، يا حياتي فأنا والله أسير هواك ، ورهين محبتك ، ان قلبي مشغوف بحبك قبل الآن لكنني في ارتباك من امري وهو ..

إن وجودك مع والدتي يشكل لك أمراً خطيراً في مستقبل سعادتك ،

لأنه عليّ فرض واجب مقدس تجاه أمي أن احترمها فوق كل احترام نظيراً لما ضحت في زمن صباها من شقاء في سبيل نجاحي .. وانت نفسك ابنة عائلة عريقة ربما تستخفين بها لأنها كانت تعمل في منزل الاستاذ الأميركي ، فأنا وحقك أرى في نفس امي ثروة وجمالاً ورفعة فوق كل انسان . ولست أرى أحداً أفضل منها .

ولم يكن شيء يردعني عن محبتي لك سوى هذه التفكرات التي أخشاها من سبيل المناقصات ، لأن الواجب يقضي لاحترام أمي فوق ما يجب أن احترمها وأخضع لكل ما تأمر به لالتفاتي نحوها والاعتناء بمعاملتها .

قال الرجل ، يا لطيب العيش بعد الشقاء ، ما اجمل المناجاة بين الحبيبين. ما أحيلى المسالك الكهربائية للحب الهنيء

انزعجت جلنار لتلك التنبهات التي صدرت من فيه ، فقالت له : إن هذا الكلام لا يحكى لفتاة نظيري شبت وتشب على العمل الطيب ، وانه لافتخار لي أن أقوم بخدمة أمك الفاضلة التي أوقفت حياتها للعناء والشقاء إكراماً لشخصك ، نحن جميعنا واقفين على طيبة أخلاقها وإخلاصها للعمل الصالح الذي اندفعت لإنجازه بواسطة جدتك التي كانت مساعدة لها .

إنني وربي أدوس كل الصعوبات في سبيلك حباً بمؤانستك ورقة اخلاقك ، فأمك هي أمي ، وجدتك هي جدتي ، والخادمة تدور بيننا ولا شيء يوجب الصعوبة .

منير : إذن فلنسر للامام ونسعى لإتمام أمانينا ، ولكن ماذا ترين أنه يجب أن نعمل ؟

جلنار : إن والدي وأخي الطبيب حتى وأخي الصغير أيضاً جميعهم ينشرحون صدراً عند ذكراك ويتمنون لك المحبة الخالصة ، فلا أظنهم يرفضون طلبك لإمساك يدي ، بل بالأحرى يرغبون ذلك مثلي واكثر ، هيا بك كلمهم بما يوحي به قلبك ، ولكن عفواً يا حبيبي ، هي كلمة التمسها

منك أن تسرع إلى أمك وجدتك وتأخذ رأيها في الموضوع ، ولا بأس منك لو استشرت جدتك أم عادل وعمتك ثم تعـود وتبسط رأيك لوالدي وأخي الطبيب حتى يتم مشروع خطبتنا برأي واحد من أفراد عائلتي وعائلتك .

راح منير يمشي وراء تبصراته بافتتاح حديث مع والدته ، فجاء إليهـــا مفاجئاً وقلبه طافح بالسرور فقال لها : أمي ، أمي ، أما تحبينني يا أمي .

أجابت الأم : يا حبيبي أنت ، وطبيبي ، ومنيتي ، كيف لا أحبك وأنا روحي بين يديك ؟

قال : فما دمت تحبينني فلماذا لا تزوجينـــني عروساً حسناء ؟ تشاطرني حياتي في السرّاء والضرّاء .

أجابت الأم : وهل لمثلك ان تحب فتاة تناسبك أفتظن أنني أكون عثرة في سبيل زواجـك ؟ لا يا ولداه ، فان كنت تروم الزواج أنا لا أمانع أن أطبق رأيي معك للموضوع .. هيا بـك ولا تتأخر .. ترى من تريد أن أخطب لك من الفتيات يا ولدي ؟ أسميره أم منيره ، أم كريمة ، أو سليمة، فهؤلاء كلهن جميلات ، قد درسن بعض العلوم المفيدة، وهنّ من بعض نسيباتنا ويلذن بنا .. يجـــدر بك ان تنتقي إحداهن التي تحاكيك ثقافة ومقـــدرة وانسجاماً .

أجاب منير : أمي لا تطيلي علي الشرح لأوصاف البنات ، أرجـوك فأنا لي نظرة وأعرف كل واحدة منهن ، ولكن ، إن لي قلباً ، وقلبي لا يدفعني إلا لحب الفتاة التي تحاكيه وتتجاذبه وتقوى عليه ، فأرجـوك أن تصغي إلي فأقول لك كلمة واحدة ، أنا أحب جلنار ابنة المتصرف وقلبي مولع بهـا ، وهي تحبني ومشغوفة بحبي حتى الموت تتمنى مشاهدتي في كل دقيقة ، فتأكد والداها وشقيقها الطبيب من مزيد حبها لي وجميعهم يحبونني محبة فائقة الوصف ويرغبون اتمام خطوبتي لابنتهم ، فما رأيك في الموضوع ؟ تعالي يا جدتي فأقول لك أنا أحب جلنار، فما قولك يا جدتي؟ أولست ترين أن رأيي مصيب بحبها ؟

هتفت الجدة والأم باسم جلنار ، فقالت الأم : ما لك ولرأينا يا ولدي ؟ دونك وافعل ما تشاء ، فأنت أصبحت في السابعة والعشرين من عمرك يمكنك أن تفهم الشيء الموافق أو غير الموافق .

منير : أمي ، حقاً ما تقولين ، وبالحقيقة ان الكثيرات من اللواتي يثقن بي ويوافقنني ويطبقن آراءهن على كل كلمة أتلفظ بها تجاه كل مصدر في الحياة انتمي إليه ، ولكن ، الحب يا أمي ، الحب ليس هو إلا لواحدة منهن ، وهي جلنار .

فأنا وحقك لا أحب سميره ، ولا منيره ، ولا كريمه ، ولا سليمه ، أو غيرهن من الفتيات اللواتي تذكريهن أمامي .

الأم : فما دمت إذن تحب جلنار يا حبيبي ، إن تقل كلمة واحدة باشارة من اصبعك إلى الفتاة التي يلمسها قلبك ، فأنا أمامك لطلبها ، ولا ابطىء عليك بامساك يدها .

قال الرجل : نعماك أيتها الأم الصالحة ، رعاك الله وانعم عليك بطيب العيش ، هنيئاً لك بقرير عين تسرّ به نفسك .

★

٢٢

منير – أمي : بما انك وقفت على حقيقة حبي إلى جلنار ، وتأكد لك أنني لا أهوى سواها ، فماذا يجدر بنا ان نفعل ؟ .

الأم – جلنار ؟ ابنة المتصرف ؟ . لي الشرف العظيم أن ألوذ بهذه العائلة الكريمة المحتد ، هيا بك لتدبير الخطوبة في أول احد من الأسبوع القادم إن شاء الله ، وبعده في زهاء أربعة اسابيع ترتب حفلة الزفاف .

عليك أن تسرع الآن الى السوق لابتياع المجوهرات والحلى الثمينة وانا سائرة امامك إلى منزل جارنا المتصرف ، ثم نهضت الام لسرعتها وحضرت الى المنزل المشار اليه حيث قوبلت على الرحب والسعة .. فبرهنت حينذاك عن قصدها ، وغاية مجيئها للأمر الذي ينم عن حسن ذوقها لتفهم رأي الفتاة وتسألها عما تريد ان تهديها من حلى ثمينة ومجوهرات فاخرة فيما لو تم الاتفاق للرأي الموافق من كلا الجانبين .

وما أن أتمت الأم حديثها حتى اقبل منير حاملاً بين يديه كل غال وثمين ليقدمه لعروسه وقلبه طافح بالسرور ..

تمت الآراء ووافق الجميع على عقد الخطوبة ، فالزواج بأقرب وقت ، كان لجلنار ساعتذاك السرور العظيم لتتميم امانيها .

نهض منير للحال الى منزل جدته أم عادل وتقدم بدعوته اليها والى عمته

لحضور حفلة الخطوبة ودعا ايضاً خالتيه رندا واسرتها وسميرة واسرتها وبعض أنسبائه اللائذين به فهيأوا حفلة الخطوبة وكانت ليلة حافلة .

وليس بكثير من الوقت حين لم يمض على الخطوبة أكثر من مـدة الشهر حتى باشر منير الاحتفال الزاهي لاتمام حفلة الزفاف ، قامت ام منير بمهمتها للحفلة المذكورة ، فبارك اكليلهما سيادة مطران الروم الارثوذكس ، وكان اكليلاً ميموناً حضره اكثر الاصدقاء والأنسباء المدعوين .. فتقـدم الجميع لإداء واجب التهاني وكل سار في سبيله ..

طاب قلب الحبيبين، فرقدا في مهدهما يتغازلان بالحب وينشرحان للعوامل الودية التي جمعتهما في شخصية واحدة بارزة في الهيئة الاجتماعية ، فامتطيا مجد العز والكرامة للثقافة التي توصلا اليها وترعرعا بالعيش الرغيـد طول العمر

رزقهما الله ابنتين وغلاماً ، اسم الأولى ليلى واسم الثانية دعـد ، واسم الغلام سمير ، كان منير يهتم بالامور التربوية ، فقام بتربية اولاده على النسق الذي نشأ عليه .. وكثيراً ما كان يلقي محاضرات في المجتمعات ، واحياناً في الاذاعة لمحك الاخلاق التربوية والاهتداء الى تمثيـل أدوار الحياة ، ويجعل غرائزهم البدائية مثالاً لاترابهم الذين تتأصل فيهم روح الفضيلة والآداب ..

وقد صمد منير في موكب زواجه ناعم البال رائجاً في اقواله ، واعماله ، وآرائه ، وأحواله وتجلى له في حيـاة أمه أن يخلي لها ولجدته غرفة خصوصية تستغرقان فيها للراحـة والهناء فضـلاً عن تجولها في جميع زوايا المنزل المؤلف من خمس غرف ودار كبيرة وما يتبع .

وكان يتأسر بالتحفظ على كيان امه فيبسط لهـا اسباب الانشراح وعـدم التعرقل لأي أمر تطلبه دام طويلاً يتلطف بعباراته المزدوجه مع امه وجدته ولا يقابلها الا بالضحك والهزل لكي ترتاح نفسها من الانزعاج الذي ينتابها من قبيل صحتها ، لأن الجدة باتت رازحة تحت سن الكهولة الى ان اعتراها مرض في كليتيها حالت منه دون الشفاء ، فتوفاها الله وانتزعهـا من يدي

ابنتها ، فتركت لها الحسرات وخلفت لها الحزن العميق ، فتأثر منير لفقد جدته التي ما زال يذكرها بتربيته والاعتناء به ..

أما ام منير فبعد ان تجلت لديها الدنيا ، واستمدت من الحياة رغد العيش ومن بعد العسر يسراً ، ومن الصبر اجراً ، واستراحت من عناء العمل ، وتوسعت في بحبوحة من ماديات الحياة فقد ابتلاها الله بالامراض العصبية المؤلمة فتأثرت بانحطاط جسمها لشدة التعب الذي حل على اعصابها بعد الراحة فانهكت قواها لتجسم الأعراض التي كانت تداهمها وقعدت بحياتها حتى انها لم تعد تقوى على الانتقال من مكان الى مكان .

أخذت جلنار تقوم بالواجبات المنزلية مع الخادمة سعيدة فترضي حماتها وكانت تعتني بالجدة حتى آخر نسمة من حياتها

كان الجميع يمدحون أعمالها سيما وان الشابات لا ينسجمن – مع العاجزات. أما هي فصمدت بوجه العقبات ، ولم تأبه لهول المتاعب ، فتغلبت على بعض الصعوبات بفضل قوة ارادتها ، ولم تدع مجالاً لاحد أن يتدخل في شؤونها ، فاكتسبت محبة زوجها وآله وكل من عرفها كان يثني عليها ويمدح أعمالها .

وذاع صيت منير بمسرحياته واتقانه فن التمثيل الى الاقطار العربية ، وعرف الكثيرون عنه أنه يقوم بتمثيليات ذات نتيجة مثمرة

كان لمنير صديق وفي من أحد رفاقه التلامذة يهدف الى التمثيل ، ويرى في تمثيليات منير فناً جميلاً وهو نفسه عميلاً معه في تمثيلياته . فلما حان موعد رجوعه الى وطنه (العراق) لم يبطىء بتدبير وظيفة الى منير تضمن له راتباً مضاعفاً عما ينفق في لبنان بغية أن يبقى ملازماً إياه متعاملا معه بمسرحياته ولذا فقد فوجىء بدعوة من المفوضية الانكليزية في العراق ليكون رئيس قلم الصحافة فيها ، يتعاطى عمله من بدء الساعة الثانية صباحاً الى الساعة الثانية بعد الظهر إذ يكون له حق الضمان أن يبرز من مسرحياته ما ينوي ان يعمل بعد انصرافه من الوظيفة ..

فعلى مثال ذلك تقبل منير الدعوة بملء رضاه وكان له رغبة فائقة للسفر آنذاك .. لكنه أصبح في عراك في نفسه وساورته الحيرة كيف التوصل الى الحل الذي يمكنه أن يفارق أمه ..

جاء إليها يخاطبها برقة أسلوبه ولطيف عباراته العاطفية معتذراً لديهارفض الطلب الذي فوجىء به من أحد أصدقائه الذي حاول أن ينتمي إليه ليكون معه عضواً عاملاً في مسرحياته ..

لا ريب أنه كان من الصعب على منير أن ينصرف الى تلك النواحي لولا ان الظروف ساقته ليلعب دوره في ذلك الميدان الذي أمّل فيه مستقبلاً باهراً يضمن له نتيجة مجدية تعود بالخير عليه وعلى عائلته من بعده ..

كان تبليغ الخبر لأم منير كنزول صاعقة من السماء صبت على رأسها فأخذت بالبكاء .. فتأثر منير لبكائها وقال لها : أمي ، ان بكاءك هذا يجرح فؤادي ، ويضعف أعصابي ، هدئي روعك ، لاتهيجي اعصابك فأنا وحقك سأزيدأجرة الخادمة سعيدة لتعتني بك واعدها بهدايا ثمينة فتراعي ظروفك وسأضع بين يديك مبلغاً من الدراهم تتصرفين به كيفما تشائين،وأكدي يا أمي انني سأطل عليك في كل مدة مناسبة ، وكتابتي اليك ستكون متواصلة ، دومي سعيدة بصفاء ورخاء ، وهاك الخادمة بين يديك تتمنى رضاك ،فأنا وربي لا أعيا أن استعمل أية وسيلة لراحة نفسك وتخلصك من الانزعاج فلا تعرقلي مسعاي،لدي مسؤولية كبرى وهي تربية الأولاد ومصاريف المدارس والاعتناء بك ، فلا تقفي عثرة في سبيل هذا الرزق الشريف الذي وهبني إياه الله من غيوث نعمته، فأنت الآن متخطبة حقول الضجر لشدة آلامك العصبية ، وهل يمكنني أن أردع أولادي عن الضجة واللعب حولك ؟.. وهل يمكني أن أقف امام هذه المشكلة التي تزعجك وتعاند قوة التراجع في الأولاد ؟..

هي غريزة فيهم لا يقوون عليها إلا لاسباب المرض والرسوب في الفراش..

الأم : حبيبي ولدي ، وهل تراني اكره الأولاد ؟ فهم ولا شك أولادي ،

حبق ، نفسي تتوق لمشاهدتهم في كل وقت ، وأعتقد أن السعادة تـــأتي من
رائهم » ولكن ، أواه يا ولدي ، لقد ضاق صدري، أتركني وشأني فقـــد
عترتني الاوجاع العصبية دعني استعمل العلاج الذي وصفه لي الطبيب وأنا
ملقاة على فراشي .

في تلك اللحظة تراكضت الابنة الصغيرة إليه وهي تصيح بابا، بابا،فأسرع
اليها وقال لها ما بك ؟ لماذا تبكين !.. أجابت بصياح شديد ، إن أختي
ضربتني ضربة مؤلمة ، هجمت عليها لاضربها فأوقعتني على الارض جريحة فسال
الدم من يدي .. أخ ، أخ يا أبي ، اضربها فهي شقية ، ثم جاء الى اختها فقال
لها : لماذا ضربت أختك ؟.. أجابت ، إنها هي التي ضربتني أولاً ثم عدت أنا
فضربتها ، وقس على ذلك ..

ثم دار منير وجهه نحو أمه وقال لها ، هل أعجبك هذا الصراخ يا أمي
ها هي الآن سعيده امامك مستعدة لخدمتك على أكمل وجه ، أليس كذلك
يا سعيده ؟.. سعيده : نعم ، نعم يا سيدتي ، فأنا وربي طوع امرك .. طب
قلباً ايها الاستاذ ، واترك الهمّ عليّ ، فلأحسبنّ والدتك بمثابة والدتي ، أحنو
على خدمتها ومعاملتها بأقوى ما تملكني يدي ، فلسوف ترجع يا حضرة الاستاذ
ان شاء الله بعد غيابك وتشاهد مني ما يرضيك وتؤكد صدق كلامي معك .

منير : بوركت يا سعيده ، ما ألطفك، ما أعذب عبارتك ، فأنت وحقي
لك مني اضعاف ما تستحقين لأنك لا تحتاجين الى التبصر في الأمور ، فذوقك
واختبارك في مسالك الحياة ملأ قلبك بالمحبة والرجاء، دومي سعيدة يا سعيده.

ثم عاد منير متجهاً نحو أمه فقال لها ، إنني يا أمي عزمت على السفر ولا
مفر من هذا القرار .

٢٣

ها قـــد وصلتني برقية من العراق من المفوضية تلتمس حضوري بأسرع وقت ..

هيا بنا يا جلنار نتأهب للسفر مع الأولاد . تعالي يا عزيزتي ودعي امي (حماتك) بقبلات المحبة وهلمي إليها بالأولاد لوداعها وتقبيل يديها ، وأنت يا سعيده ، ما هي وصيتي عندك ؟. أجابت سعيده : هي أمك ، وأنا كلي لأمك ..

بكت الأم ، فبكى منير وانحنى يذرف الدموع مقبلاً يديهـا ووجنتيها ويقول لها ، زوديني برضاك يا أماه ، وهكذا جاءت الكنة جلنار والأولاد مودعين إياها بالقبلات الحارة طالبين رضاها ورافعين ايدي التحية قائلـين : الوداع يا جدتاه ، إلى اللقاء ، إلى اللقاء . وكان منير قد قام بدعوة وداعية الى جدته ام عـــادل وعمته ، وخالتيه رندا وسميره وافراد اسرتيها وبعض انسبائه اللائذين به ، فحضر الجميع مودعين منيراً وأفراد أسرتـه بتحسرات القلب داعين له بالتوفيق والنجاح .

سارت العائلة على بركة الله الى الأقطار العربية حيث كان ذلك الصديق الحميم بانتظاره على نار ، وكان مسروراً جداً لتتميم غايته المنشودة ، فاستقبل تلك الاسرة بكل ترحاب .

فبعد ان استقر منير في عمله المشار اليه ، أدخل اولاده الى المدارس وبدأ

يجاهد بأعماله في المفوضية المذكورة الذي طلبه إليها صديقه الحميم .

وعند نهاية عمله بعد الظهر يستعيد لنفسه قليلاً من الراحة وينتزع عن ذهنه كل غم وهم ، ثم يعود ويتطور للقيـام بالمسرحيات التي كان ينظمها هو بنفسه ويقوم بتمثيلها مع الجوقة التي تنتمي إليه ..

ذاع صيته في تلك الأقطار ، وبرزت اعماله بين العناصر المتآلبة وأضحى رفيقاً مجالساً لكل من ينتمي إليه ويستحب مسرحياته وأعماله .

فبعد أن ودعت أم منير ولدها وعائلته بالحزن العميق كانت لا تفـتر عن ذكرهم دقيقة واحدة .. فزودتهم الرضا والدعاء طالبة من الله ان يوفق أعمال ابنها ويعود به إليها سليماً معافى مع عائلته .

كانت اختاها رندا وسميره لا تتجاوزان يوماً واحداً دون المجيء إليهـا فتوآسيانها لابتعاد ابنها عنها وتوفران لها التسلية بالاحاديث المضحكة الـتي تصدر من أسباب الهزل والمزاح والخادمة سعيدة كانت تضمن لهـا الراحة لمقتضى كل حاجة تلزمها فتغار على محبتها وتحرص على خدمتها كالأم الحنون حتى انها لو شعرت بأقل ألم في منتصف الليـل كانت تهب ناهضة وتسرع لمعالجتها لإعطائها العـلاج اللازم .. وتبقى ساهرة معها الى وقت تسكن فيه آلامها ثم تعود فتنام

أما الجدة أم عادل فباتت في نزاع عجزها والكهولة فرزحت تحت عناية ابنتها العانس التي كانت تقوم بمعاملتها ، وقد انحصرت أخيراً ضمن نطـاق يضيق بها ذرعاً لملازمة أمها دون أن يحول دون خروجها من المنزل حتى انها لو أرادت أن تستقصي أخبار ابن أخيها أو أي أمر آخر لم يكن يتسنى لها أن تترك أمها وهي في حالتها الخطرة .

أما منير لم يكن ليتأخر عن المراسلات لأمه ولجـدته وارسال بعض الدراهم اليها وقتاً بعد آخر ، ولم يطل الوقت على منير اكثر من السبعة أشهر فيما كان متكئاً على سريره وهواجس الأفكار تتلاعب في رأسه ما بين إعداد

مسرحياته ، وما بين التفكير بأمه وجدته وإذ وردت اليه رسالة من عمته تنبئه بنزاع حياة أمها الاخيرة وطلب مشاهدتها إياه النظرة الاخيرة ، فتألم منير لذلك النبأ المفجع وارتبك في وضعية أعماله ، لكنه لم يبطء فأسرع لساعته وهب ناهضاً الى المفوضية يلتمس فرصة اسبوعين ، وعمد عند ذاك على الرجوع الى لبنان باستثناء الفرصة المشار اليها ..

وصل منير في تلك الليلة الى لبنان متجهاً تواً الى أمه حيث شاهدها مريضة ملقاة على سريرها، والخادمة سعيدة جالسة بقربها على كرسي تسليها، فبعد ان انشرح قلبه بمشاهدة أمه التي فوجئت بقدومه فقد طاب قلب الأم وتشددت قواها ، فقالت له : اسرع يا بني الى جدتك فهي بين حالتها الاخيرة والنزاع فطلبت مشاهدتك قبل وفاتها ..

أسرع منير لمشاهدة جدته أم عادل ، وما ان وصل عتبة الباب حتى لفظت أنفاسها الاخيرة .. فحزنت نفسه حزناً شديداً لعدم وجوده أمامها في حالتها الاخيرة والتعذر لعدم التكلم معها الكلمة النهائية .

قام منير لجدته بمأتم جليل حضره سيادة مطران الكاثوليك مع لفيف الاكليروس وصلي على جثمانها .. فدفنت في مثواها بجوار آلها وذويها ، رحمها الله ..

لجأت العمة الى ابن أخيها منير ، فاستنارت روحها بمحبته بعد ان أقبلت على الوحدة وباتت أسيرة الحزن لوفاة والدتها التي كانت تأنس بها وتستظل تحت جناحيها ، وكان للجدة ثروة من وراء أبيها .. ولما كانت البناية التي تقطنها ام عادل وابنتها في طابق خصوصي لسكنها ، والطابق الآخر للإيجار فقد أصبح الإرث يشمل منير (الحفيد) بعد وفاة جدته ..

فدعته العمة وقالت له : اجلس هنا يا حبيبي فأطلعك على امور داخلية .

أجاب منير : وأية امور يا عمة ؟ هاتِ ما عندك .

إن هذه البناية المحاطة بالحديقة المزدانة بالاثمار والازهار المتلألئة ، ليست

هي إلا إرثا من وراء جـدي والد أمي ، وتشمل هذه البناية حصتين ، حصة لوالدك ، وحصة اخرى لي ..

فبما ان والدك انقطعت اخباره عنا منذ سنين طوال ولم نعـد نعرف عنه شيئاً ولا وقفنا له على أثر فأنت الآن أصبحت وليّنا ومدبر امورنا ، وليس لنا غيرك في هذه الحياة الدنيا ..

دعني أعرفك على أفراد أسرتنـــا ، وقد حضر خالي من الاسكندرية لتمضية بضعة اسابيع في ربوع لبنان . وهو رجل ذو ثروة طائلة ، كريم الخصال ، عذب الألفاظ ، لين العريكة ، يستميل القلوب اليه برقة أحاديثه، لا بد لي ان أواجهك به، فقد وصل الى لبنان ليلة أمس ونزل ضيفاً في منزل ابن عمي ، وفي صباح غد سيوافي منزلنا لإداء التعزية ويحل ضيفاً في دارنا ..

وبالحقيقـة ان افراد عائلتنـــا يودون التعرف عليك لأنك كنت ضالاً فوجدناك ، وانني لقـــاء اعمالك الطيبة وجهادك بشهرة اعمالك واعلاناتك للجماهير الذين يحققون أمانيك فإنني أتقدم بابراز حصتي ليكون لك تطبيقاً لحصة أمي ..

أنت عزيز على قلبي يا منير ، يا حبيبي انت ، يا عماه ، اكد انه لا شيء في الدنيا يوازي محبتك . ها أنا ساعية وراء القانون القضائي لتسجيل البناية باسمك ، فتحضر الى هنا مع أفراد أسرتك ووالدتك ونقطن سوية في قسم من البناية ، ويكون القسم الآخر للإيجار ..

أنا وربي ان لي كل الثقة أنك ستعتني بي مثلما تعتني بوالدتك ، ولا ريب فان أعمالك الصالحة برهنت عن جودة تصرفاتك في الاوضاع البشرية ، فلن ارضى منك بعد الآن أن تغيب عني وتنازع قلب أمك لفراقك ..

٢٤

العمة – عزيزي منير ، إصغ الي يا عمتـــاه ، يجدر بك أن تضم افراد أسرتك الى هذا المكان مع والدتك فنصبح جميعنا أسرة واحـــدة بالشكل الكامل للإيمان القويم بالأعمال الصالحة التي أوصانا بها السيد المسيح .

منير – عمتي ، انني لو أمعنت النظر اليك لوجدت فيك النبل والفضل الوفي بلجوئك إلي، وعطفك علي وقد تبرهن لدي أنك على ثقة شديدة مني ، ولا ريب في أنك ستواجهين مني ثقة أشد وأقوى مما أنت تثقين ، ويجب علي أن أحترم شخصيتك وأغار على حياتك لأن مبادئك الطيبة وطدت آمالك في ما سوف أقوم به نحوك من واجبات .

أنت عمتي ، وليس لي عمة أخرى سواك ، فلا البناية تدفعني للاهتمام بك، ولا الارث يحرك عواطفي نحو الالتفات اليك ، انما هو واجب مقدس يفرض علي لمؤازرتك والاعتناء بك ولكل داع تدعيني به اليك .

دعي البناية في هامش من الذكر وهلمي الى مـــنزلي حيث تقطن أمي ، هناك دار واسعة فسيحة الأرجاء يمكنك أن تعيشي معهـــا ، وهي والحق تحبك كثيراً لأنها غب وصولي اليها ألحت علي بتوصية هـــامة مختصة بك ، هلمي الآن وسيري أمامي هوذا العربة بانتظارنا ..

العمة – لا يا عمتاه ، سوف لا أطلع من منزلي (بيت أبي وأمي) الذي فيه تربيت، ولا أدع مجالاً لأحد أن يقطف الأثمار الناضجة التي في الحديقة ،

والزهور الباسقة فيها .

انني جادة بالطلب منك أن تعود الى لبنان ثانية مع أفراد أسرتك باقرب وقت يمكنك ..

أجاب منير – فما دام الأمر كذلك والظروف تقضي عليَّ أن أعود الى الوطن لعيادة أمي وعيادتك فلسوف أقوم بوعدي معك الى نهاية السنة ، أي في زهاء شهرين .

أما الآن فأنا متعاقد بعملي في المفوضية ، ورسوم المدارس مدفوعة عن الأولاد ، ناهيك عن وجود شتى أعمال ملقاة على عاتقي ينبغي أن ألازم تشغيلها للموظفين .

فضلاً عن النمط الذي أنا سائر عليه من ادارة التشغيل لمنظمة المسرحيات التي تعود علي بالارباح الوافرة فعلي اذن أن أعود اليك عند نهاية السنة حين لا أعود أذكر الهجرة ثانية .

انني الآن سوف أهيء لك خادمة وأدفع لها راتباً من ثمرة اتعابي ، لا تجزعي ، ولا تقنطي يا عمتاه ، عما قريب سأكون بين يديك وانفق من أموالي عليك مهما تريدين .

مدي يدك الآن وتناولي بعض الدريهمات وبعد وصولي الى العراق بوجيز من الوقت سأوافيك بكمية أخرى حينما ارسل دراهم لأمي .. لديك ، وفي يدك استلام الايجار الذي كان بحوزة جدتي تتصرفين به طالما أنت في الوجود وأنا لا أتأخر أن أرسل لك تحريراً طيه بعض الدراهم تزيدك بحبوحة لعيش رغيد .. استودعك الله يا عمتاه .. الى اللقاء .

هجمت عليه العمة تقبله قبلة الوداع واغرورقت عيناها بالدموع ، فأودعها السلام وعاد تواً الى أمه وأطلعها عما دار بينه وبين عمته من الحديث ..سرت الأم غاية السرور وانشرح صدرها ، أولاً لأسباب عودة ابنها اليها ، وثانياً لاكتساب محبة عمته لتكون عضواً عاملاً فيه متوفرة له بتسجيل البناية التي

سيرثها من وراء جدته .

فأمّن منير حياة أمه وحياة عمته ، وكل منهما لديها خادمة تقوم لهـــا بالأعمال الضرورية لمقتضى كل حاجة .

فلما حان موعد السفر لعودة منير الى عمله حيث كانت زوجته واولاده بانتظاره على أحر من النار عند وصوله هتف الأولاد جميعهم فرحاً بلقـــاء والدهم ، وترنمت الزوجة جلنار بقدومه الميمون.. فسار آمناً مع افراد أسرته

وفي اليوم التالي عاد الى مركزه وبـــدأ عمله كالمعتاد ، وكانت الجوقة المسرحية بانتظاره .. وبالأحرى صديقه الذي كان ملتزماً الأعمال المسرحية التي يتعاطاها معه .. فرحب الجميع به وقاموا له بموكب الفرح . فبعد أن استقر في عمله ، وفي آن من الوقت جاءهم باتمام ما ينوي أن يهيء من اتباع منظماته المسرحية التي كانت غاية دأبه في استعداداتها ، ودام سائراً على هذه الحالة حتى نهاية السنة كان خلالها يشعر بلذة أعماله باستعداده للاعمال المجدية التي أبرز من ورائها نجاحاً باهراً .

ولما لم يكن بد من عودته الى لبنان حسب مقتضى الظروف فقـد باشر لحينه بتقديم استقالته ، بيد ان المفوضية لم تقبل له استقالته رغبة منهـا في بقائه لتدبير الأمور التي هي من شأنه أن يقوم بها هو نفسه وليس أحد سواه لأنه كان منظوراً اليه من حضرة المدير وافراد الموظفين .

لم يشأ منير بملء خاطره أن يترك عمله في المفوضية لولا انـه نظراً للحالة التي توصلت إليها أمه وعمته وحالت دون أمانيه ، فاعتذر إذ ذاك دون البقاء وعمد على الرجوع إلى لبنان بأسرع وقت يمكنه ليعود ثانية الى وطنه (بيروت) فأودع الجميع السلام وعاد راجعاً مع أسرته إلى بيروت حيث استأجر منزلاً كبيراً يؤويه مع افراد اسرته باستثناء وجود خادمة مساعدة لزوجته .

دامت الخادمة سعيده مع أمه بمثابة ابنة لها تحنو عليها وتخضع لمعاملتها ، وكان الطبيب أخو جلنار لا يتغفل عنها أبداً طيلة غياب ابنها عنها ، كان

يوافيها في كل صباح ومساء ويستعمل كل اطراء بالتحدث معهـــا على سبيل الفكاهة والمزاح ولا يتأخر عن معالجتها ..

يا طيب ساعات كانت تلتقي فيها تلك الو لدة بولدها منير حينما كان يوافيها في كل يوم بين صباح ومساء فتغمره بحنانها وينتعش قلبها بمشاهدته سيما عندما كان يبيت عندها ليلة بعد أخرى .. لم تكن أم منير تكره انفصال ابنهـــا عنها لانتقاله الى منزل آخر مع أفراد أسرته لأنها كانت قـــد انهارت قواها بسبب الاعراض التي داهمتها ، ولم يعد لها طول اناة لتسمع ضجـــة الاولاد والصياح المتواتر بين جدران المنزل ، فلذا لم تعترض عليه بشيء لانه لم يجعـل لها مجالاً للاعتراض ..

ما زالت تلك الكنة الصالحة توافي حماتها في كل يوم مصطحبة أولادهـــا معها لسؤال خاطرها واكتساب رضاها ، وكانت الجدة تسـرّ أن تضمهم إلى ذراعيها وتقبلهم بقبلات حارة ويطيب قلبها بمشاهدتهم .

ولم تكن جلنار تتأخر عن الذهاب الى منزل والديها مع زوجها واولادها لاندفاع دعائم المحبة التي تشمل الوالدين والاولاد .. وكان الطبيب لا يفارق منزل اخته لأنه كان محباً لصهره ومحبوباً منه ..

وكثيراً ما كان منير يصحب نسيبه الطبيب الى منزل عمته ليتفقد احوالها وكانت هي تهتف بلقائها كمن وجدت كنزاً ثميناً. كانت تقطف الاثمار وتقدمها لهما ، ثم تعود وتجمع باقات الازهـــار وتحمل اليهـــما ما لذّ وراق للنظر ، فيخلفانها طافحة بالسرور بعد ان يودعاها بالسلام .

وهكذا دام منير يوافي عمته وقتاً بعد آخر ، تارة بصحبة زوجتهواولاده وطوراً بصحبة نسيبه الطبيب واوقاتاً يأتي وحده.. فلم تكن لتراه الا واصلاً امامها يرمي عليها التحية .

واستمر منير على هذه الحالة طيلة العشر سنوات يداري امه وعمته .. ولم يطل الوقت بعد ذاك اكثر من السنتين حتى رزحت ام منير في فراشها تحت

وطأة علة في حنجرتها حالت دون الشفاء ، فنقلها ابنهـا الى المستشفى حيث عولجت من عدة أطباء لم يعثروا على شفائها ، وبعد انتهاء اجلها لفظت انفاسها وهي تفوه باسم منير ، فحملها ابنها الى منزله وشيع جثمانها بالدموع السخينة آسفاً على فقدها بكل جوارحه .. فعمل لها مناحة عظيمة ، وكان لذلك المأتم وقع مؤثر في قلوب الناس حينما أخذ منير يرثيها بدموع الحزن ويقول :

أمي .. لم أر بدأ من الخضوع أمام جثمانك هذا ، يا من تركت قلبي يتنازع بعوامل الحزن العميق لفقدك ، فيالتعاستي ، ويا للأسف .

أمي ، لقد شق المصاب ، وتفتت الكبد ، وان لساني الضعيف يأبى إلا ان يجود في رثائك ، لست أعلم ، لست ادري كيف اعدد جميل سجاياك وأنا خاشع أمام جثتك الهامدة أنحني لتقبيل يديك .. لتقبيل المحمل الذي يضمك يا من خلفت لي الحسرات وتصاعد الزفرات ، وتركت لي من الفاظك الحلوة وألحانك العذبة ما يناديني في كل وقت بذكرياتك التي كانت تسرح عن ذهني عناء الافتكار كنت تسلينني بفكاهاتك اللذيذة فأسلو هموم الدنيا ، اما الآن فماذا تراني اقول .

ويح قلبي الحزين الذي يفيض من المآقي دماً لا دمعاً لتعداد مآثرك الحميدة يا من صرفت عمرك بعناء وشقاء فغرست في نفس وحيدك بذور الفضيلة والآداب ، وأسريت في غضونه معالم العلم والأدب ، وأفضت من جنانك مآثر الفخر والازدهار .

أمي .. أجل ، أيتها الأم الحنون . أنت أمي وأبي ، أنت الوالد والوالدة ، أنت الكل ، وفيك الكل .. فكيف أجود بوصف مآثرك الحميدة وشخصك نصب عيني أناديه وهو صموت ؟ كلميني يا أمي ولا تبكي ..

ليت الغراب الذي نادى بفرقتك يعرى من الريش لا تحويه اوكار

استودعك الله للنظرة الاخيرة التي حرقت فؤادي .. سلام عليك يا أمي ورحمة الله فلتتغمد روحك الأبية ، أقرك الله في جنان خلده مع جماعة الابرار الصالحين ، آمين .

٢٥

وردت التعازي بأم منير من كل صوب وناحية ، سيما وان الاصدقاء الذين كانوا يألفونه لم يتأخروا عن اداء التعزية بزيارات استثنائيـــة معددين مزايا والدته الحميدة . .

كانت عمته ترتاد منزله وقتاً بعد آخر وتغار على صوالحه ، وكأنها كانت تلجأ اليه قصد الافتخار به ، وهو نفسه كان يلوذ بها ويعتني بمعاملتها . .

ويروى لنا ان تلك العمة بعد أن أولعت بابن اخيها الولع الشديد وتغلبت عليها العواطف الودية اخذت تدور بين أفراد اسرتهـــا وتعلن لجميع العائلة سجية ابن اخيها وتطوره إلى افتتاحيات المعالم المنشودة ، فكلفت خـالها أن يقيم عندها مدة طويلة لتكون له اداة معرفة على ابن اخيها . . فناشدت خالها بالاطلاع على ما هي عازمة ان تعمل، وبرهنت له عن مزايا ابن اخيها الحميدة ، وأبرزت لديه الصك المسجل باسم امها للبناية الموروثة من أبيهـــا ، فأظهرت الرغبة الفائقة أمام خالها لتوقيع السجل إلى ابن اخيها منير .

فلما كان ذلك الخال شهماً كريماً فاضلاً ، سرّ غاية السرور أن يتعرف على منير زعماً منه انه ربح نسيباً كهذا ذا رتبة سامية ومعالم أدب ونبل . .

فلما تبينت العمة بمعرفة ذات البين مع خالها وابن اخيها هتف الخال باسم منير وأرسل بطلبه اليه عاجلاً . . لم يبطء منير فحضر اليه وعانقه مقبلاً إياه بكل انعطـاف ، وكانا كلاهما يتهللان طرباً بالمعرفـــة الجديدة ، فانبسطت

لديهما المحبة المتبادلة والالفة المتوالية ، فسُجلت البناية باسم منير بحضور الخال المذكور ..

ما برح منير يتردد الى دار خاله بدعوات خصوصية تشمل زوجته وأولاده حتى تعرّف على جميع افراد عائلة ابية ، وتهــافت الجميع للتعرف عليه ، نظراً لما عرفوا عنه من مظاهر النجاح والأعمال الطيبة، فعرفوه بالاسم قبــل ان يعرفوه بالجسم ..

كان هو يشعر بسرور عميق في قلبه لمناسبة تعرفـــه عليهم ، وبالأحرى حينما كانوا يدعونه الى بعض ولائم ليزيدوا فيه دعائم المحبة والاخلاص فيفخر بمؤازرة عائلته المتأصلة بالنبل والكرامة تجاه عمه المتصرف وعائلته ..

فبعد ان استلم منير البناية المسجلة باسمه ارتاحت نفسه لاكتساب النعمــة التي أسبغها عليه الله من جزيل بركاته ، فأفرز لعمته المكان الذي يحلو لها أن تقيم فيه ، وانضم اليها مع أفراد اسرته وقطنوا في الطابق الاعلى من البناية ، والطابق السفلي للايجار ..

طار قلب العمة فرحاً حينما تأكد لها انها ستنهي حياتها الأخيرة بجانب من يلوذ بها ويغار على محبتها ، ألا وهو ابن اخيها الذي سيكون يومـــاً مكلفاً بتحمل صعوبات حياتها الاخيرة التي يصـــل اليها كل انسان في شيخوخته ، وبالأحرى فإنها عانس ليس لها لجوء إلى رجــل ، أو الى والدين ، أو الى من هو أقرب المقربين لها سوى منير الذي كانت تثق بــه تمام الثقة انه سيتحمل يوماً الاهتمام باسقامها وارتحالها من هذه الحياة الدنيا ..

وهكذا بسطت يد الارتيــاح اليه . ولدى غرابتها في وضوح تجديــــد المساهمة في موضوع ألفتها معه وتجريد كل ظن سيىء من ثقتها به لمعاملتها فقد أثبتت له كل حصتها في البناية ، فتقدم منير الى عمته مقبلاً يديها ووجنتيها وشاكراً لها غيرتها وعطفها داعياً لها بطول العمر.

كان منير بعد عودته من العراق تدبر بوظيفة مفتش في الدوائر الحكومية

للتضامن الاجتماعي يزهو بعمله متخذاً لنفسه عدة اصدقـــاء أوفياء من أرباب الدوائر ..

كانت العمـة تغدو في الصباح الباكر فتقطف الأثمار اللذيذة ، مثـــل الأكيدنيا الشهيـــة الطعم التي تروق للنظر ، وفي أيام الصيف تعود الى قطف العنب ، فتقطف العناقيد المذهبة من الدوالي المدلاة فوق جدران الحديقة ..

كانت تناديه وتقول له ، واعمتاه ، إنهض من فراشك وهلمّ اليّ هيا بك، اقطف العنقود بيدك وطب شهية بطعمه اللذيذ،إنهض بربك يا عمتاه ؛ ها قد حان موعد خروجك للعمل ، فما بالك غارق في سبات أحلامـــك ؟.. هاك ازرار الورد والريحان والياسمين أضمهـــا اليك باقة فباقة فهي عنوان المحبة الفائقة .

منير .. بالله عليك يا عمتي ، كم الساعة الآن ؟ . هاتي الساعة يا جلنار .. العمة . هي الساعة السابعة والنصف يا عزيزي .. ربما تكون تأخرت عن عملك ..

منير .. أصحيح ما تقولين ؟ .

فلما أحضرت له الساعة جلنار وأكد أنها الساعة السابعة والنصف تمامـاً صاح .. ياه .. إنه ليس من عاداتي أن أبقى نائماً إلى هذا الوقت ، إنما وقـد أضناني الأرق في هـــذه الليلة والسهد أملّ نفسي ولذا تأخرت بالنهوض من نومي .. لكنني وعلى كل حال اصبحت في الستين من عمري عما قريب سوف أحال للتقاعد فيرتاح بالي من الأعمال التي يفرض عليّ عملها ..

إن ابنتي الكبرى جاهدت الجهـــاد الكلي بدروسها فنالت من العلوم اسماها ، وتفوقت بفوزها على غيرهـــا لنيل شهادة فنّ العلوم وهي تعمل كموظفة كبيرة في إحدى الشركات تحصل على راتب لا يقلّ عن السماية ليرة شهرياً ، وتزوجت من فتى نبيل كان موظفاً في تلك الشركة ، وهاك الابنة الثانية تابعت دروسها وحصلت على شهادة فن العلوم نظير أختها وهي مخطوبة

لأحد الفتيان من ذوي الثروة الطائلة .. علومه مستوفاة مبادئه سامية ..

وها إن ولدي سمير سينال شهادة صيدلاني في هذه السنة ، وقد جمعت له وفرة من المال لافتح له صيدلية لحسابه ..

لي راتب خصوصي أتقاضاه وأنا متقاعد عن عملي ، فما لي وللجهاد فيما بعد ؟ ..

طيبي قلباً يا عمتي ، تعالي اجلسي أمامي فاشتم رائحة ازهارك التي أنعشت قلبي في هذا الصباح ، وطيبة أثمارك ذوقت لساني طعم الحلاوة اللذيذة .. خصوصاً الأكيدنيا .. آه ما أطيبها من يدك يا عمتي ، وهل هي من غرسك أم من غرس جدتي ؟

العمة ، هي من غرس جدك رحمه الله ..

ففي ذات ليلة جمع منير اولاده إليه لقضاء ليلة أنس .. فطفق يقول ..

تعالي يا جلنار ، تعالوا يا أولادي فنأكل هنيئاً من طعام العمة اللذيذة ، هلموا اليها .. كلوا من ثمارها اللذيذة التي قطفتها يدها المباركة ، وما أحلى ما قاله النبي داود في مزمور المائة والثالث والثلاثين .. هوذا ما أحسن وما أجمل أن تسكن الإخوة جميعاً معاً ، فأبرقت حياة الجهاد في سياق التيسير للحصول على انتظام طريقة مضمونة لطلاقة البرنامج الذي انحصر في دائرة منير المرتبطة بأفراد أسرته .. فصرفوا تلك الليلة بصفاء وهناء جذلين فرحين بين هرج ومرج واحدوثات غريبة ..

ففي الصباح غادر منير منزله الى العمل وقلبه يختلج بالسرور ، ثم عاد عند الظهر فوجد الجميع بانتظاره فلما عاينوه صفقوا له فرحين مقبلين وجنتيه وهو يغمرهم بحنانه ..

وقد حانت الساعة الاخيرة لجلاء منير عن منصبه وإحالته للتقاعد عن العمل ..

٢٦

خرج منير مسرعاً الى منزله فجمع اولاده ثانية مع العمة المذكورة وأخذ يتغنى بمآثر أمه ويحثهم على الاقتداء بالعمل الصالح الذي جاهدت في حياتها لكي تضمن لهم سعادة المستقبل ، فأردف يقول ، أنظروا إلي يا أولادي وتبصروا بحالي كيف، أتكلم معكم وأنا متكىء على فراش الراحة وقد حصلت الآن على الراحة والحرية التامة ، أذهب حيث أشاء ، وفي أي وقت أشاء أعود الى راحتي راغداً ، ناعم البال ، إن سرتم على خطتي وتوليتم جهادي تستمدوا النعمة من الله ..

ففي تلك اللحظة تحركت في قلوب أولاده أوتار الحنين لتلك النعمة التي ذكرها لهم الوالد فقالوا وكيف يمكننا أن نحصل على النعمة التي استمديتها أنت من الله ؟

أجاب الوالد : انه من جمال الحياة أن يعيش الانسان منذ الصغر والاماني ملء صدره .. ويجب أن نثق بأنفسنا أن امكانياتنا مملوءة بالفرص المناسبة الواسعة لاتخاذ القرارات التي تملأ مخيلتنا وتساعدنا على شق طريق السعادة في الحياة ..

أجابت الابنة الثانية ، وهي دعد : وكيف بنا ونشق طريق السعادة يا أبي ؟ أفيجدر بنا أن نسعد بحياتنا أكثر مما نحن عليه من السعادة بحوزتك؟ وفي حضرتك ؟ وقد افترّ ثغر الوالد وطفح قلبه بالسرور لجوابها ، فتقدم اليها وقبلها ، وقال لها ، صدقت يا ابنتي ، فإنك تسألين عن حكمة ،

وتجاوبين عن فهم ، ولكن اصغوا الي الآن يا اولادي وتمسكوا بالاقوال التي أسردها على مسامعكم ..

هتف الاولاد باسم والدهم وانحنوا خاشعين لسماع أقواله ..

قال لهم : إعلموا ان طريقة السعادة لا يمكنكم شقها إلا بواسطة الجهاد الذي يفتح بوجهكم أبواب الهناء ، إن تسألوا عن النجاح الباهر ، فبالاجتهاد منذ نعومة أظافركم لغاية فتوتكم ، فشبابكم .. وان الذين يعتقدون أنه لا لزوم لمصارعة أهواء النفس لا يدركون الفرق بين من يستمد الخير بالطموح فيجهد للحصول على اكثر مما يبتغي ، وما بين من يتهاون في سبيل الجهاد ، او بالاحرى يستند على إرث أبيه الذي يؤمله سعادة الحياة .. فهذا يشكل خطراً كبيراً على حياتهم لان التقادير لا تأمن شر غائلة الدهر .. والعامل الاكبر يا اولادي في سر النجاح للحياة الهنيئة التي توصلت اليها بفضل ربي هو الايمان بالله والثقة بمزته تعـالى الذي يسكب من غيوث نعمه على من يشاء .. وعلى من يطلب منه بايمان والحاح ..

فلا نكران لنا أن الله سبحانه عز وجل أفاض علينا من فضائل نعمه وبركاته ما جعل لنا نظرة في الحياة ذات قيمة حقيقية،وذات معنى حقيقي ، وان الايمان هو الملاذ الاول والاخير لحياة الانسان اذا حاول أن ينطلق الى الرجاء والايمان ..

هتف الاولاد بصوت واحد : لا فضّ فوك ايها الوالد المفضال ، بوركت أيامك بفضل الله ، لان مروءتك أورثتنا معواناً للتغلب على جميع العقبات التي تداهمنا وتعترض سبيلنا وتنزل بنا الى دركات الجهل ..

الابنة الكبرى ليلى .. ألا أعجبـك أنا يا أبي ؟ .. فأنا حزت على شهاة فنّ العلوم كان راتبي لا يقل عن السمّاية ليرة لبنانية شهرياً ، أفـلا يكفي هذا يا أبتِ ؟ ..

الابنة الثانية دعد .. أما يكفي وأنا أيضاً تابعت دروسي العالية حتى

حصلت على شهادة فن العلوم مثل أختي وراتبي لا يقل عن راتبها ؟ ..

أجاب سمير ، وأنا يا أبي .. أفلا يعجبك أن حصلت في هـذه السنة على شهـــادة صيدلاني ونحن بانهاك لفتح صيدلية خاصة لنا ؟ ..

ضحك الوالد ضحكاً شديداً فقهقه وقال لهم ، بوركتم جميعاً يا أحبتي ، وفق الله أعمالكم للإقبال والنجاح ..

العمة — لا يسعني الآن إلا ان افتح فمي واقول : انني اشكر الله العظيم الذي منحك ياعزيزي عقلا سليماً وايماناً قويماً لتردد اقوالك هذه على مسامع أولادك النجبـــاء الذين نشأوا على فضيلتك ، وتسربت الى مشاعرهم الرابطة التي يتساقون اليها بمحبة الله الموطدة بالآمال والايمان ، فتجعل فيهم وجهة نظر ليشعروا بالغبطة اذ يكون لهم اذ ذاك الحصول على الطمأنينة التي ترتاح اليها نفوسهم ..

قالت الام ، وما يضرّ بكم لو التحقتم بالامور الصالحة تمسكوا بأقوال أبيكم ولا تنبذوا له كلمة ..

أجاب الجميع ، إننا راضخين لأحكام الله ولأقوال ابينا ..

دام منير سعيداً ، قريراً برؤية اولاده ودعمهم بتقوية الامور التي تنهيهم عما تغشى عقولهم ولا ريب انهم كانوا قد تشددوا بإفادات جمة على تأسيس اسلوبه الشيق المفيد ..

فنهض الوالد منير وهمّ بافتتاح صيدلية لابنه تتدفق من ورائهـا الخيرات الوافية .. وبات الجميع سائرين برحمة الله على صعيد التقدم والنجاح والاقبال

كان يسر الوالدة جلنار بشرى تطور أولاها علىالنجاح الكلي الذي طابت له نفوسهم .. وتتمتع بلذة التطلع فيهم فيزقزق قلبها طرباً لامتداد تفوقهم على سواهم ، وعدم انتزاعهم الدرجة الأول التي كانوا يفخرون بها ..

اخيراً ، جاء بنا القلم لنسرد للملأ واقعة ما كان من امر تلك العمة الـتي عرفنا الكثير الكثير عنها ، انها كانت قد احتاطت بابن أخيها منير وعائلته ،

فبعد ان مرّ على وجودها معهم نحو الخمس عشرة سنة كان منير محباً لها ومحبوباً منها لأنها عومِلت منه أحسن معاملة ..

اما هي فبعد ان اصبحت طاعنة في السن تشكو من ضعف اعصابها وبعض انهيـــار في قلبها .. أخذ منير يقوم لها بالمعالجات مع عدة اطباء ويعتني بها كأنه إداء عمل يفرض عليه ..

كان لا يبرح من أمامها ، بل يسليها ويحدثها بلطيف عباراته ، فيقول لها عمتي ، أنا لك بكليتي وأمامك ، وجميعنا لخدمتك يا عمتاه ، لا تجزعي ؛ فالله هو ولي أمرك ، كان يسقيها الدواء بيده، ولا يسمح لأحد أن يغذيها بشيء إلا من يده .. كانت العمة تتعزى عندما تسمع تلك العبارات المنبثقة من ذلـــك الفم الذهبي ، ودام يتحمل مسؤولية علاجها ، فصرف عليها من الاموال مبلغاً وافراً طيلة الثلاث السنوات الأخيرة التي قاست فيها أشد الآلام ، وما انفك يسير وراء معالجتها والاعتناء بها حتى حالت دون الشفاء وأتاهـــا اليوم الموعود ..

ففي احدى الليالي بينما كانت العمة ملقاة على سريرها ومنير جالساً على كرسي بالقرب من سريرها إذا هي تفاجــأ بنوبة قلبيــة تتمرغ وتزبد وهي بحالة مرعبة ..

فارتاع الجميع لحالتها . هب منير لساعته واسرع بطلب الطبيب، وما إن وطىء الطبيب المنزل حتى كانت قد أسلمت الروح ، وهي بين ذراعي منير يذرف الدموع لفقدها ، ويرثيها بالحزن العميق لشدة محبتها له وغيرتها عليه .

فقام لها منير بمأتم جليل حضره جمهور كبير من أفراد العـــائلة والرهط الكرام ، وصلى على جثمانها سيـادة مطران الكاثوليك ولفيف الاكليروس ، وتوافد الناس لتأدية التعازي بالعمة المذكورة رحمها الله . فدخل منـــير في طور جديد مع الحياة العائلية لا أنين ولا طنين ، ولم يعد له إلا أن يسرح ويمرح مع أفراد أسرته التي كانت تتقدم على صعيـد النجاح من وراء الدأب

لكل عمل مفيد .

وتكللت الابنة الثانية دعد واسكنها والدها بجواره في ذات البناية دون أختها التي أمنت لنفسها حياة سعيدة في بناية فخمة تخص زوجها .

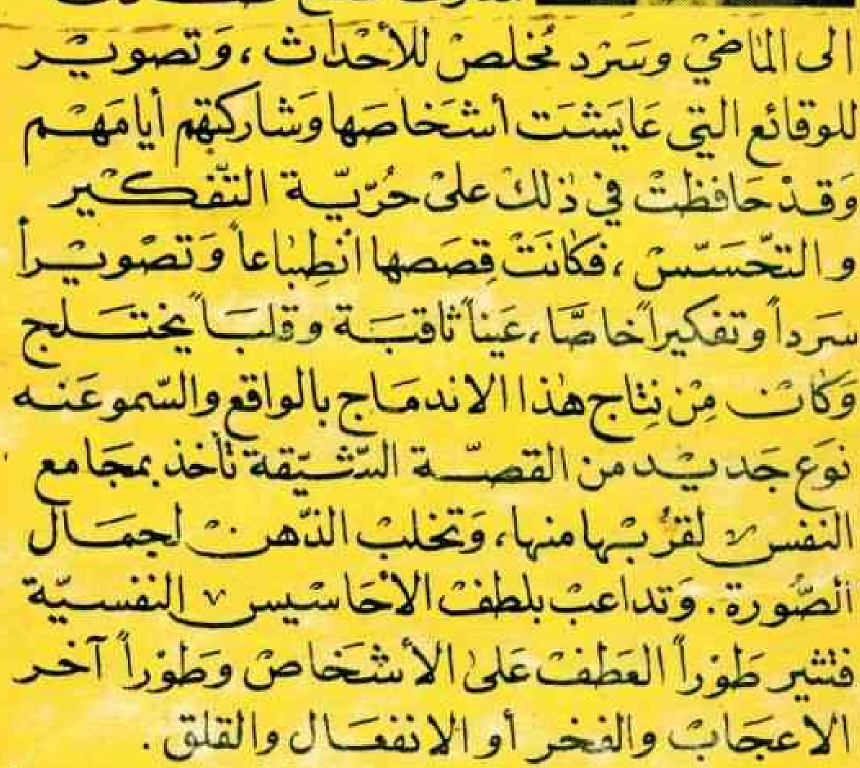
ما زال منير يردد على مسامع أولاده أسرار حياة أمه الفاضلة وينشد الاناشيد الشجية التي كانت تلحنها بصوتها العذب وينشرح قلبه عند ذكراها .

وكان لا يفتر عن ذكر حلقات أمومتها التي كان يفتخر بها لاظهار عطفها وتضحيتها في سبيل احلامها ، وهو ما زال حتى الآن يزور مثواها وينحني خاشعاً أمام تربتها ثم يعود فيحضر القداس ويقدم في كل سنة تضحية قدر ما تمكنه يده تذكاراً عن روحها .

عاش منير طيلة حياته شبه يتيم لا يعرف له أباً حتى الوقت الأخير ، وساد في قصره الدائم ضمن نطاق أسرته التي ضمها اليه بروح المحبة والقداسة والقناعة ولما كان يتجول في انحاء الحديقة كان يحلو له أن يتغنى بادوار المسرحيات قصد التسلية وأحياناً كان يسعى مع عائلته الى المتنزهات ، فعاش منير سعيداً ناعم البال قرير العين مرموقاً بعناية الله ، بارزاً في آماله وأعماله وأقواله ، وهو ما يزال حياً مع أفراد أسرته .

واهتز الرجلان في مقعديها ينفضان عن أفكارهما جو القصة الحزين وخرجا من المقهى عائداً كل منهما الى بيته .

مطابع بيبلوس الحديثة
فرن الشباك – شارع مار نهرا
تلفون : ٢٨٤٥٢٩



المؤلفة والكتاب

قصص السيّدة كاترين معلوف تطلع صادق الى الماضي وسرد مخلص للأحداث، وتصوير للوقائع التي عايشت أشخاصها وشاركتهم أيامهم وقد حافظت في ذلك على حريّة التفكير والتحسّس، فكانت قصصها انطباعاً وتصويراً سرداً وتفكيراً خاصّاً، عيناً ثاقبة وقلباً يختلج وكان من نتاج هذا الاندماج بالواقع والسّمو عنه نوع جديد من القصّة الشّيقة تأخذ بمجامع النفس لقربها منها، وتخلب الذّهن لجمال الصّورة. وتداعب بلطف الأحاسيس النفسيّة فتثير طوراً العطف على الأشخاص وطوراً آخر الاعجاب والفخر أو الانفعال والقلق.

خلدت المؤلفة الى نفسها تغرف منها قصصاً عايشتها في حياة حافلة بالأحداث الدّاخلية، ملأى بالأحداث الخارجيّة الزّاهية والأليمة، فكانت المصوّر والشّاعر وكانت الصّحافي والمعلق. وجميع ذلك في قالب متفرّد بإخلاصه وصدقه وتوجيهه.

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت
الثمن: ٤٠٠ ق.ل. او ما يعادلها